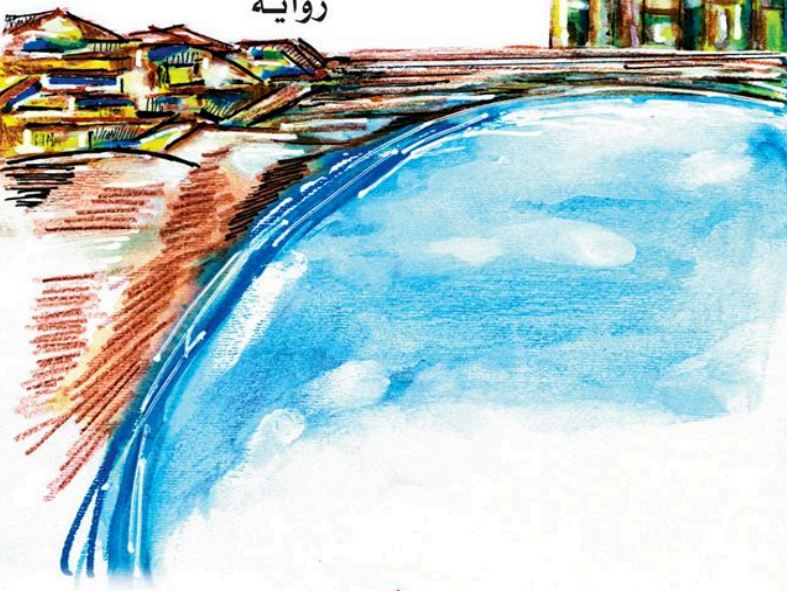


صبحي فحماوي

الاسكندرية 2050

رواية



الاسكندرية ٢٠٥٠

صبيحي فحماوي

الاسكندرية ٢٠٥٠

رواية

دار الفارابي

الكتاب: الاسكندرية ٢٠٥٠

المؤلف: صبحي شحماري

fahmawis@gmail.com

www.sfahmawi.com

الغلاف: فار من غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: ٣٠١٤٦١ (٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥ (٠١)

ص ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ١١٠٧ ٢١٣٠

e-mail: info@dar-alfarabi.com

www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

ISBN: ٩٧٨-٩٩٥٣-٧١-٤٦٤-٩

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونيا على موقع:

www.arabicebook.com

- عندما دنت ساعة ولادة الجميلة مورا - التي تحولت إلى شجرة وارفة الظلال- فانشق لحاؤها، وخرج الوليد أدونيس من جذعها، وأسمرت الحوريات بالتقاطه، وغسله بدموع أمه، ووضعوه فوق العشب. وكان أدونيس جيلًا جدًا يشبه إله النباتات.

(الشاعر الروماني أوفيد)

- " لو نقدر أن نعيش على غير الأرض، فنكتفي بالتور كالثبات وليس دما سوى عصارة أعدت منذ الأزل، غداة لشجر السماء فأنا كرمة مثلك، وستُجمع ثماري وتُحمل إلى المعصرة. "

(جبران خليل جبران - النبي)

- ولاذ النيل بأذيال الفرار، وخبا رأسه في الصحراء. وإذا اعتاد أن يقذف بمياهه عن طريق سبعة مصبات، فلم يبق سوى سبعة مجار جافة.

(توماس بلفينش - عصر الأساطير)

- إن انهيار عالم عتيق، وشيك بالفعل. إن شيئاً سيحدث على نطاق واسع. العالم يريد أن يجد نفسه.

(هرمان هيس - دميان)



إهداء

إلى

١٨ شارع قنوات،

حي باكوس - الإسكندرية .

الأسكندرية الخيرية

شبكة المخابرات الخاصة ١

الزمان: ٢٥ - ٩ - ٢٠٥١ .

المكان: عكا .

نحن شبكة إنتاج، متخصصة بالتجسس على عباد الله، منذ لحظة الولادة، وحتى لحظة الوفاة. وبناء على معلومة تقول: "إن المحتضر يتهالك على سريريه خلال الساعة الأخيرة من عمره، فيتذكر كل الذي مضى، ويستعيد ذكرياته من المهد إلى اللحى، فتمر الأحداث كلها مضبوطة في مخيلته بسرعة مذهلة، يتذكر فيها كل شيء، وكأنه يعيشه الآن." فإن عملنا يقوم على تسجيل رقمي، لكل ما يدور بخلد الإنسان في تلك اللحظات الفاصلة.

لقد انتهى عصر الرومانسية، التي تستغنى بنسمة الهواء على خد المحبوب. لو نكشف عن الضائغ والأسرار السابحة أمام أعيننا، والتي تلوث نسمة الهواء، فقد يُجن العاقل، وتجهض كل ذات حمل حملها. هذا إذا بقيت حتى الآن عاقلة تحمل حملها في بطنها!

إن نسمة الهواء التي كانت تشرح الصدر يا عزيزي، نراها

الآن أمام أعيننا تنغل دوداً حياً يسعى! نقصد أنها تنغل آهات
وصسرخات، ومعلومات وأسراراً، ورسائل، وشيفرات
عسكرية، وعلومًا ووثائق خطيرة، وخيانات، وأغاني وأفلاماً،
وصوراً مختلفة ألوانها، وموسيقى وأصواتاً ما أنزل الله بها من
سلطان.

كل التأملات والأفكار، والأسرار الدفينة بداخلك، وأحقادك
على الآخرين وعلى الحكام الظالمين، والخطط المستقبلية، التي
يطبخونها داخل مواخيرهم، والتي لا تخطر على بالك، وكل من
يضرط في آخر الدنيا، تدخل ذبذبات ضراطه في أذنيك المستقبلين
لأي شيء يصدر من هذه الشريحة الكمبيوترية المدمجة! لقد كشفنا
عنك سترك، وسجلنا كل ذلك في اللوح المحفوظ!

صحيح أنها فضائح وهموم وعذابات، تنزل على كاهل المتلقي،
فتكاد تُذهب عقله، ولكن هناك وضوح في الرؤيا. لقد أزلنا طاقية
الإخفاء عن الأسرار. والسر لم يعد سرّاً. وهناك تخصص في
الاستقبال، فهذه الأجهزة تحلل المعلومات السياسية وتصنفها، وتلك
العلمية، وتلك الفنية.. وتخصصات لا أول لها ولا...

تستطيع القول إننا أجهزة مخابرات خاصة في عصر
الخصخصة، حيث تقف أجهزة المخابرات الحكومية عاجزة
عن الوصول إلى ألف باء المعلومات التي تسجلها مؤسساتنا

الخاصة على أقراصها الحساسة، ولذلك فهم يعتمدون علينا في كشف المستور!

لقد تميزنا في رصد الأفكار التي تدور في خلد الخارجين على القانون، والمعارضين، واستحلابها وتسجيلها، وكشف زيف المناققين، ونجحنا في نبش عقولهم من الداخل، دون أن تقترب منهم، وسجلنا كل ما يدور في أذهانهم من أفكار وأطماع ومؤامرات، وخروج على الإطار العام!

ونحن المنفذون لهذه الأعمال البشعة الممتعة، رغم أنها تتنافى مع الحرية الإنسانية، لا نتورع عن رصد تحركات الحكومات الموجهة ضد رأس المال المسيطر. نعم نتجسس على الحكومات لصالح الأشخاص. فما داموا يدفعون، نقول لهم: "حاضر". نحن ببساطة شركة فنية مرخصة للتتبع، تنفذ ولا تناقش!

وبناء على طلب السيد برهان، قمنا بتسجيل ما يدور بخلد أبيه مشهور شاهر الشهري من تفكير، خلال الساعة الأخيرة من حياته، وهو ينازع سكرات الموت هنا في عكا. ولهذا شبكنا سماعة على رأس المهندس مشهور، لا لتسمعه آيات من القرآن الكريم بينما هو يُحتضر، بل لتتتبع، وتشغف منه ما يدور بخلده في هذه اللحظات الحاسمة.

المُحتضر مشهور شاهر الشهري يتمدد مقبوضاً على سرير جناحه الخاص، الذي جهزته له ابنته سمير، منذ عودته للتقاعد والاسترخاء، وقضاء بقية عمره بين أسباطه في مدينة

هكذا، ينازع الرmq الأخير الباقي له بين الحياة والموت، فيحس وكأن السماء تلتصق بالأرض، وهو مكبوس ما بينهما، ويتنفس من خرم إبرة ! يحاول أن يستمتع بآخر شعاع ضوء كوني، تلتقطه بقايا حواسه المتخلية عنه، والهاربة من خدمته. ولكن عقله - آخر حصونه - ما يزال يعمل بتسارع عجيب.

وما نشفظه من ذكريات وأفكار وخيالات ماضية في ذهن الرجل، ونسجله على قرص مدمج، مدهش حقاً، تستطيع أن تسمعه بسهولة ويسر على جهازك الخلوي. فتفضل يا عم، اسمع، أو اقرأ ما سجلناه وحررناه، ودققناه وقدمناه، على شكل رواية مدهشة، استطعنا أن نوثقها ونبويبها، وترتيبها طباعياً، وترجمها إلى كل اللغات الناطقة، في الشريحة المدمجة التالية :

الزمن الأصفر!

يا إلهي ما أبهاك أيتها البجعة البيضاء الجميلة، الطافية فوق
بحر أزرق، أيتها الجثة المضطجعة على رمال شاطئ من ذهب! ما
أشهاك يا أجمل الجميلات، وقد ضمّحك عطر البرتقال، حتى لقد
ثُيِّمت بحبك النسمات. ما أنفأك وموج البحر يغسل قدميك ويرشق
ماءه المالح الذي يرغب ويزيد في حوضك، متسلقاً ساقيك العاريتين،
يدلكهما صباح مساء، فتبدين فيه ساحرة الحوريات، وصدرك
العامر موج البحر، يعلو ويهبط، وصفحات أمواجك المتصاعدة
هبوطاً، تشكل تضاريس أجساد نساء الإسكندرية السمينات
النحيلات الشقراوات السمراوات الكاسيات العاريات الحاملات
بأيديهن أوراق البردي بأسماء الله الحسنى.

أيتها الحبيبة المراوغة، اللئيمة المفرورة، وأنت تتنكرين لي،
وتديرين وجهك تيهاً وكبرياء، ولا تحلمين بي، ولا تسألين عني،
رغم أنني أحبك، وأنقر بابك، ولا من مجيب!

"نحن ملتقيان مفترقان؛ فأنت المقيمة هنا، راحلة
بالقلب معي، وأنا الراحل عنك، مقيم بالشوق إلى جوارك."
هذا ما قاله أنطونيو لكليوبترا وهو يعانقها ويتابع أشعاره:

"حين يتعانق عاشقان متحابان مثلنا، فلن يجد العالم لنا نظيراً.
واني أشهد الأرض على غرامنا، ولو دفعت حياتي ثمناً لهذا. كنت
تعليمين حق العلم أن قلبي مشدود إليك بحبال شداد، وأن سلطانك
على روحي مكين، فإن أومات إليّ، صدعت بأمرك، ولو عصيت كل
شيء!" أنطونيو مستمتع بحب كليوبترا الخاضعة له، وأما أنا
فخاضع لغرامك المتحكم في أيتها الإسكندرية!

كم سنة مضت وأنا غائب عنك! يقولون: "إن البعد جفاء"، وأنا
والله لم أجف، ولكن الزمان جفا! تنقلت في ربوع الكرة الأرضية،
(لم تبق زاوية بجسم جميلة، إلا ومرت فوقها عرباتي). ولكن
الجماليات عندي، لسن جميلات نزار، بل هن عجائب الدنيا
السبعمائة، فلقد طفئت الدنيا كلها، ابتداء من شلالات النرويج،
المنقلبة من بين يدي الله، لتسقط بين غابات داكنة الاخضرار،
عبقرة الروائح النباتية والطحالبية، ووديان معلقة في
السماء، وسبّنتني غيوم تطير في قيعان المحيطات، وتهت في
صحاري الرمال المحروقة، حيث تسبح الثعابين في أنهارها
الباطنية، واستمتعت بجمال الحداثق الأندلسية العربية، التي
سبهاها الفرنسيون، وغيروا اسمها، كما يُغيرون اسم عائلة الفتاة
بعد زواجها، فصارت حداثق فرنسية، وطاردت البهارات والعطور
والتوابل في طريق الحرير، التي سار فيها العرب المسلمون
باتجاه الهند الصينية، وتبحرت مع شلالات خط الاستواء،

ذات الروائح الشبقة في غابات إفريقية، فَنَبَتْ شجرة مانجا، نهودها الصبّية دائية في دلتا مصر أم الدنيا. وقذفتني تسونامي الشرق الأقصى إلى سور الصين العظيم، واحتفلت مع الفيتناميين المتحررين من استعباد اليورانيوم المنضب، فإذا بي أعيش الحفلة اللاحقة على رمال الوطن العربي، المنقّص من نقطه الذهبي الأسود. وتجمدت لأكون تمثالاً في جليد ألاسكا. وقفزت من برج برلين الدوّار، إلى برج إيفل الواقف في السماء كالرجل المُحدّق، إلى برج بيزا المائل، ومن تمثال الحرية المنفلتة من عقالها، إلى برج مركز التجارة العالمي، واللذين "لأمر ما جدد قصير أنفه" تنقلت بين كل هذه العجائب وغيرها، فما وجدت مثلك يا اسكندرية في البلاد وأرجو أن لا تؤاخذيني، فأنا ابن المائة سنة من العمر، قد بدأت أخرف. هل هذا هو عمر الخرف؟ لا أعتقد ذلك. فلقد عاشت جدتي أنيسة مائة وعشرين سنة، وكانت "تقرط" الفول المحمص بأسنانها التي لم تعرف طبيباً مداوياً معنى ذلك أنني ما زلت أحتفظ بقواي العقلية، ولكنني عندما أختلي بالمرأة، وأحدق في عينيها، أتنهد وأعترف لنفسي القابعة في داخلها:

"أنت أيها الختّيار المُعتَق، مُخرِفٌ!"

لم تكن تتصور أيها العجوز أن تعود إلى الإسكندرية عام ٢٠٥٠، بعد أكثر من ثمانين عاماً من مجيشك الأول للدراسة الجامعية! ولكنك تعود متلهفاً لرؤية ابنك برهان، ومشتاقاً لاحتضانه ولشم رائحته، وقلقاً على الضحوصات الطبية لحفيدك الأخضر كنعان، في

مستشفى (شنغهاي - الإسكندرية)، الذي ذكره لك قائلًا: "هذا
الفرع (الأوروبي العربي الأفريقي) لمدينة شنغهاي الطبية الدولية
للأمراض الباطنية، معظم عملياته الاستشارية والجراحية تتم
عن بُعد، بواسطة أجهزة الكمبيوتر. وحتى الإبر الصينية فيه
تنفّس بتوجيهات من المركز!"

مائة عام وعام من العمر المُبَدَّد. كأنك دخلت هذا العالم من
باب، وخرجت منه من الباب الآخر! لم تكن تدرك أنك ستعيش،
حتى تصل إلى هذا (الزمن الأخضر)!

كانوا يقولون: "سيأتي على الناس (زمن أصفر)، تهب فيه رياح
صفراء، تصبغ الكون كله باللون الأصفر، فتصير فيه الشوارع
صفراء، والبيوت صفراء، والأشجار صفراء، والوجوه صفراء،
ويهجم أهل ياجوج وماجوج، صفر اللون، فيحوّلون كل شيء إلى
اللون الأصفر! كل هذا تفهمته، ولو في عالم الخيال. وأما أن يكون
حفيدك رائدًا لزمن أخضر حقيقي، فهذا هو ما لم يخطر لك على
بال!"

ها هي الطائرة الهيدروجينية (إيرباص ٦٣٦) تقلك من
دبي، فتشاهد من شباكها الصغير بحارًا زرقاء، وصحاري
شاحبة، وفي الجو غيومًا بيضاء متسارعة، وأبحرة تغطي
الفضاء من حولها، سرعان ما ترتفع شاقة مدى الجاذبية
الأرضية، إلى الفضاء غير الرحب. طائرات جديدة تنطلق من
مدى الجاذبية الأرضية، مثل انطلاق الأقمار الصناعية، لتقطع

المسافة بين دبي ومطار الإسكندرية الدولي خلال أربعين دقيقة فقط، كما يقول قائدها الآلي.

والطائرة بأبخرة أطعمة ركابها، ومشروباتهم المختلفة الروائح، وعطورهم الفواحة العبير، ممزوجة بروائح فساتيمهم، تتبدد سريعاً بفعل أجهزة الشفط الفاعلة، تقترب بك من الإسكندرية، بينما شاشات كمبيوترها تُصوِّر وتعرض لك في بث مباشر، مشاهد منطقة الدلتا المعتدى عليها من البحر الدافق، والذي يغمر أرضاً كانت زراعية خضراء، ويكاد يصل إلى سد البحيرة، الذي شيده حديثاً فوق تفرع ذيلي النيل، اللذين كانا ضحلين، فحصرهما لاستغلال كل قطرة كانت تختلط سدى مع ماء البحر!

تتقدم الطائرة بجراًة جسور، فوق منطقة البحيرة، وتقترب من شاطئه أبوقير^(١) الرجل الصبّاغ الحسود الحسود الكسول، والذي ليس له صاحب، سوى ذلك الرجل الطيب (أبو صير)، والذي صاحبه في رحلة الغريبة، والبحث عن لقمة العيش، فساعدته هذا الأخير، وعطف عليه، وأطعمه وآواه، ولكن سبحانه الله، "خيراً تفعل، شراً تلقى" فلقد عانى صاحبه أبو صير منه الأمرات، وليس الأمرين - على ذمة ألف ليلة وليلة - ولكن جشعه قتله، فأعاد أبو صير جثة

(١) (أبو قير) المؤلف يكتب الكنية مرفوعة - كما تحكى - بهدف تبسيط اللغة العربية.

رفيقته اللعين (أبو قير) معه، ودفنه بعفونته في هذا المكان. وبعد
عمر طويل، مات طيب الذِّكْر! أبو صير، فدفن إلى جوار (أبو
قير).

ولكن التاريخ لا يسجل سوى الشر، فلم يحفظ كرم (أبو صير)،
بل حفظ لؤم (أبو قير) وبشاعته، فخلده مُسَمِّياً الشاطئ الجميل
باسمه. ولا أحد في الاسكندرية الآن يحتفظ بذكرى حلوة، أو
حتى يعرف شيئاً عن الرجل الطيب (أبو صير). معظمهم يحبون
اللعين (أبو قير)! حتى أنت أيها الفاني، هل تكره (أبو قير)؟ بالطبع
لا، فأنت تحبها، وتتمنى أن تعود، لتتنسم هواءها الشرقي اللطيف،
الحامل معه رائحة ثمار مزارع الجواها الشهية، وتفرق تفرق في
بحرها الهاديء الخجول.

شيء عجيب أن الإنسان لا يخلد الطيبين! وإذا لم تعجبك
تخاريفي هذه، حدِّق جيداً في التاريخ، تجد أن أهم الشخصيات التي
تم تخليدها هم السفاحون والدمِّرون، ابتداءً من الشيطان الرجيم،
الذي اشتهر أكثر من كل الملائكة - ويا للمهزلة - فإن أبشع قتلة
التاريخ نالوا جائزة نوبل بسبب شدة قتلهم وبطشهم، وأي جائزة
منهن؟ إنها جائزة نوبل "للسلام"! والله لو كانت جائزة نوبل
للحرب، كأن يخصصوا لهم - مثلاً - جائزة اسمها (جائزة زيوس)
إله الحرب، لكان ذلك ممكناً، وأما أن يأخذها أولئك القتلة

” للسلام ” فيها سلام!

ها هي شواطئ المعمورة، وقصر المنتزه، تظهر على شاستك، مشبوكة مع مدينة الإسكندرية في معمار واحد. وقد كانت أيام صباك متباعدة، تفصل بينها أراضٍ زراعية. وعلى الجهة الأخرى بحيرة مريوط، ومنطقة الملاحات، التي كانت رياحها تذرُ الملح في العيون، فتبدو على شاستك وكأن شيئاً لم يكن! قالوا إنهم قد جفّفوها، وهما أنت تراها مزروعة بالمشاريع المعمارية، وملونة بالحدائق، وفرحة بالمنتزهات، ومتألّنة بأبراجها البلورية الساحرة. وعلى البعد، ترى مساحات واسعة شاسعة من تشوهات سكنية، لببوت صفيحية صدئة، متراسة مترامية، في نهايات منطقة البحيرة، يبدو أنها لبقايا الفلاحين والعمال، المتآكلين المعجونين بنفايات مدينة العولة، والذين لفظتهم وأقصتهم حرية رأس المال، وطردتهم إلى صحاري موحشة بعيدة، وكأنك أمام بانوراما معمارية متنافرة الصور!

وأما المدينة المدللة، المضطّعة شبه عارية بكل أبعادها على رمال الشاطئ، وكلّك شوق لأن تغمر وجهك في ثناياها، وتهبط فيها، وتشم رائحة رطوبة جسدها المنساب شرقاً، والهارب غرباً، كجناحي طائر رخ كبير، يصل الشرق بالغرب!

تعلن المضيفة الكمبيوترية للطائرة الهيدروجينية، ذات الأجنحة الأربعة، اقتراب هبوطها، وأنت تمس يدك، فتتناول

حبة دواء مقوَّ للأعصاب، وتبتلع حبة أكسير الحياة، بينما الناس يتهيأون للوصول، وأحزمة الأمان تنطلق من عقائلا ذاتياً، دون أن تشاورنا، فتزترنا نحن الركاب. وبالبونات الهواء الأمنية تستفخ، فتحتضن أجسادنا لحمايتها من جميع الجهات. تهبط الطائرة، المجهزة بوسائل الأمان والسلامة العامة، وتدرج بنعومة ويسر على أرض مطار الإسكندرية الدولي، فتشعر بأمان الالتصاق بأمن الأرض. الله ما أجمل هذا المطار الجديد!

كنت قد وصلت أول مرة إلى الإسكندرية عبر مطار القاهرة، في خريف عام ١٩٦٦، وعمرى سبعة عشر ربيعاً. أول مرة تركب فيها طائرة، كانت من نوع (دي سي ٢) بمحركين، تعرج بركابها السابحين المترجرجين فوق وما بين وتحت الغيوم. لم تكن تأبه لهزهزات الطائرة المقلعة من مطار قلنديا في القدس، ولم تحلم أصلاً بأن تركب طائرة ذات يوم. ولم تسمع من قبل إلا بتلك الطائرات التي كانت عائدة متهاكة من انتصارات الحرب العالمية الثانية، والتي لم يبق لديها شغل، فأهدوها لمن لا يخاف الله، فكانت تتسلى بقصف قوافل الفلسطينيين المهجرين عام ١٩٤٨، الحاملين أطفالهم بأسنانهم، وهم هاربون من حمم براكين الاحتلال الفاشم، مثل القبط التي تنقل أطفالها بأسنانها من مكان الخطر. وبين روائح القتلى المجندين، أم لطفل رضيع، أطفالها طلاقة قناص، فأردتها قتيلة على قارعة الطريق، والدم ينزف متخثراً من جيوبها المخردقة، والذباب يدوي على جثتها

النازفة، بينما يبقى رضيعها ملتصقاً بها، ويداد متشبثتان بشديها
الذي بَسَرَد، وهو يرضع رضيعته الأخيرة التي لم يكملها
بعد

الطائرات المشوهة بدماء الضحايا، تلاعبهم (الاستغماية)، ثم
تفاجئهم من خلف جبل، وتتمرجل عليهم، فتقصصهم وهم هاربون
في الوديان، لتزيد من ذعرهم، وتتعجل التخلص منهم، بإخراجهم
من حدود فلسطين الخضراء، إلى الصحاري العربية، ذات الرمال
المتحركة!

حب في الرياح القارسة!

هذه الطائرة الهيدروجينية المرفهة، المصنوعة من الورق الخفيف المقوى بنفس صلابة المعادن، تحت سر كون ذرة الكربون المتواجدة في الحديد الصلب، هي نفس الكربون- بشكل أو بآخر- المتواجد في الورق، تختلف عن تلك الطائرة المعدنية الثقيلة المغامرة (دي سي ٣) حيث كانت تجلس إلى جوارك يومها سيدة أوروبية تقرأ كتابها، فتشاهدك مرتبكاً وقلقاً، ولدى الوقوف للخروج من تلك الطائرة، تصافحها مودعاً، فتشم على يدك رائحة عطرها النسائي المثير!

"دونت ويرك هارد." تقول لك باسمه: "لا تعمل بمشقة، فإنك مهما تفعل، فلن تكن رقم واحد في العالم، ولذلك أرح نفسك، ودع القلق، وابدأ الحياة!" لا تعرف لماذا تقول لك هذا! هل لأنها تحبك، فتتمنى لك العمر المديد، والجهد الهادئ، والتمتع بحياة سعيدة، أم لأنها تريد أن تثبط عطاءك، وتبقيك عريباً متخلفاً عن ركب الحضارة الراكض بسرعة جنونية؟ ليتك سمعت كلامها، وأرحت نفسك من شقاء هذا العمر السريع النضوب! ليتك لعبت وفرحت رغم المنغصات!

ولكن كيف تفرح وأنت ابن النكبة الفلسطينية الغابرة؟ كيف تفرح وقد ولدت شقياً داخل خيمة تنثت وهج حرارة الصيف اللاهبة، وتنث رذاذ أمطار الشتاء المتلاحقة، تبرعت بها الجهات الرحيمة المتوحشة الحضارية الديمقراطية العظمى؟

كيف تفرح، وقد عشت طفولة مغمسة بالطين اللزج، تنعجن به في ليالي الشتاء القارسة، وأنت تلعب تحت المطر، بقدمين طفلتين لبنيتين حافيتين، فتحاول التخلص من الطين، بسحب رجلك الفارقة بتثاقل من هنا، لتغرسها هناك، فتجرح قدمك زجاجة مكسورة، مدفونة في طين قارعة الطريق، أو ينغرس مسمار حديد صديء في لحمها الطري، أو تزرق قدمك المتفختان كقطعتي جبنة عكاوية بفعل البرد القارس، ومع ذلك تستمران تاذهتين في دنيا الآلام، والمخاطب الأصفر المتبعج من أنفك المحمر برائحة عفونة مريضة لا يجد غير الذباب يحتويه، فتمسحه بذراعك؟

كيف تفرح وعذاب العصابات الهاضمة لمعدتك يُسخر أمك زكية، لتدفع لك صحناً فيه حبة بندورة خضراء، مخللة برائحة النشادر، تتوجها طبقة بيضاء من الفطريات المتخصصة بأعمال التخليل، فتأكلها باللهفة والنهم، مع رغيف خبز اقترضته من جارتكم أم موسى، واعدة إياها بسداد القرض عندما تحبز؟

كيف تفرح وقد قضيت طفولة كسيرة بائسة، تسير ثابت

العزم في درب المآليات، تحمل المياه بسطلين ثقلين من بطن الوادي، وتنقلهما بمشقة، وتحمل مسؤولية إلى الجبل، لتروي بهما نباتات بندورة وبصل وباذنجان وملوخية، كان قد زرعها أبوك في أرض مشاع، وسخر أطفاله للعمل الشاق فيها، كي يطعمكم من جوع، ويحميكم من خوف؟

تسير في "شارع الضباب" وأنت تحمل الماء الثقيل، ليس الماء الثقيل الذي تستخدمه الإمبراطورية الفالسة من عقائها، لصنع قنابل نووية صغيرة، ترميها على قارعة الطريق، كألعاب طفولية، ليلتقطها الأطفال الأشقياء مثلك، فتنفجر في وجوههم، ثم تنهم من لم يمت منهم بالإرهاب، بل كان وزن سطلي مياه الري ثقيلاً، ولا قدرة لديك على حملهما، ولكن مكره أنت لا بطل، فتسير بهما وأنت تشعر بكتفيك الطريتين تدخلان من مفصليهما، وعضلات ذراعيك اللبنييتين تتمزق، فلا تعود تقوى على المقاومة!

كيف تضرع، وقد قضيت بإدارة مراهقتك، مرافقاً لحماركم الأبيض المتضخم بحجم البغل، تنقل عليه - بأوامر والدك المشددة - مستلزمات الزراعة، وتحث الأرض، وتدرس أكوام القمح الذي جمعتهموه على البيدر، فتوفرون مؤونة السنة كلها، ولا تعودون تحتاجون أرغفة جارتكم أم موسى، ولا أم عيسى، ولا حتى أم محمد؟

مع أذان الفجر، يوقظك أبوك بالقوة، فتقوم وكأنك وحيد في هذه الدنيا، آدم بلا حواء. هل كان آدم مراهقاً عندما نزل

إلى الأرض برفقة حواء، أم كان رجلاً بالغاً عاقلاً، عارفاً ما له، وما عليه؟ وهل صحيح أن آدم وحواء كانا قد نزلوا إلى الأرض بمركبة فضائية من تلك الأطباق الطائرة التي يتحدثون عنها، قادمين من كوكب آخر، ونظراً لخلل فني في مركبتهما، علقا على الأرض، فلم يستطعا العودة إلى كوكبهما البعيد، فقعدا على هذا الكوكب، ملومين محسورين، وبقي أحفادهما حتى يومنا هذا ينضخون، مُعقدين، مكتئبين، مكفهرين الوجوه، ولا يشعرون بالسعادة مهما امتلكوا، بسبب غريبتهم عن وطنهم الأم في المكان البعيد؟

تقوم من نومك، وكأنك آدم القادم من كوكب بعيد! وهل فلسطين كوكب آخر بعيد عن الأرض، وأنت قادم منها وحيداً؟ وهل تحطم طبقك الطائرة هنا، فيعاملونك يا غريب الدار...؟

تقوم فجراً باتجاه الزربية، فتشاهد جحشك يبول على روثه الذي تتدخل روائحه النشادرية المتخمرة من أنفك إلى تشعبات رنتيك وأنت تُصَبِّح عليه، ثم تخرج القوي الأمين، وترافقه إلى طريق الأشغال الشاقة! ولأنك بلا رفيق، تجدك تتحدث معه، وتشكو له همومك، فينظر إليك متفهماً موقفك، وتضحك معه ساخراً من هذه الحياة الخرافة المجنونة، فلا تجد سواه متضامناً معك ومع الشعب الفلسطيني! تمسك بلجامه، وتسير معه بنفس مهزومة، بكل ثقة وثبات! هل سبق وأن شعرت بنفس مهزومة تسير بكل ثقة وثبات؟

البنات. "درب البنات شوكة" تقول لك جدتك أنيسة. وأما أمك زكية، فلم تكن تتكلم أو تنطق شيئاً، (صمٌ بكم، لا يفقهون، ولا يعلمون) بلى لقد كانت زكية ذكية، وتفهم الحب والحياة، شعرت بذلك عندما قالت لك ذات يوم مثلاً شعبياً بجهالة. لم يسمعها والدك آنذاك، لأنه لو سمعها، لشطبها من سجلات الدنيا، واعتبرها في خبر كان! يومها قالت:

"اللي بذه يبوسني، بيعرف راس خدي وين." فضهمت منها أنها كانت تعرف الحب والبوس. ولكنها لم تكن تعرف أن القُبلة قد انتقلت من رأس الخد، إلى الشفتين، وإلى مناطق أخرى غير مصرح بذكرها! كانت لديها معرفة، مع وقف الإفتاء، فلقد حددوا لنا سيدنا المفتي رسمياً، ولا يفتي إلا المفتي، الذي يُضَتِّنا بفت فتاواه!

والدتك زكية لا تتدخل لأنها (لا تأكل الفتة قد اللط!) وأبوك يضربها (عالباردة والساخنة!) فصارت - تحت التعليمات المشددة - مبرمجة تلقائياً، تصحو من الأذان، فتستعجن العجيين، وتطفئ السراج المدخن، وتقتصد في كاز السراج، رغم أن سعر النفط لم يكن غالباً في تلك الأيام. كان برميل النفط بخمسين سنتاً. الله أكبر! البرميل الكبير بنصف دولار! صحيح أن تجار نفطنا العرب "مُرُون" في التجارة، وطالعون لأجدادهم، تجار ألف ليلة وثيلة، الذين

كانوا يركبون البحار، ويصارعون الجان، ويسخرون الرُّح في السماء، وبالرغم من تكرر ضياعهم، وتقطع المحيطات بهم، إلا أنهم يعودون كاسبين غنائم الجواهر والألماس من قيعان البحار. يعودون وقد نشروا إسلامنا بالتجارة والمحبة في بلاد الشرق والغرب، وليس بالحرب القذرة التي تخوضها الإمبراطورية الفالسة من عقالها ضد إسلامنا. وبصدقهم وأمانتهم وتقاهم، اعتنق الأندونيسيون والماليزيون الإسلام، الذي يحض على إطعام المسكين، والذي يقول - بعكس مقولة الرأسمالية المتوحشة - إن الملك لله. شتان ما بينهم وبين تجار نفطنا العرب "العظماء"، الذين يبيعونه ويبيعوننا بالرخيص، وأحياناً تفتح أنابيب نفطنا العظمى، فتعبىء لهم قلوبهم ببخور من النفط الأسود مجاناً، دون عدادات، لعلهم يطفحون! رجال "غانمون"! ليس هذا ما قالت إذاعة صوت العرب من القاهرة. ولكنها قالت: "نظمت العرب للعرب، يا بنشعله لهب!" ثم قالت: "ارفعوا رؤوسكم يا عرب". فلم يرفع أحد رأسه! حتى أنت أيها (اللاجيء) المحاصر من جميع الجهات، لم ترفع رأسك أمام زملائك الطلاب القرويين "الوطنيين" في مدرسة الفاضلية الثانوية في طولكرم. وهم يتوجهون ليتعدوا في مطعم الثور، المٌطل على ساحة سفريات المدينة. "اليوم سنأكل صينية لحم كفتة بالبندورة". يقول أحدهم. "أه ما أشهى رائحتها بالبندورة!"

" الكفتة بالطحينة أشهى"، يعترض آخر. "فراحتها ترد الروح، خاصة عندما تخرج ساخنة ناراً من الفرن!" وبعد محاورات ومداولات يدخلون مطعم الثور، متفقين على أن يكون نصف الصينية بالطحينة، ونصفها الآخر بالبندورة. وأما أنت أيها المُبهم، فلا تجد أمامك سوى أن تلبس طاقية الإخفاء، وتخلع بعيداً عنهم، متسرباً إلى خلف المطاعم والمحلات التجارية، بحركة من يقتضي أثر الرائحة المنبعثة من مراوح تهوية المطابخ، التي تتكاثر على شرفاتها شحوم سوداء وهي تنفث إلى الشارع سموم دخانها وأبخرتها، ساحباً رغيفك الذي طوته لك أمك وحشته بين كتبك داخل حقيبتك الكرتونية، وأنت تصل إلى بقايا بائع يقف على ناصية الشارع بصاج فلاقله المتقلقل فوق نصب حديدي صديء، وبزيتة القطراني السواد، الذي يغلي منذ نصف قرن، وتشتري ثلاث حبات فلاقل بنصف قرش، فتمسحها على الرغيف، ثم تلقه هكذا.. وقبل أن تجلس على حافة الرصيف، تلتقط كرتونة تائهة في غبار الشارع، فتضعها تحتك، ليس احتراماً لمؤخرتك العزيرة، بل كيلا يتسخ بنطالك بضلات الزيت الشحمي المحروق المتساقط على الرصيف وتقعّد تنهشه يشغف الجوع، لا بشراهة اللذة، متزفراً براحة رجل زيت الفلاقل الذي يغلي، ويطرطش الأرض!

كيف تضرع وقد كان أبوك يعطيك قرشين كل يوم -

مصروفك اليومي- وأنت ذاهب من المخيم إلى المدرسة، لتدفع نصف قرش لحافلة (طبالو) في الذهاب، ونصف قرش في الإياب، إلا أنك كنت توفر القرش، وتذهب مسافة أربعة كيلومترات سيراً على قدميك المتهاكتين، وتعود أربعة كيلومترات كما جئت. وكل ذلك، لتوفر ما تشتري به مجلة العربي أو مجلة الآداب في نهاية الشهر، وتحضر فيلماً لعبد الحليم حافظ، وزبيدة شروت، فتتعرف على الحب، ولكن مع وقف التنفيذ، فتتعقد من جديد!

تتسمّع إلى أحاديث زملائك الطلاب المسنين وهم يتغزلون بالبنات الجميلات، ويحكون قصص الحب والفرام، بينما أنت وحدك تفكر، كم أنت قميء وأنت لاجيء تعيش بلا حب!

تشاهد تلك الطالبة السائرة أمامك تحت زخات مطر غزير، من المخيم إلى مدرستها في طولكرم، وبينما مظلتك السوداء تحميك من المطر، رحت تفكر برحمة تلك المسكينة، السائرة بلا مظلة ولا معطف ولا حتى سترة تحمي جسدها الملبس بثوبها المدرسي الأخضر! المطر الشديد البرودة كالرصاصة يخترق جسدها النحيل، ولكنها مستمرة تتأرجح في سيرها، مثل عسكري منضبط يسير إلى الأمام داخل حقل ألغام، تحت الأوامر الحربية المشددة! أنت لا تعرف حتى اسمها، وبرغم هذا تجسّدك تقترب منها، وتعرض

عليها أن تسير إلى جوارك تحت المظلة، فتجفل الطالبة وتبتعد خائفة، وتستمر في سيرها تحت المطر الغزير! تشعر بعنادها، ولكنك تشفق عليها، فتعطيها مظلتك، بينما تبقى أنت مكشوفاً تحت المطر الشرس. تضحي بنفسك من أجلها، رغم رفضها الاقتراب منك. تشعر أن الفتاة لا ترغب بمعاندتك، ولكنها تخاف من المجتمع الذي لا يرحم. فإذا بلغ أحدهم، وقال: "كانت فلانة تسير مع مشهور في طريق طولكرم، فإن الدنيا ستقوم ولا تقعد! ذلك لأن الناس القاعدين بلا شغل ولا عمل - وهم كثر- لا يجدون شيئاً يفعلونه سوى القال والقييل.. (ويا بنت قولي لا ختك) فالفضيحة ستدمر البنت. (وغلب وستيرة، ولا غلب وفضيحة!) تأخذ البنت المظلة، لأنها تكاد تموت من شدة البرد، والماء يتدخل في كل شؤونها الداخلية، فيسحجُ برداً وصقيعاً على جسدها المغدور، فلا تملك أكثر من أن تشعرها بمودتك ورحمتك. تبحث عن العطف والحب الإنساني الذي لا يمنحك إياه أحد، فتحاول أن تتذوقه، وتتعامل به، وتمنحه إلى قارة الطريق.

ومثل البحارة الأندلسيين العرب، الذين كانوا يواجهون أخطار عواصف المحيط الأطلسي، بحثاً عن طريق بحرية غريبة إلى الهند، ورغم وصولهم إلى شواطئ بلاد المايا، التي صار اسمها سانت أوغستين فيما بعد، وبناهم قصوراً

هناك مثل قصر زريدة ، وتشيد مساجد على الشاطئ ، فإنهم
 لم يحققوا اعتراف كتب التاريخ المزورة بمغامراتهم الثاقبة في
 اكتشاف العالم الجديد.

وهكذا أنته فيالرغم من تجمد خلايا جسديك وأنت
 تضحي بمظلتك، لم تعترف الطالبة المتقوعة بماء المطر البارد
 بحبيك ، فأدركت أن ليس للحب مكان في هذه الرياح
 القارسة!

أففى أم جرس ؟

هل يسنج جيل كنعمان الأخضر في لي أذرة شرور
الإنسان ضد أخيه الإنسان؟ هل أنت في حلم، أم في علم
محقق؟

تقارن هذا المطار السكندري المدهش الذي تنزل فيه مع مطار
القاهرة الذي نزلت فيه أول مرة، وقرأت يومها ما هو مكتوب
فوق مدخله: " ادخلوا مصر إن شاء الله آمين". فارتحت لما
تقرأ. وبعد صف طويل أمام حاجز الأمن ختمت جواز سفرك
وحملت حقيبة أغراضك البنية الكرتونية، ذات الزوايا
العدنية، فلم تعرف طريق الخروج من المطار، ولا مكان ركوب
سيارة أجرة، تقلك إلى مدينة القاهرة . خرجت يومها تائها في
الزحام، فوجهك أحد سائقي الأجرة لتتركب سيارته الصغيرة
السوداء، المكورة مثل سلحفاة. يدير السائق مفتاح محركها، فلا
يشغل، فيخرج منها، ويحاول دفعها بكل ما أوتي من قوة ضعيفة،
فلا تتنحج السيارة ! يلاحظ شرطي استماتتها في المحطة،
فيتركز بدفع العربءة، بينما نحن في داخلها، فيشتغل محركها! ما
هذا؟ شرطي، ويخدمك بأن يدفع لك سيارتك! أنت متعود

على مقولة: " الشرطة ورطة ! " ولكن هذا الشرطي في خدمة الشعب! تخجل من الرجل الكريم، ولا تعرف بماذا تجازيه! كنت قد سمعت أن التفاح الشامي عزيز في مصر المشهورة بالمانجا والجواقة والبرتقال الشهي. فتخرج يدك من شباك الصرصار الأسود، ماداً نحوه قفاحة حمراء. يفرح الشرطي بها، ويشم رائحتها العطرية فيشكرك وتمضي بك السيارة إلى فندق لا تذكر اسمه! قد يكون اسمه فندق القاهرة. وقبل أن تهمد في غرفتك المنعشة، تفتح حقيبة أغراضك، فإذا بها ليست لك إنها من الخارج نفس الحقيبة الكرتونية البنية، المدعمة بزوايا معدنية، والملاحظ أن معظم حقائب الركاب هي من هذا النوع. يبدو أنه لا أحد معك في الطائرة يستخدم حقيبة سامسونايت أو سامسونغ.. وحتى العم سام ذات نفسه كان محجوباً عن مصر في تلك الأيام! ولكن الحقيبة الكرتونية ليست نفسها من الداخل، فملايسك وأغراضك غير هذه الأغراض! ماذا تفعل تجاه هذه الغلطة؟ ليس أمامك سوى أن تهاتف استعلامات الفندق. ترفع السماعة بحذر، وتعرض مشكلتك على موظف الاستقبال، فيقول لك: " سأوصلك باستعلامات المطار."

تتصل بموظف حقائب المطار، فيتفهم مشكلتك، ويعمدك بالحل السريع. وما هي سوى ساعة وبعض ساعة، إلا وصاحب الحقيبة المبدلة يحضر حقيبتك، يأخذ حقيبتك، والأمور تسير ببساطة لم تتوقعها.

تطل من شرفة غرفتك الفندقية العالية، فتدهش لهذه
العمارات القاهرية المتفاوتة الأطوال والأحجام. تراقب هذه
الحشود من المشاة، التي لم تكن تتوقع غزارتها. ولد في السابعة
عشرة من العمر، ينتقل من المخيم إلى القاهرة مرة واحدة من
سراج كاز يضمنُ بالنور حتى على من حوله، ومن ليل مخيف ليس
فيه ضوء قمر.. تمد يدك في ليل المخيم البهيم، فلا تراها! لم
تقطع خطوط الشبكة الكهربائية، ولم يحصل عطل في المولد كي
تسوّد الدنيا في وجوهنا. فلا توجد أصلاً في المخيم شبكة كهرباء كي
تقطع! طرقات ترابية متعرجة ضيقة بين صخور معتملة! لا
يعترضك وأنت تسير فيها سوى هذه الأفعى أم قرون، أو تلك الأفعى
أم جرس، فتكهربك وهي تنساب بدل التيار الكهربائي، مطاردةً فلراً
يركض مرعوباً، فيحتفيان تحت أجمة نباتات صبارات شوكية
عالية، تُسور بيت كل لاجئ! حالة شوكية للدفاع عن النفس!

لا يملك أي لاجئ سيارة، كي يطالب بشق طريق، أو مجرد
تجريف طريق دون تعبدها، ليصل بها إلى بيته، فالطرقات
الصخرية الضيقة داخل المخيم التفاضية، ومنذ ذلك التاريخ
والطرقات الالتفاضية تتطور، وتنتشر وتضخم أوداجها،
وتتليّف في ربوع الوطن، مثل مرض تليّف الكبد، فتصير
فلسطين كلها مصابة بمرض تليّف الطرق الالتفاضية،
تعربد فيها الأفاعي أمهات قرون، والأفاعي أمهات أجراس!
(ولفتك، ما لفتك، أطمعتك خرا ستك. ستك البطباطة.

قعدت عابلاً لمة! لماذا تضحك عليّ وأنا أحتضر؟ هكذا كانوا
يغنون لنا نحن اللاجئين، لنفرض بطفولتنا!

تنتقل من تلك العتمة الالتفافية مباشرة إلى كهرياء تقلب
الليل نهاراً، ونيل مثل البحر، ومدينة غير عادية، إنها القاهرة
صوت العرب!

كان أبي يجمعنا تحت اللحاف، ويضج المذياع بخضوت على
صوت العرب من القاهرة، كي لا يسمعا أحد، فنسمع خطب
جمال عبد الناصر سراً، ونبتهج بانتصاراته في بورسعيد
فينتشي أبي صائحاً،

"يا إلهي، مصر تهزم عدوان بريطانيا العظمى، ومعها فرنسا
واسرائيل! وأخيراً جاء دورنا في تحقيق الانتصارات بعد عهود
من النكسات المتتالية!"

أبي المحزون دائماً بكأبة النكبة، كان يفرح ويبتهج وهو
يشاهد صور القائد العربي العملاق في مجلة المصور ومجلة آخر
ساعة، المعروضة خارج مكتبة السفارييني في طولكرم، فننتصفحها
ولا نشترىها، نظراً لعدم توفر السيولة النقدية، وهو الذي لا
يقرأ، يُملّي نظره من الزعيم الذي يقف بعظمة وكبرياء
وفخامة، مثل باقي قادة خلق الله، إلى جوار خروتشوف، فوق
جسم السد العالي، ويقول لك: "انظروا انظروا أليس لنا يوم
نفرح فيه، ونشعر أن لنا قائداً يرفع رأسنا، وهو يقف كتفاً لكتف
مع قادة العالم، وليس....!"

كنت تفرح بعبد الحليم حافظ وهو يغني،

" قلنا حنبثي، وأدي احنا بنينا السد العالي، وبنا استعمار
بنينا بإدينا، السد العالي!"

وبالنسبة لك شخصياً، فلولا سماح عبد الناصر للطلبة
العرب بالدراسة في مصر، دون تمييز عن إخوانهم الطلبة
المصريين، لما استطعت أيها اللاجئ دخول الجامعات من أصلها،
فعندما درست ابنك برهان فيما بعد في ألمانيا، دفعت عليه
الشيء القلاني، حتى تخرج، وصار مهندس وراثة، وبذكاء منهم،
شغلوه معهم هناك كي يحرموه من العودة وخدمة بلده. ولكن
أي بلد يخدم؟ فأين هي مختبرات الهندسة الوراثية في كل
أصقاع الوطن العربي الكبير، من المحيط إلى... إلى
الخليج...؟ فمثل هذا الخريج الضال عند
العرب، قد يشغلونه في أحسن الأحوال، معلم مدرسة صف
خامس ابتدائي في قرية النضوخ الغربي. وأين تقع النضوخ
الغربي؟ فأنت لا تعرف الشرقي ولا الغربي! (رح يا شيخ!)

درب البينات شوكا

بينما تهبط الطائرة الهيدروجينية بكل خضة وهدوء في مطار الإسكندرية الحديث، تشاهد من على عددٍ كثيراً من الطائرات الورقية ينتشر في أرض مطار مترامي الأطراف. كانت الطائرات الورقية أيام طفولتنا مجرد أوراق مربوطة بخيوط، نلعب بها ونطيرها في الهواء، وأما اليوم فالطائرات العملاقة صارت ورقية، ولكن بصلابة الفولاذ.. وأنت لا تفكر في المطار، ولا في كيفية تقوية ذرة الكربون في الورق كي يصير بمثابة ذرة الكربون في الفولاذ، ولا في خضة وزن الورق الذي تصنع منه الطائرات الحديثة بدل المعادن، بهدف تقنين استهلاك معادن الصلب التقليدية، التي لم تعد متوفرة في العالم، ولا يهملك الآن ما يطورونه لتخفيف وزن المركبات وعلى رأسها الطائرات، لثمنج خفتها ببساطة في الصناعة، وسرعة في الطيران، وتوفيراً في الطاقة، بقدر ما تفكر في لقاء برهان وكنعان الأخضر الصغير بفارغ الصبر.

ترى هل تنجح عملية التخضير هذه، فيسيطر الحيوان الأخضر على هذا الكون الحيواني المتوحش؟ هل تشاهد مرحلة انتقالية جديدة، بعد الإنسان الأول، الذي تحضر

فانتقل إلى مرحلة الإنسان الثاني، وها هو بعد أن توحشت حضارته، ودمرت الأرض، تراه يتشكل بتكوينه الأخضر، فتشهد مرحلة الإنسان الثالث الأخضر؟

عندما كان برهان صغيراً، كنت تقرأ له كتاب (النبى) لجبران خليل جبران، وما زلت تذكّر بعض عباراته التي تقول: " لو نقدر أن نعيش على عبير الأرض، فنكتفي بالنور كالنبات.. " وكانت تدهشك عبارة " وليس دمننا سوى عصارة، أعدت منذ الأزل، غذاء لشجر السماء.. " وتستوقفك عبارة " أنا كرمة مثلك ، وستُجمع ثماري وتُحمل إلى المعصرة.. " وتعشق جبران الذي يفلسك بعصير العنب وهو يقول: " يا ليتكم تنشدون بعضكم ككروم العنب ثم تعودون حاملين عطر الأرض في طيات أثوابكم.. " ثم يختم بقوله : " ولكن هذه تمنيات لم تكن ساعتها بعد.. " يبدو أن الفكرة قد عشت في ذهن برهان منذ الصغر، وحان وقتها الآن ، فانتج ولده الأخضر كنعان.

لا شك أن حفيدك يحظى برعاية أبيه، وأن مؤسسات عملاقة تجري خلفه، لتنشئه بأفضل ما يمكن، وتقدمه إلى هذا الكون المتحول إلى الخضرة.

تقارن تعاستك مع رعايته، عندما كنت في سنّه، فعند دفع رسوم المدرسة، كان المحاسب يقول: " لا تأخذوا منهم رسوماً، لأن وكالة الغوث تدفع رسوم هؤلاء ... من منكم لاجئ، كي نسلمه كتب المدرسة بالمجان؟ "

ينادي بأعلى صوته، أمام كل الطلاب المصطفين صباحاً في
ساحة المدرسة، فلا ترفع رأسك، كي لا تُعرِّي فضيحة نفسك
رغم أن صوت العرب من القاهرة يصيح كل صباح مثل ديك ألف
ليلة، "ارفعوا رؤوسكم يا عرب!" وكنت يومها تتساءل: هل العرب
لا يرفعون رؤوسهم، لأنهم لاجئون؟ وهل يرحل العرب بخيامهم
من عسف رمال إلى غبار فضاء، لأنهم لاجئون؟ وهل يركض
العرب في متاهة خيام ميسون الكلبية التي قالت: (لبيت تعصف
الأرياح فيه...) لأنهم لاجئون؟

أنت لاجئ مستضعف، مستكين بظلّ ذلّ وكالة الغوث، التي
أخذت منك الوطن، ولحقت بك، لتعطيك خبزك، كضاف يومك،
بينما من يدعون وراثته يوسف، يودعونك في غياصة الجب! لا
أحد يراف بحالك، سوى ذلك الذي شردك من وطنك، وجعلك
أحد نمور زكريا تامر في اليوم العاشر.

وأنت تستغرب هذه اللعبة القذرة، التي يلعبها القط مع الفأر،
فبعد أن ينقض عليه ويحطم مجاذيفه، يستمتع بملاعبته
السادية، فيتركه يظلت من بين يديه.. حركات دراماتيكية
مذهلة.. ملهاة سوداء.. أنت لا تعرف لماذا يتركه وهو طوع بنانه،
بينما يركض "المسكين" على الأرض هارباً من قدره المحتوم، قبل أن
يلحق به "المجرم" ويُعيد التقاطه وعضعضته، ثم يتركه ليستمتع
بآخر بصيص ضوء حياة، قبل أن يتناوله ويزدردده. وهكذا تلحق
بك الجهات المانحة، وأنت تركض أمامها منزعجاً!

لم يكن في عشرينيات وأربعينيات القرن العشرين تفضات

ولا مراسلو صحف، كي يصوروا تعذيب وقتل الفلسطينيين المقاومين لاقتلاعهم من مدنهم وقراهم، ويضضوا المستعمرين الذين يُسيرونهم حفاة عراة فوق الأشواك القاسية السامة، لألواح الصبار الشوكي، كي يعيدوا تصنيعهم، وتعبئتهم وتغليظهم، للتصدير إلى خارج الوطن!

" سنُنيمكم في فلسطينكم هذه على سُررٍ من شوك الصبار!" يقول المستعمر إن لم يُقتلوا، فبقوا متشبثين بتراب أرضهم: "ما لكم وهذا العذاب؟ هاجروا إلى (بلاد العرب أوطاني!)، واركبوا هذه الفلسطينيين الصغيرة للمساكين الهاربين من بطش هتلر!" الإمبراطوريات المتحدة ضدنا، هي التي اعتمدت قتل دولة عريقة، وخلق دولة جديدة مكانها على سطح الكرة الأرضية، وأنت الذي دفعت ثمن كل هذا التعديل الوراثي، بحيث يُستبدل الفلسطينيون العرب بغرباء من كافة بقاع الأرض، هكذا بقدرة قادراً يقولون إنه الرب الذي وعد بإعطائهم أرضاً كنعانية ليست لهم، ولغة كنعانية ليست لهم، وهيكل كنعاني ليس لهم، ونجمة كنعانية ليست لهم! ولم لا؟ إنهم جماعة الرب^(٥)، ونحن جماعة وكالة الغوث!

(٥) الكتاب المقدس (١٠) الرب يعطيك مدناً عظيمة جيدة لم تبناها، وبيوتاً مملوءة كل خير لم تملأها، وأبصاراً محضورة لم تحفرها، وكروم زيتون لم تفرسها، وأكلت وشبعت. " لتتية ٥.٦ / صفحة ٢١٦. " (نقل وتدقيق شركة المخابرات الخاصة)

تسير خافضاً رأسك، ولا تفتح عينيك في أحد ! فأنت لا تفكر مجرد تفكير في مغازلة إحدى بنات مدرسة (رابعة العدوية الثانوية) القريبة من مدرستنا. إنهن بنات جميلات، دلوعات يلبسن تنورات قصيرات، تنحسر عن ركبهن الجميلات بشبر أو بشبرين، فتظهر إغراء امتلاء أفخاذهن الطافحة بأنوثة مراهقات شهيات! وأنت لا ترفع رأسك، ليس مناكضة لصوت العرب، بل لأنك لست مؤهلاً لمشاهدة جماليات النهود الطافحة بالعطاء والدفء والمحبة، والملهبة لمشاعر الصغار والكبار. وأنت محروم حتى من شم تلك الرائحة الأنثوية المحظورة، ومحجوز بحدود رائحة الضالفل، التي تقلق في مرجل يضور بزيت القطران. فكيف لك أن تتذوق جماليات أجساد البنات الزهريات المحفوظات المنتوفات، المصبوبات في قوالب إلهية، ويسرن بين الناس؟ أنت لا ترفع رأسك، لأنك لا تملك ثمن ورده جورية عطرة، تهديها لبنت من بنات رابعة العدوية، فتدفن رأسك في رائحة أوراق مجلة العربي- يا حزين- وتدهش إذ تشاهد على غلاف صفحتها الأولى صورة إحدى جميلات هذه المدرسة. إن وجهها أية في الجمال. براءة طفولية ناضجة الأنوثة. سحر امرأة لا يصدق! من أين أتوا بهذا الملاك الطاهر؟ تقرأ ما هو مكتوب تحتها: " طولكرم، المدينة التي تنام مع غروب الشمس!"

تستمر في محاولتك منح حبك وعشقتك إلى شيء

أنثوي، فلا تجد غير العارضات الجميلات المصورات بالألوان الطبيعية على لوحات دعائية لعطور، أو صابون أو نيفيا كريم، أو ما شابه ذلك، فتعلقها على جدران غرفتك. أنت أجبن من أن تقف مع فتاة، ليس لأن "درب البنات شوكة" كما تقول لك جدتك أقيسة، بل لأنك تتوقع أن تسألك فتاتك: "من أي حارة من طولكرم أنت؟" فتخزي أن تقول لها: "أنا من المخيم." فلا تجد غير الكتاب تدفن رأسك فيه. ولهذا تتوسط علاقتك مع الكتاب، وتتفهم معنى كونه خير جليس.

كان مقرراً علينا في المطالعة المدرسية مقطعاً من مسرحية قيصر وكليوبترا لشكسبير، وكما تتذكر، يثن يوليوس قيصر قائلاً بحزن: "حتى أنت يا بروتس!" ثم يقول بعد ذلك: "أنا نعجة جرباء؟" وهذا رفيقنا الطويل في المدرسة، رسمي الصومعة، الذي كان معتاداً أن يمد رأسه برقبتة الطويلة، فناداه الأستاذ سليم البرق قائلاً: "أنت يا صومعة؟". فراح قوله لقباً

يقف رسمي الصومعة أمامنا، ونحن نتجمع في حر الصيف، ونقعد ساهرين خلف بيوتهم، وهو يمثل الدور المسرحي، ويُسبّر بيديه، ويطوي ساقيه، ويشهد بسبائته قائلاً: "حتى أنت يا بروتس." (أبياخ) أنا نعجة جرباء، داهنها جارنا أبو سليم بزيت قطران محروق؟ كان يضيف من محنه عبارتي (أبياخ، وجارنا أبو سليم، وزيت قطران محروق.)

فيضحكننا جميعاً نحن أبناء المخيم، الذين لا مسرح لنا إلا خلف
شباك بيت رسمي الصومعة، الذي بنته وكالة القوث.

ولو يسمعنا شكسبير نقول: (أيباخ)، فسيرفع ضدنا دعوى
تشويه الملكية الفكرية، مطالباً بعشرة مليارات يورو من الخطأ
رسمي الصومعة، على تلك القلعة الفخيلة! ولم لا يدفعون؟
أليس عندهم ضغط كثير، يجعل الشكسبيريين يبتزونهم،
ويغرمونهم على سقوط صقر من السماء، انتهى أجله، فيتهمون
"الإرهابيين العرب" بقتله، فيدفع أولو الأمر "الكرماء" عشرات
المليارات، بسهولة ويسر، بينما ينام أطفالهم داخل بيوتهم
الصفحية، جائعين، مطيعين لأولي الأمر منهم؟

تمشي في طرقات المدينة ، وأنت تنأى برأسك بعيداً عن
رؤوس أهاليها، وتقول لنفسك:

"أنا نعجة جرباء!"

طائرة ألف ليلة وليلة :

تتوقف الطائرة الهيدروجينية الرباعية الأجنحة في مطار الإسكندرية الدولي، فتستفسر من كمبيوتر مقعدك. فتجيبك الشاشة الناطقة: " صممت الأجنحة الأربعة لتعطي توازناً أفضل، وهي تحمي أكثر في حالة حدوث مشكلة في الحارق الهيدروجيني لأحد الأجنحة. وفكرتها مأخوذة في الأصل من بعض الطيور العملاقة، في رواية ألف ليلة وليلة. "، فتسألها مازحاً: " هل هذه هي إحدى طائرات ألف ليلة وليلة المدهشة؟ " فتضحك المرأة الكمبيوترية قائلة: " مهما طورنا، فلن نستطيع تنفيذ خيالات ألف ليلة وليلة الرائعة. هل قرأتها؟ "

تنزل مع القادمين إلى حيث ستستلم حقيبتك وأنت تكلم نفسك قائلاً: هل نلتقي يا برهان في الوقت المحدد؟ أنت تضبط ساعتك على مواعيد الطيران الأوروبي. وبرهان منضبط في مواعيده، كما في عمله. ولهذا السبب الجماعة قدروه، وشغلوه في معامل الجامعة. وعندما بدأ الشغل. قال لك بصوت مقبوض: " لقد ابتدأت يا والدي أعمل بوظيفة مساعد عامل في المختبر. أنظف أنايبس الاختبارات، وأمسخ

الطاولات^٢. فأجبتّه بأن العمل ليس عيباً، خاصة إذا كان أمامك هدف إكمال دراستك الجامعية. فأحسستَ بفرجه ينساب في شرايينك عبر سماعة الهاتف وهو يقول: "ولكنني صرت أ تدخل في شؤون الأنايب، وأحضّر البيانات المنوي العمل بها، وعندما استتب الأمر، صرت أساعد الفنيين في تحضير المادة، مجال البحث^٣."

وعندما انتبهوا لذكائه، عيّنوه بوظيفة مساعد باحث في المختبر، فأخذ فرصته لدراسة الماجستير! خمس عشرة سنة مرّت مرور السلحفاة منذ غادرنا، حتى حصل برهان على الدكتوراة من جامعة هيسن الألمانية. وعندما أعلن معهد هيسن للهندسة الوراثية عن حاجته لباحثين، قدّم طلباً للالتحاق بالمعهد، فقبلوه.

"بدأت أستغرق في العمل يا أبي. ونظراً لشعوري بالغربة وبالتمييز، رحت أُلجّ الليل في النهار في أبحاث متتالية، لأثبت لهم أنني مؤهل لمنافستهم، لا بل والتفوق على الكثيرين من زملائي في المعهد! نتائج أبحاثي المخبرية أدهشت أساتذتي^٤ وبعد خمس سنوات من العمل الدؤوب، عينوا له مساعدة بحث، وكانت خريجة ماجستير في الوراثة.

"الفتاة مطوعة وخدمية وبريئة ومندفعة بقوة^٥ يُعزفك عليها،^٦ إنها مخلصّة في تقديم كل ما لديها؛ أبحاثها، دراستها للدكتوراة، أخلاقها، جمالها الأخاذ، تميّزها عن

الأخريات في كل شيء.^٦ واذا ينتبه لكونك راضياً، يضيف متشجعاً،

"صرت أذهب معها إلى المطعم، أراقبها وهي تأكل، تلحق بشوكتها وسكينها آخر حبة أرز، تتناولها، وتنظف صحنها. فأقول لها، لماذا تنظفين آخر حبة أرز في الطبق؟ هل كل هذا اقتصاد في النفقة؟ فتجيب وهي مبتسمة: لدينا في ألمانيا القدرة على توريد ملايين الأطنان من الطعام، ولكن هناك شعوباً لا يصلها الأرز، ويجب أن لا نرمي الطعام في حاويات القمامة. كي تجد الشعوب الأخرى فائضاً تأكله!"

تضرح لفرح برهان، فتقوي جذوره قائلاً: ديننا يقول "الاقتصاد في النفقة نصف العيش".^٧ ولكن هات من ينوي تفعيل اقتصادنا!

"إنها تُدَوِّر كل النفائات في الحديقة،" يتابع بالهاتف قائلاً "ولا ترسل إلى الحاوية سوى فضلات نادرة، فالبلاستيك يذهب إلى حاوية، والزجاج يُرمى في حاوية أخرى. شعرت أنني أتعلم منها. قبلت دعوتها إلى شقتها، وبعد تعارف أكثر، صرت أنام معها في شقتها". فتحدّره بشدة: "إلى هنا، قف يا ولدي! درب البنات شوكة!" فيجيبك ضاحكاً: "كان هذا المفهوم في زمانك يا والدي، وأما في أيامنا، فالبنات أوعى من الشباب. لا تنسى أنهن ينضجن قبل الشباب، ويضمن الجنس قبلهم، والمرأة الباحثة

في المختبر تعرف كرامتها، وتعرف طريقها، وتعرف الأمراض والأوبئة القاتلة، ولا تسير في طريق الضلال، ولهذا قبلت دعوتها كأفضل رفيقة لي، وذلك بعد أن تأكدت أن لا امرأة تستطيع أن تسعدني مثلها.^٥

وبعد حصولها على الدكتوراة، عمل لها المحترم حفلة رائعة، دعا إليها أصدقاءه وزملاءه المقربين، وطبعاً أنا ووالدته المرحومة أميمة، وأخته سمى، وعمه شائب وزوجة عمه تمام . وقبل أن أخذ إجازة للسفر، وأترك أعمالى الهندسية في دبي، وكل المشاريع المتشابكة المتعلقة بي، كلضت مساعدي المهندس جرجس مئري بالتوقيع على دقة تنفيذ كل أساس أو عمود أو سقف، وتحمل مسؤوليته، فهو يدرك المخاطر الرهيبة، التي قد تنشأ، نتيجة خطأ مدني في حساب الأطوال، أو الأوزان، أو..

حضرنا الحفل البهيج، والسعادة تطل من وجهي العروسين ومن وجه ابنتي سمى وأمها أميمة، التي تفضحنا بين الألمان وهي ثاهي وثرغرت (لو لو لو لو ليبيي!)، فيضرح أهل العروس الألمان وكل الحضور بها، ويتحلقون حولها، فتعلم أم العروس كيف تزغرد، فتبدأ الألمانية اللامحة تحرك لسانها يمينا ويسارا وتزغرد (لو لو لو لي) ونحن نضحك! وراحت تعلم المهتمين من الحضور الألمان كيف يدبكون الدبكة الفلسطينية، وتلوح بمنديلها وهي تقودهم في مقدمة

حلقة الدبكة. (وعلى دلعونا، وعلى دلعونا، ربح الشمالي، غير
اللون!) كانت المرحومة تفهم التقاء حضارة الشمال والجنوب
وتقصد تلاقح الحضارات، لا صراع الحضارات، الذي يتنطع
الشريرون لتفجيده.

كان تعرفني عليك لأول مرة يا أميمة في بيت أخي غالب، كمن
يكتشف كنزاً في مكان مطروق.

"أعرفك على ابنة جيراننا؛ الأستاذة أميمة" تقول لي تمام
ذلك، فأفهم أنها تضم شيناً في روحها؛ "إنها من بلدكم عكا،
وليست بلدياتي من الناصرة." تضع يدها على صدرها وهي
تتابع قولها؛ "كي تعتقد أنني أحابيه! أنسة في منتهى الأدب
والأخلاق والذكاء، عمل لها أبوها عقد عمل بعد تخرجها من
جامعة دمشق، فصارت تُدرّس في مدرسة الرياحين المجاورة
لشركتك." كنت يا أميمة فتاة خجولاً. وعيناك الضريحتين
ترنوان إلى بعيد بينما زوجة أخي تُعرفني عليك. لم تذكر لي
شيناً عن جمالك، طالما أنك أمام ناظري غزالة في حديقة غناء.
تكررت زيارتك إلى تمام مع والدتك وأحياناً وحدك، وما
دمت أسكن في بيت أخي، صرت أجلس معكم لبعض الوقت
خاصة إذا صادف وأن التقينا داخل البيت، وجهاً لوجه. كنت
لبقة في الحديث، فأعجبني أسلوبك في التعبير والتفسير
والتبرير والاستعلام والأخذ والرد. وفهمت من حوارك أنك
متخصصة في إدارة الأعمال.

كنتُ قد وظفتُ أخي ضمن فريق مراقبي تنفيذ مشاريعي المدنية، ونقلتهم لتعيش معاً في شقة أوسع وأرحب وأجمل. وبعد أن شبكت الصنارة، ورحنا نستعد للزواج، فتشنا عن شقة منفصلة، ودخلناها أسعد عروسين، وبعدها نقلتكِ إلى شركتي لتكوني مديرة للاتصالات والعلاقات العامة.

أتذكرك وأنت تلقين كلمتك المثيرة في سهرة العشاء الفخم، التي جمعتنا مع عائلات مقاولي مشروع (واجهة دبي البحرية)، في مطعم الطابق الأخير من فندق برج العرب، عندما قلت للحضور: "يقول ديننا: (مَالِكٌ مَا أَنْفَقْتُ). وفي باب آخر يُحذَرُهُمْ: (وَالَّذِينَ يَكْتَنِرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ..) وأموالكم المكتنزة كثيرة والحمد لله، فلو تبرعتم بثمن هذا العشاء المكلف، لأيتام مخيم جنين، الذين طحنت الدبابات بيوتهم، وقتلت أولياء أمورهم..."

فقام شريكي الإماراتي، الأستاذ منذر الحمد، وتبرع ببناء عيادة طبية متكاملة في المخيم، بحيث تكون مصاريفها التشغيلية ومستلزماتها من المواد والأدوية جارية على حسابه، وبعده انهالت التبرعات. وهذه المبادرة وحَدَّت مشاعر الحضور تجاه قضية شعبك المغدور!

كنتُ تتناقشني معي في ضرورة العودة إلى عكا، ونحن نتمشى على مسطحات النجيل في (حديقة شاطئ جميرا) الجميلة، ونستمع بمشاهدة التوافير، وألوان حقول الأزهار، فتلاعبين

طفليك برهان وسمر، وأحياناً تركضين خلفهما، وهما يهربان منك تحت الأشجار التي تعانق البحر.

وكانت تمام تحب زيارة (حديقة الحيوان)، فتأخذان أطفالنا، وتقضون يومكم هناك، بينما أذهب مع أخي غالب لنلعب (الغولف) في أبو ظبي، وتلتقي في الليل، فيتقافز برهان وسمر وهم يحكون لي مندهشين بما شاهدوا. أبكي بمرارة وأنا أتذكرك، فتسيل دموعي، ويتبلل شاربي اللذين كنت أحاول حلقهما، فتصري على بقاذهما يتنطعان أشيبين على وجهي. للذكرى فقط أبقيت شعرهما الكث المتقذ لوجهك الطاهر! لماذا تركتني وذهبت بعيداً يقولون إن المرأة ثعمر أكثر من الرجل بحوالي سبع سنوات، فلماذا مت بهذه السرعة، وتركت كل هموم هذه الدنيا على ظهري وحدي؟ لو كنت أعلم أن استخدام الهاتف المحمول يسبب السرطان إلى هذه الدرجة، لما تركتك تلصقينه على أذنك، وتحدثين به دائماً في اتصالات إدارة العمل. كان والدي يقول: (إذا تفرق الحمل ينشال). ولكن الحمل كله يقبع الآن ثقيلاً على كاهلك وأنت عجوز هرم، تعاني من ترقق العظام! صحيح، نسيت أن تأخذ دواء ترقق العظام ودواء الضغط، ويخاخ السكري وباقي الحبوب العشرين التي.. ولكن لا داعي لأخذها، فأنت تحتضر على فراش عكا، وتتلاشى من آفاقها الساحرة شيئاً فشيئاً!

لم تصبر أمانة أكثر من شهر، حتى استفسرت من برهان

وسأله عن الخلف. فقال لها مستغرباً: "زواجنا يا أمي لم يضرنا للخلف والولادة، كما يفعل معشر العرب، بل زادنا تورطاً في العمل!" وعندها تناولت الهاتف من يد أمه، كي تغير الموضوع، وسأله عن عمله. فقال مفتخراً: "لقد تطورت أبحاثنا الوراثية يا أبي، فبعد أن نجح العلماء الأوائل في دمج خلية نباتية مع خلية حيوانية، وأنتجوا منهما أول خلية لحيوان أخضر. تابعنا بعدهم تطوير أبحاث الحيوان الأخضر."

بدلة يتيمة ١

يُدخلك البساط المتحرك من فم الطائرة الهيدروجينية إلى مبنى مطار الإسكندرية الدولي، الذي تصميمه يشبه مدينة فضائية انفلتت من مجرة بعيدة، فهبطت خلف مدينة الإسكندرية... لا يضيع مسافر في هذه المدينة، فإشارات التوجه مثبتة في كل مكان، والعجائز والأطفال يركبون سيارات كهربائية مجانية تقلهم إلى المعبر الذي يشاءون.

وفي أيام صباك، لم يكن أمامك معبر للوصول إلى الإسكندرية سوى باب الحديد، المتمرس في قلب القاهرة. اشتريت يومها أرخص تذكرة، ثم سرت باتجاه القطار الذي كان سيتحرك إلى الإسكندرية، مراقباً هذا الحشد العظيم من الناس... يتقدم إليك شيال، فيخرجك من ذهولك بضوضاء رمسيس - ودون إحم ولا دستور- يأخذ منك حقيبة ملابسك الكرتونية، ليرفعها إلى القاطرة، فتخاف أن تفقد الحقيبة في تلك الزحمة، فتشدها من يده، ولكنه يمسك بتلابيبها، عندما يلاحظ أنك تلبس بدلة رسمية نظيفة سوداء، وهو لا يعرف أن والدك، احتضالاً منه بتخرجك من التوجيهية، وقبولك في الجامعة، كان قد خرج من تقديره الشديد، وأخذك من يدك

إلى محل (عادل الفضبان)، أشهر خياطة بدلات في طولكرم ،
الذي أخذ مقاساتك، وفصلها لك من قماش جوخ إنجليزي أصلي
ناعم الملمس، واختار بطانتها من الساتان الأحمر، وقال لك
الفضبان يومها: "لم أفصل بدلة لأحد بهذا الخصر النحيل
وهذا الصدر العريض!"

لا يعرف الحمّال أنها بدلتك اليتيمة، وأنتك تلبسها وتعتقد
على قميصها الأبيض ربطة عنق حمراء، لا تذكر من أين
اشتريتها. بالتأكيد ليست من بُعِث وكالة الغوث المستعملة. ولهذا
فأنت لا تضعها هي ونقودك داخل الحقيبة، خوف أن تضيع
الحقيبة مع بدلتها ونقودها، إذ قامت أمك زكية بإغلاق
وتخيط جيبها الداخلي الصغير مخبئة بداخله مصاريق سنة
جامعية كاملة، كان أخوك شائب، الهارب من عذابات وظلمات
حياة اللاجئين، قد أرسلها إليك من دبي .

يشاهدك الشيال مرتبكاً، خائفاً على أغراضك، فيقول لك
وهو يقدم أوراق اعتماده: "لا تخف، أنا موظف في المحطة! خذ
هذه القطعة النحاسية الرسمية ذات الرقم ٨ الخاص بي
واترك الحقيبة، أرفعها لك، وكلها خمسة قروش، لن تكلفك
كثيراً!" تتأكد أنه موظف رسمي، وأنه رجل ذو مرجعية،
فتستسلم الحقيبة بين يديه وأنت تلاحقها بنظراتك
الخائفة.

" اكل على الله " يقول لك وهو يسير بها مسرعاً وأنت
تتركض خلفه وسط الزحام، فتتذكر مقولة الممثل أمين
الهندي: (أأكل أونطة!).. ولكنك تتكل على الله، وتصعد
عربة القطار.

يضع الحمال الحقيقية على الرف، فيشعرك بأن مهمته قد
انتهت، فتتقدم القروش الخمسة، تفضل، فيشكر الله ويخرج .

تشعر وسط تلك الجموع المتراسة في المقطورة أن لا مكان
لك، فلا ممراً فارغاً لتمر منه، ولا مقعداً فارغاً لتقعد عليه، أو
حتى مكاناً لتقف فيه! وهؤلاء النساء الفلاحات يضعن سلالهن
الضخمة المملوءة بحاجياتهن، والتي خيطت فوهاتهن بقطع
قماش بيضاء وسوداء وخيش ورمادي. وهذا الرجل الضاح
بثوبه الرمادي الواسع يُقعدُ بطنه المنتفخ بين رجليه، ويجلس
ساهماً، وكأنه قد أفطر شوالاً من الفول قبل ركوب القطار،
ورأسه يميل ذات اليمين، وفلاح آخر يميل برأسه ذات اليسار،
وتلك السمينة بحجم بقرة لحوم (في عين العدوين!) ترتبط
أرجل إوزاتها البيض الثلاث، وتضمهن معاً، وتضعهن فوق
سلتها الضخمة الطافحة في الممر، بينما الحائرات
البيض يتلفتن بعيونهن الزرق النيلية الجميلة بقلق
وارتباك ذات اليمين وذات اليسار، متفرجات على هذا العنبر
السرايبي الطويل، المكتظ بأمتهته وبساكنيه! تلاحظ أن

الأكياس والحقائب والأمتعة أكثر انتفاخاً من الركاب. وبعد أن يتحرك القطار، تكتشف متاعب استرخاى الركوبة.

تشاهد أمامك رجلاً نحيل الجسم، يقعد محدودب الظهر، وذقنه يلامس ركبتيه، مثل موسى الكبّاس الذي ينغلق على نفسه، يُسبّح بيده اليمنى بمسبحة طويلة تتدلى لترتطم بحذائه، بينما يده اليسرى تحمل مذياعاً نقالاً، وتقربه من أذنه كي يسمع صوت محمد عبد الوهاب - برغم تشابك أصوات المسافرين مع الأصوات المتبعثة من القطار ذات نفسه - وهو يغني: (يا وابور قول لي رايح على فين.. يا وابور قول لي وسافرت منين .. يا وابور قول لي.. ياوابووور قول لي ...)

وهي نفس المقعد يتكوم أطفاله الخمسة فوقه وفوق زوجته القاعدة إلى جوار الأكياس، لابسة ثوباً أسود فضفاضاً، ولحمها يطفح داخل ثوبها الأسود الكبير، ويضيض على أمتعتهم التي تتكوم حولهم، فتغلق ممر العربّة.

والى جوارك يقف شاب من جيلك، تسأله فيقول لك ساخراً: "إنه قطار الإكسبرس السريع!" وعندما يعرف أنك غريب بلاد، يكمل حديثه الساخر: "هذا القطار كان سريعاً في عهد الدولة العثمانية، عليها رحمة الله، وعندما ماتت الدولة، اكتأب القطار، فصار يقطع الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية في حوالي خمس، قول ست ساعات.. وهو

يتوقف في كل المحطات، ما عدا المحطة التي تنوي الوصول إليها^١ يضحكك أسلوبه الساخر في الحديث، فيشعر بإعجابك به، فيواصل قوله: "إنما هناك قطار حديث اسمه المجري. أه لوركبت فيه يا جدد، لأوصلك في ساعتين!"

تكتشف داخل ذلك التزاحم الخائق- والذي هو واجهة من واجهات يوم الحشر والنشر- أن الناس طيبون، وتتسع صدورهم لبعضهم البعض. ولكن ما يمتعك حقيقة هو منظر السهول الواسعة (جئات عا مَدَّ النظر، ما بينشبع منها نظرك)، مزارع خضراء، تنطلق منها أشجار نخيل بأسقة بين حقول الذرة والقمح والبرسيم والظول وقصب السكر، تشبه مآذن مساجد لا نهائية في المدى الرحب! وأنت لم تشاهد نخيل مزارع من قبل إلا في الأفلام المصرية غير الملونة، وهما أنت تشاهده ملونا وعلى الطبيعة! إنه سحر مصر الخضراء، التي صَحَّروها لاحقا!

تنسبه إلى أن الفنان محمد عبد الوهاب، وبعد أن انتهى من أغنيته السابقة قد عاد إلى أذن الرجل - الموسى الكباس - بأغنية (ما احلاها عيشة الفلاح، متهنني وقلبيه مرتاح!) ولكن صديقك المصري محمد محمد محمد، والذي ستسكن معه في الإسكندرية فيما بعد، سيقول لك: "غنى عبد الوهاب هذه الأغنية من الزمالك، ولم يعيش مع الفلاح،

فيشاهد كيف أن البعوض - جيش الإقطاعي- يمتص دمه، وكيف تثقب البلهارسيا شرايينه، بمخرز الخولي، وكيف أنه محروم من كل شيء، ما عدا الموت^١

لا يبتعد القطار كثيراً من القاهرة ، حتى يتوقف في محطة بنها، فينزل ناس، وتنزل أمتعة، ويصعد ناس، وتصعد أمتعة، وتحصل عملية إفراغ وإحلال متبادلة. ويصعد إلى القطار بائعون متجولون من أهل المحطة، وأحدهم يحمل على كتفه سلة، ويصيح وهو ينقل رجليه بخفة وجراحة بين كتل الأكياس المتضخمة بطونها ، فتصطدم سلته بلحوم النساء المندلقة داخل أثوابها الكحلية والسوداء، فيذود الرجال المدافعون عن حدود نساءهم بحماسة وشهامة. "سميط وبيض وجبنة رومي." ينادي بأعلى صوته المتشابك مع أصوات مجتمع القطار، "بيض وسميط." ويتبعه شاب بائع متجول آخر، يحمل على كتفه سطلًا مملوءًا بالماء، ترتفع من فوهته زجاجات ملونة.

"كازوز بارد." يندفع وهو يصيح بأعلى صوته، "كازوز بارد كازوز بارد." طبعاً لا هو كازوز، ولا هو بارد ! وعندما يمر بك، يمسح قاع سطله المطين بكتف سترة بدلتك اليتيمة، والتي كنت مغروراً بلبسها داخل العربة، ولكن هذا السطل الذي مسح بك الأرض، جعلك تقف مثل الذي عملها، ولم يمسح مؤخرته..!

يشاهد الشاب الذي يقف أمامك تحرُّش طين السطل
بكثفك، ويتأثر بمنظره اللزج، فيضحك وهو ينظر إلى
خبيتك ويقول لك: " ما كنت يا هندي طلعت على الأقل في
الدرجة الثانية، هناك يكون لك رقم مقعد، والمقامات
محفوظة!" الآن تفهم أنك قد ركبت في مقطورة الدرجة
الثالثة، وأن الناس هنا متعودون على بعضهم، وقلوبهم
مسامحة وكريمة، وأما أنت فالبذلة اليتيمة التي ستدخل بها
الجامعة، وتقابل بها وجه ربنا..! إنها مصيبة كبرى! ولكنك
مستعد في هذه الرحلة لأسوأ الأمور، كما قال لك والدك
رحمه الله: " كن حذراً يا ولدي لكل شيء. ولا تغضب إذا ما
حصل لك مكروه، لا سمح الله. والرسول الكريم كان يرفع
شعاره الدائم (لا تغضب)". ولهذا فلا تغضب، بل تتابع
الرحلة واقفاً، تتفرج على الخضرة، وعلى نوافير النخيل
المعلقة في السماء، وبحر النيل الرحب الصدر، الذي لم
تشاهد مثله في حياتك؛ فهذه الألوان، من الخضرة والمتسلقات
الجهنمية الحمراء، والنيل الذي يظهر أزرق حيناً، ورمادياً
شاحباً أحياناً، وأجرب بقاذوراتهِ ورممه أحياناً، ومطرزاً
بجواميسه التي تدور حول سواقيها، وبيوت الطين المغمورة في
المزارع، وأفران فلاحاتها التي تلهب النار الحمراء المتصاعد
دخانها فتشوي خبزهن، وأسراب من الصبايا الفلاحات

يجمعن القطن من حقوله، وعربة كازة يجرها حمار ينوء بحمل
البرسيم المتراكم خلفه.

وبعكس مآذن النخيل المنطلقة باتجاه السماء، تهبط الشمس
باحثة لها عن عش تنام فيه بين حقول الذرة! ترقب الشمس
الغروبية البرتقالية المحمرة وهي تسابق القطار... تنطلق
بموازاته... تتخلف عن ركبه. تختفي خلف ذيله التماسحي
الطويل. تحاول أن تسبق الفضاء الرحب. وعندما تصطدم
"الذهبية البرتقالية" المتألثة بجذوع النخيل، تخاف عليها من
أن تنطلق وتخر مغطياً عليها!

الزحمة المتشابكة داخل المقطورة تجعل بعض الشباب
يقعدون على الرفوف الداخلية العلوية الشبكية المعدنية، والتي
صممت لوضع الحقائب اليدوية عليها. يصير المسافرون هم
الأمثلة الممددة على الرفوف. وتُشاهد رجلاً يراقب قرده صغير
الحجم، والذي بغمزة عين يقفز بخفة، فيجلس بأدب بين
الشباب الجالسين على الرف، وهو يضع إصبعه في فمه باسماء،
بينما عيناه العسليتان تتحركان في محجريهما، يمنة ويسرة،
تراقبان القادي والقادم، والفرح يطل منهما، لحصوله على مقعد
مجاني في العالي.

تشعر بألم في ساقيك المنفرجتين بسبب وجود قضة بينهما،
فتزحزحهما بين الأمثلة، وتراقب الشباب الجالسين

على الرف، وهما يدلذلان أرجلهما فوق رؤوس ركاب المقطورة، فيصيح بهم رجل قاعد تحت رحمة أحذيتهم الثقيلة: "مش تحترموا الناس القاعدين تحت جزمكم الثقيلة!" وتضيف امرأة يبدو أنها خائفة على طفلها النائم في حضنها: "لو وقعت جزمة على رأس طفلي، حيموت!" ويقول آخر: "دا والله حتى عيب كده!" ويتشجع رابع فيرفع وجهه نحوهم صائحاً: "يا شباب انتوا أكيد من عيلة محترمة ومتربيين عالأصول، وده مش أصول إن جزمكم تتحط فوق رؤوسنا! على الأقل اقلعوها وشيلوها من فوق دماغنا!"

وبعد عدة استنكارات واستهجانات، يخلع الشابان أحذيتهم الغليظة، ويضعانها إلى جوارهما على الرف، فتعلن جريباتهما البيضاء عن نفسها، وتمد أعناقهما، وهي مسوذة مطينة بالعضونة المتصقة بها، وتطل أصابع أرجلهم من الجرابيات المتهترئة، فيروحان يهويان أصابعهما المتصقة بمعجون العضونة اللاصقة الرمادي الرطوبية، ويبعدان الأصابع عن بعضها البعض بهدف التنفس، فتفوح رائحة كريهة، تقتل أنوف الركاب القاعدين تحت رحمة سكان الرف العلوي. ويصحو رجل عجوز كان نائماً على كيس أمتعته صائحاً فيهم: "ارحمونا من الريحه اللي خنقتنا دي!" فتصحو

على صوته امرأته التي كانت تنام على زنبيل مملوء بأشياء
مغطاة بقطعة قماش مخيط، وهي تقول: "صحيح، أياه الريحه
العفنة دي"

"يا عمي البسوا جزمكم، ودلدلوها فوق رؤوسنا" ينفجر
آخر بقوله، "لو تقع جزمكم على رؤوسنا، أرحم من الريحه اللي
موتتنا دي"

وهنا يتنطح أحد الشابين؛ ساكني الشرف العلوي قائلًا:
"هلكتونا بحكاية الرجلين دي؛ إقلعوا، لأ، إلبسوا! طيب إقلعوا
لأ إلبسوا. إرسوا لكم على بر، في قضية الأرجل دي. نلبس ولا
نقلع؟" فيقول لهما الشاب الفرائحي، الذي يقف إلى جوارك
مراقباً الحدث كالأخرين: "أياه رأيكم تقطعوا رجلكوا،
وترموهم برة القطر، فنرتاح من ريحتهم العفنة؟ وعلى الأقل
يمكن تستفيد منهم القطط اللي هناك، بدل ما انتوا قارفين
بيهم مشوارنا ده!" فيجيبه أحد العلويين مدافعاً: "لا والله هالح
يا ابو شرابات حرير في حريرا وعفن رجلك، تقولش مسك!"

شيء لله يا سيدنا البدوي!

تتجه على هذه البسط المتحركة داخل مطار الإسكندرية الآلي- حسب الإشارات- إلى حيث تأخذ حقيبتك من محطة وصولها المرقمة على الشاشة. يتناول الرجل الآلي حقيبتك المرقمة على جهازك المحمول، ويضعها على عربة، تركيبها وتحركها بالموجه لتوصلك أينما شئت داخل قاعات المطار.

لم يبق عليك سوى استقبال الحبيين؛ الابن والحفيد، كلها مسألة دقائق، وسيصلان إن شاء الله في الوقت المحدد. تستمع قاعات وممرات هذا المطار الضسيح، وهذه المحلات التجارية، التي ما يزال يدمغها الطابع الفرعوني، ويميزها عن أسواق باقي المطارات في العالم، والحوجز الأمنية الآلية، ومحطات وصول القادمين، ومحطات خروج المسافرين المجهزة بكل وسائل الراحة.

ما تزال تقارنها بأول يوم وصلت فيه إلى الإسكندرية ، لتلتحق بجامعةك الموعودة. فبعد توقف قطار الإكسبرس المطول في محطات لا حصر لها، والتي لا تذكر منها سوى محطة طنطا، ذلك لأن القطار قد توقف هنا منذ ربع ساعة،

يقول معاون السائق إنه يصلح المزلقان. ما هو المزلقان؟ هانت لا تعرفه

"يمكنكم أن تتهووا قليلاً على رصيف المحطة " يتبرع المعاون بإعلامنا. تنزل من العربة فلا تبتعد كثيراً، إذ يدهشك مرأى كثير من الشبان الراكبين بالمجان، وهم يتزاحمون واقفين ومتعلقين ببعضهم البعض، خارج العربات، ومتكومين فوق ظهورها بجرأة مدهشة، وكأنهم جبال من الأمتعة المحمولة فوق القطار! المحطة معلقة فوق جسر هيكل حديدي ضخيم للقطار الذي يعبر مدينة السيد البدوي، و"شيء لله يا سيدنا البدوي!" وينزل معنا عدد غفير من الركاب الذين يعدّون طنطا هي محطة وصولهم.

مجتمع متكاتف متباغض متضامن متنافر محب كاره طيب حلو المعشر! وكل منهم يزور السيد البدوي لغرض في نفس محمدين، أو في نفس حسنين! ذلك ما يقوله لك الشاب الذي كان يقف قريباً منك في عربة القطار، وما يزال يقف معك على الرصيف، ليسشم نفسه خارج راحة جرابات جيران القرد الشقي، فيعرفك على نفسه: "اسمي محمد عدوي."

"تشرفنا. وأنا إسمي مشهور شاهر الشهري." فيضحك محمد عدوي،

"أهلاً يا أفندي. كنت أتخيل أنك مشهور بكونك شاهراً

سيفك شهرياً^١ يقول هذا مداعباً وهو يطبطب على كتفك؛
(إيه الاسم الجميل ده؟ شاريه، ولا ببلاش؟) رغم غلبهم
فركاب الدرجة الثالثة دمهم خفيف. إنهم يسخرون من بعضهم
البعض، ويطلقون النكات، كي يضحكوا ويتناسوا معاناتهم في
الحل والترحال.

ينتبه محمد عدوي إلى كونك تقف قائماً، تراقب الجمهور،
وتتفرج على مدينة غريبة عليك، فيقف معك، يشاركك النظر
إلى الناس النازلين بامتعتهم من المحطة، فوق جسر ضخم
يتدلى منه سلم معدني عريض صدى. الدرجات تنزل بين
الجسور المعدنية العملاقة يميناً، ثم بسطة حديدية، ثم يساراً،
ثم.. وأقدام الناس النازلين الصاعدين تجرش الحديد قائلة:
(درب، درب، درب، درب..!) ليس هذا هو الموضوع! تلفتك ثلة من
الرجال؛

"إنهم من الصعايدة" يبلفك محمد عدوي وهو يضحك
"القادمين لزيارة ضريح السيد البدوي، والتبرك بمقامه،
وسؤاله عن سر بقرة اختفت، أو قتيل لهم لم يعرف قاتله، أو
بنت لهم مفقودة، ويريدون منه أن يدلهم على مكانها، أو
مريض عجز الأطباء عن شفاؤه، أو لم يذهب من أصله إلى
طبيب..". يواصل سخريته وهو يتفرج عليهم^٢ والطبيب
المدوي هو مقام ضريح سيدنا البدوي، الذي يشفي ببركاته

كل عليل، ويعيد البصر إلى كل ضريح، ويعيد كل مفقود إلى أهله، وينصرك على من يعاديك، ويبارك عيش كل عروسين، ويعيد كل مطلقة إلى بيتها، ويطيل عمر كل عجوز، ويحبّل كل عاقر، ويخرج الجن من البدن..^١ يلتفت إليك وهو يتكئ على الحاجز ضاحكاً "أي والله!"

تشاهد ثلثة منهم ينزلون على السلم الحديدي، وعلى رؤوسهم عمام بيضاء ورمادية وبنية الألوان، مُدخنة بالبخور المستوحى من روائح الجنة - وحسب ما يقوله لك عدوي - فإن هذه العمام ليست لارتقاء الشمس الحارة فقط، بل هي للوجاهة والهيبة، وشرف الرجولة والقبلية، والعز والجاه، والأهم من هذا كله أنها مخزن نقودهم المخبأة، والتي يحذرون ضياعها أو سرقتها في مولد السيد البدوي، وأنت عارف، في المولد خلق كثير (مولد بقى!) ولذلك يضعونها هناك في القمّة، حيث لا يستطيع أحد الاطلاع على أسرار القمم العربية! "انظر. انظروا" يشدّك عدوي من كتفك، وعندما ينتبه، ينفض الطين الذي جفّ عليها قبانلاً، "لاحظ أولئك الصبية الثلاثة من الأشقياء، الذين يتقافزون فوق الهيكل الحديدي الضخم لمحطة القطار، مقلدين ذلك القرد الذي.."^٢ تراقب المشهد، حيث يقف الأشقياء على حافة السلم الذي يوصل رصيف المحطة العلوي بشوارع المدينة،

ينظرون إلى الزوار النازلين بوجاهة على السلم، ويراقبون شعورهم وهم نازلون بالتهليل والتبريك والاستغفار، والخشوع في حضرة مدينة ضريح السيد العظيم المبارك، وتلاحظ أن مع كل من الأطفال الثلاثة قضيب معدني رفيع طويل معقوف على شكل خطاف مدبب الطرف، فما أن ينزل الرجال الأكبر إلى الطابق السفلي، حتى يمد الأشقياء خطافاتهم المعدنية، ويشبك كل منهم بصنارته عمّة فلاح من هؤلاء الضيوف الغرباء البسطاء، النازلين على بركة الله ! انظروا انظروا ! يقول لك عدوي. وبسرعة البرق، يسحب كل منهم صنارته بصيده، ويختفون راكضين بالعمم، وبما فيها من نقود. كل منهم وحظه، وحسب ما أكرمه الله في تلك العمّة المخطوفة ! يصبح الرجال الغرباء صيحة واحدة، ويولولون، وينفعلون، ويهدّدون بالانتقام والثأر والطخ والقتل ! ولكنهم يكتشفون بعد أن يلغح الهواء صلعاء رؤوسهم المحلوقة على الصفر - يا حرام - أنهم في بلاد الغربة، وأن لا قبائل ولا عشائر ولا عمدة يعيسد إليهم شرفهم المفقود، ونقودهم في القمّة المنهوبة !

يُصَفِّرُ القطار، فنصعد إلى عربتنا بسرعة، كي لا نفقده، فننقعد بلا قطار، وخاصة أنت العبد لله، الذي لا يميز طنطا من مالطا، ولولا عدوي، لما عرفت من الأمر شيئاً !

وأخيراً يتوقف القطار في محطة سيدي جابر، فيقول لك صاحبك الودود: "هذه هي محطتك". تفغر فاك مصحياً نفسك. هكذا أفهموك، أن تنزل في محطة اسمها (سيدي جابر). تودعه بالأحضان، وتنزل مسرعاً، محتضناً حقيبتك...

إنها محطة بسيطة، نظيفة، لا يوجد فيها ازدحام مروري. وعلى الرصيف العريض المزروع بأشجار الفيكس اللامعة الخضرة - نفس اشجار أرصفة مدينة طولكرم - تشاهد لافتة صفراء كبيرة كتب عليها (أهلاً بكم في الإسكندرية) وخيولاً صهباء، بحناقيرها المزينة مظلاتها بتطاريز ونقوشات سكندرية. تهب عليك رائحة روثها المخالفة لجمالية المكان، وإحداها تتبول أمامك، بينما سائسها يجلس رافعاً عصا كرباجه على مقعد القيادة خلفها، وإلى جواره ضمة برسيم، يبدو أنها وجبة مخصصة للفرس، منتظراً أن يفتحها الله عليه بصيد ثمين.

وأما سيارات الأجرة المميزة هنا في الإسكندرية بلونها الأسود الموشج بالأصفر، فيبدو أنها توصل إلى الأماكن البعيدة. تركب إحداها، فلا يصعب على السائق تشغيل محركها كما حصل مع تلك السلحفاة السوداء في مطار القاهرة.

"إلى أين أن شاء الله ؟" يسألك السائق، فتجيبه متضائلاً: "إلى أي فندق قريب ورخيص ؟" فيبرز الرجل خبراته الاسكندرية قائلاً: " أعرف فندقاً مناسباً في كليوبترا الحمامات القريبة من هنا ؟"

"حمامات، حمامات ؟" تجيبه ولا باليد حيلة:

يمدّ الرجل يده أمام وجهك، فيضايقك خيط دخان سيجارته المدممة في فمه، ويصغر صندوق عداد الأجرة المعدني المثبت إلى يمينك.

تتحرك بك السيارة المفتوح مذياعها على صوت العرب، باتجاه شاطئ البحر، بينما البرنامج الإذاعي الصندوق، للفشار أبو لمة، والخواجه خريستو، يقدم حكاية تفاخر كاذب، تبدأ بأصوات المنشدين (الكورس):

" سرقوا الصندوق يا أبو لمة! " فيرد عليهم أبو لمة قائلاً:

" لكن مفتاحه معايا ! " وينشد الكورس: "الصندوق"، فيقول مقدم البرنامج: "الصندوق حلقات مُسلسلة". "فينشد الكورس: "سلسلة". ويقول المذيع: "يعدها ويقدمها.."

لا تعرف من هو أبو لمة، ولا من هو الخواجه خريستو، ولكنك تعرف أنه حكواتي فشار، وفي كل حلقة يومية يقدم حكاية تفاخر كاذب، من كذبه الذي لا ينضب.

وكان إذاعة صوت العرب في هذا البرنامج الفكاهي توجه المستمعين العرب، وتحذره من تضخيم الأمور، وشضحهم وشرقه عنهم بلا رخص، وبلا غنج أنثوي حداثي، وبلا بداءات. إذاعة حضارية بكل معنى الكلمة، هزلت بعدها المحطات التلفازية "الفضائية" العربية الحداثية العارية المشوهة الرخيصة، والتي تتدفق علينا بأموال نضطنا المتأسلم، لنعدم تراشنا وثقافتنا وكرامتنا وعروبتنا بأيدينا، في عصر العولة !

تبتهج وأنت تشم هواء الإسكندرية النقي الرطب، وتشاهد المدينة الهادئة النظيفة، البحرية الطابع ! تصل بك سيارة الأجرة إلى فندق صغير على شكل بيت ريفي، أو قلة على شاطئ كليوباترا، يعلوها قرميد شاحب اللون، تقبع على مسافة قريبة من أمواج البحر المتهجمة على الشاطئ، (ياي الله ! الله ! البحر ! إنه البحر ! يا حبيبي يا بحري الأبيض المتوسط ! لماذا أبعدوني عنك من هناك؟ لماذا فكوا حبس القوارب الصيادين الصغيرة المتماوجة بحمولاتها المتجمعة في بحر عكا، والمستجيرة بأسوار أحمد باشا الجزار، وأبعدوها عن أوتادها الحديدية، وأطلقوا عليها نيرانهم، فاخترقت الطلقات أخشابها التراثية القديمة، ونزفت دماءها، فامتزج الأحمر بالأزرق، وماتت القوارب بصياديها، وتماهت

أخشابها المقطّعة مع أمواج البحر. أكلتها وعول البحر، ولم
يعد جدّك منذ ذلك اليوم!

الضدق القرميدي الصغير ينام بهدوء على شارع كورنيش
البحر. تقرأ اسم الشارع، "طريق الجيش" فتعتقد أن الجيش
يمر من هنا، باتجاه بورسعيد! أنت الذي لم تشاهد بحراً في
حياتك، تلاحظ أن البحر الأبيض لونه أزرق. مياه متلاطمة،
قادمة من عكا لتستقبلك هنا في الإسكندرية! هل هذا هو
بحرك العكاوي الجميل الذي لم تشاهده منذ ولدت؟

الأم تطفم طفلها بطعم نبتة مُرّة، تدهن بها حلمتي
ثدييها اللتين جفت عروقهما، وأما أنت، ففطموك عن بحرك
الأبيض العكاوي بالرشاشات والمدافع والمتفجرات قبل أن
تولد، فبقيت ولداً صحراويّاً تعيش بلا بحر! وها أنت أيها
المسكين تدور وتلف له من الجنوب، فتلتقي به بالأحضان!

تصوّر أن عكا والإسكندرية يُرضعهما بحر واحد،
ويُفطمهما بحر واحد! ومصر وفلسطين أخوة في الرضاعة من
البحر، وأخوة في اللغة والدين والعادات والتقاليد
والجغرافيا والتاريخ والمصالح المشتركة والوطن والحب،
وعيسى الفلسطيني، وأحفاده محمد وعمر وعلي عيسى
الذي كان يقول: "من ضربك على خدك الأيمن، فأدر له
الأيسر." ويتبعها بقوله: "كل يحمل صليبه" ولا ينتهي

بقوله : "من كان منكم بلا خطيئة، فليرجعها بحجر!" ذلك لأنه كان يردد دائماً مقولته: "المحبة، المحبة!" فما كان منهم إلا أن سرقوا صليب الآلام والمعاناة، ونقلوه إلى الغرب، وقالوا هذا إلهنا، وحملوه بدل صليبه مدفعاً رشاشاً، وربطوه داخل طائرة أباتشي، كي يقتل أهله في الشرقيين الأدنى والأقصى، وينثر الأفيون على شعب الصين والقنابل الذرية في هيروشيما وناجازاكي وما حولها، وينسى الحليب الذي رضعه! ومنعوه من حق العودة الموعودة إلى فلسطين، إلا بعد أن يقيموا إمبراطوريتهم على جثة الوطن العربي... يسألهم وهو ينزف على صليبه المعلق في طائرة إف إف إف إف، وإذا كانت (إمبراطورتكم) عاقراً لا تنجب؟

"ساعتها، والله ما انت نازل!" يجيبونه حاقدين "لن نعطيك (فيزا) دخول إلى وطنك!" كم أنت عظيم وطيب ومسكين ومغلوب على أمرك يا روح الإنسانية المعذبة، فأنت لا تطلب إمبراطورية، ولا تريليونات نفطية، ولكنك تطلب من الله أن يرزقك خبزك، كفاف يومك!

من الإسكندرية، التي دفنت الإسكندر المقدوني وكل من تبعه من قياصرة روما الفاشلين في تكوين إمبراطورياتهم على أرضنا، تطل على فلول الصليبيين وهي تذروها الرياح، دون قدرتهم على تكوين إمبراطوريتهم الكبرى على أرضنا،

وتشاهد نابليون الخائب في عكا، خائباً في الإسكندرية، وغير قادر على تكوين إمبراطورية الشرق الأوسط الكبير على جثثنا! سبحانه الله! كل الفاشلين في بلادهم يريدون أن يقيموا إمبراطورياتهم على جسدك الذي يستعصي على أن يكون مستباحاً أيها الوطن العربي الكبير!

أول رحلة ممتعة في تاريخك العتيد. الله! البحر واسع. يااااه ما أحلاها! أمواج بيضاء تلاحق رغوثها أمواجاً بيضاء أخرى. فوق بحر أزرق! سلاسل متلاحقة من جماعات الأوز الأبيض تتقدم نحو الشاطئ، في زفة عرس أبيض. فوق بحر أزرق!

ورغم أن الوقت مساء، فلا تنتظر العشاء، ولا السهر، بل تغفو وتنام دون هز. (وشت. وشت. وشت. وشت). تنام على أصوات أمواج البحر المدهشة! أول مرة تنام فيها مع البحر، ولكن أصوات الأمواج الهادرة المتلاطمة طوال الليل تستمر في استباحتها غرفة نومك الفندقية، فتغرقك في سريرك، وتفسلك برغوثها الغامرة، ثم تخرجرك معها فوق رمال الشاطئ إلى البحر! كنت تشعر أن سريرك قارب تائه في عرض البحر.. صوت الموج يملأ السمع، ويسيطر على الحواس، ويفصل أعصابك المتصلبة، طوال الليل وأنت تفرق تفرق!

تكتشف في صباح اليوم التالي أن أصوات أمواج البحر قد
 عهلت تدليكاً لمضلاتك، ومسدت جسدك، وأنعشت عقلك
 المُعَدَّ برحلة العمر المريعة، فتصحو نشيطاً مرتاحاً، معافى
 من إرهاق السفر ومعاناته، والفرحة تكاد تنط من عينيك،
 مفكراً في الذهاب إلى كلية الهندسة.

"إنها قريبة من هنا". يقول لك موظف الفندق، "اسأل
 عن محطة ترام كليوباترا الحمامات، وخذ الترام من المحطة،
 ومنها تنزل في محطة الجامعة، فالكلية قريبة من هناك،
 تنزل مع زملائك الطلاب النازلين في المحطة، وتسير في شارع
 قصير، يؤدي إليها."

قبل الذهاب إلى الكلية، تدخل مطعماً صغيراً هنا على
 الناصية. لأول مرة في حياتك تفطر فولاً بزيت القطن.
 تستغرب طعمه الذي لم تتعود عليه - فأنت ابن بلاد
 الحمص وزيت الزيتون، الذي حولته وكالة الغوث إلى زيت
 الكوكز، فرفض اللاجئون تعاطيه - وإلى جانبه صحن صغير
 فيه حبتا طعمية، وشرحات طماطم وبصل. لا بأس به. طعام
 طيب. (مفיש على أسنان الكرّ، شي مرّاً) فأنت لم تتعش ليلة
 البارحة. تأكل وتحمد الله، ثم تتجه إلى كليتك الموعودة !

أول مرة تصعد فيها إلى ترام الرمل، وهنا أيضاً يكون الترام
 مفضولاً إلى درجتين؛ درجة أولى بقرشين، ودرجة ثانية

بقرش واحداً ولكن لماذا فصل القنات هذا، ما دام الجميع سيصلون في نفس الوقت، وإلى نفس المحطة؟ وما ينطبق على القطار، ينطبق على الترام الكهربائي، وعلى الحافلات، فكل حافلة فيها شبه فاصل بين الدرجتين، الأولى والثانية. شيء لم تعهده من قبل في (باص طبالو) الذي كان ينقل ركاب المخيم من وإلى مدينة طولكرم بدرجة موحدة، نصف قرش لكل طالب، وقرش لغير الطالب. كان التمييز في الزمان وليس في المكان، وكنت قد تناقشت مع رفيقك محمد عدوي في موضوع درجات القطار. فقال لك وهو يضحك كعادته :

"الدرجات موجودة حتى في الجنة. بعض المؤمنين الأقبياء، أقرب إلى الرسول من غيرهم، وبعضهم يكون مثوهم في عليين. هناك أيضاً فصل بين الناس، فلماذا لا يكون في الدنيا مثلها؟"

تتفهم فكرة الطبقات. ونظراً لتعاقب رحلاتك الأولى من القاهرة في الدرجة الأولى، ترغب أن تكون هنا في عليين، فتعمل اشتراكاً سنوياً في ترام الدرجة الأولى، وتحصل على بطاقة طالب، بسعر مخفض.

ولدى دخولك الأول إلى مبنى الكلية، والذي ستعرف لاحقاً أن تصميمه أخذ من معالم قصر الملكة حتشبسوت

الفرعونية، تدهش بجمالية المكان، فتتعرف بحذر إلى مبانيها ومدرجاتها وطرقاتها وقعدات حدائقها ومقاصفها، وبعد أشهر من دوامك، تلفتك حضريات أساسات مبنى العمارة الجديد. يقولون إنهم يبنونه ليكون مستقلاً عن مبنى الهندسة المدنية.

وبعد حوالي أسبوعين من بدء الحضر، تضاجأ بمشاهدة انهيار الواجهات الترابية للحضرية، واختفاء ثمانية عمال تحت الردم، حيث الأرض رملية. ثم تنس أن اسمها منطقة الرمل، ولو أنها تبعد قليلاً عن الشاطئ. لم يكونوا يستخدمون آليات حضر ميكانيكية، وذلك ليعطوا الفرصة للغلابى ليكسبوا عيش أسرهم، ويمتصوا البطالة العمالية.

تراهم يحضرون أساساً عميقاً في الأرض الرملية، يزيد على عشرة أمتار، وكأنه مكان ارتطام نيزك متوحش في بؤرة الكلية، فيتسهاوى ردم الجدران الجانبية، وينهار فوقهم ويطمسهم، فيصيح العمال الذين بقوا ولم يُدفنوا بعد، ويرتمي فوق الردم حوالي عشرين عاملاً لينقذوا الموقف، ويزيلوا التراب من فوق زملائهم الموتى بلا قبور، فيزيدون الطين بلة، وبقضراتهم تلك، يقتلون من لم يمّت! وبعد تجريفات وصرخات وحركات متداخلة، ينتشلونهم من هناك جثثاً هامدة، واحداً إثر آخر! وبعد أن تتعالى الولولات والنواح والبكاء والرعب، وينتهى كل شيء، تبزغ سيارات المطافي

والإسعاف، وهي تصفر وتزمر بغرورها قائلة: "نحن هنا!"
 فيستنفر العمال ويقذعون المطافئ شتماً، وهم يعتصرون الماء،
 وينشجون بكاءً على موتاهم.

نساء كاسيات عاريات!

كنت قد قرأت على شاشة كمبيوتر طائرتك الهيدروجينية أنهم بعد أن تضايقوا من زحمة مطار القاهرة الدولي، واكتظاظ السكان حوله، وعدم إمكانية توسيعه ليُفي بالفرض، أنشأوا مطار الإسكندرية الدولي عام ٢٠٤٥، ليحل محله في تخفيف الضغط على العاصمة، ولينشر السياحة في ربوع الوطن، فلا يخنقها في القاهرة. فالسياحة المصرية صارت في الشمال والجنوب أكثر منها في أهرامات أبي هول الجيزة، التي خنقها الزحف العمراني من جميع الجهات.

اكتشفوا أنه أهم مطار في قلب الوطن العربي، يربط أوروبا الموحدة، بإفريقيا المفرغة من محتوياتها، بالشرق الغني والغرب المجهد، ولهذا كان شراء شركة (يون تشو الصينية) أرض هذا المطار وما حولها، في شمالي محافظة البحيرة، وإنشاؤه على مساحة مئة كيلومتر مربع. كانت تفرها ملاحات بحيرة مريوط، يعتبر ضربة معلم! اشترى الصينيون المنطقة بكاملها، وجففوها، فاخفت بقايا البحيرة الملحية الشاحبة الخضرة، وحل محلها مطار دولي فسيح. وحسب معلومات الإنترنت، كانت صفقة تجارية صينية رائعة، حيث

يستوعب المطار مرور مائة مليون مسافر سنوياً لاحظ كم هو العمل السياحي المطلوب لخدمة هذا الكم الهائل من العابرين الذين سيدفعون باليوان الصيني، أو بالدينار العربي!

المسافرون يتحركون في كل اتجاه، زرافات ووحدانا، رجالاً وأطفالاً بقمصانهم المزركشة وبنطالاتهم القصيرة والطويلة، ونساءً! بعضهن يلبس ملايات سوداء، تغطي كل ملأية منهن هيكلًا، لا تعرف له رأساً من رجلين، وبعضهن أشباه عاريات، لا يلبسن سوى خيوط تتدلى على صدورهن والياتهن، لتغطي، أقصد، لا تكاد تغطي شيئاً أنت لا تبديل نقودك في المطار، فأرقام حساباتك على جهازك المحمول تدفع بالدينار العربي، أو باليوان الصيني، حسب ما تريد.

لا ترى إنساناً موظفاً في هذا المطار، إذ يدقق لك الحاجز الآلي الممثل للأمن هويتك الشخصية المخزنة في جهازك الخلوي، الذي يبقى في جيبك دون أن تفتحه.

كان لكل منا في الماضي جواز سفر وبطاقة شخصية، وبطاقة حسابات بنكية، وبطاقة عائلية، وبطاقات السيارة الخاصة، والاشتراكات في النادي والاتحاد والجمعية والتأمينات، والفسادق، وشهادات لا أول لها ولا آخر.. والآن صار كل شيء مدوناً على هذا المحمول، ومسجلاً دولياً، وفي كل الدوائر الرسمية، وعلى شبكة الإنترنت، معلوماتك يا محترم مضموجة في كل المراكز والدوائر العلوية. وبعد الفحص السري الآلي لمحتويات حقائبك، إذ

تشتم الأجهزة كل شيء، حتى روائح ملابسك الداخلية،
 لتمييزها عن روائح المخدرات، أو أي مواد مهربة، ودون
 إزعاجك بفتحها. يفتح الحاجز أمامك بعد التدقيق الرقمي
 السريع دون أن يعترضك أحد. تتجه بالبساط المتحرك إلى
 محطة الحقايب الواردة من فرانكفورت، لتلتقي برهان
 وكنهان الأخضر هناك. فيذكر البساط ببيت امرئ
 القيس:

"وقوفاً بها صبحي عليّ مطيهم

يقولون لا تهلك أسى وتجلد".

تري هل يقصدنا هذا الأمير المدهش، ونحن وقوف على
 هذا المتحرك؟ وهل كان يدرك أنني سأهلك أسى وأنا أتجلد
 بانتظار ولدي وحفيدي؟ وهل يدرك أننا الآن وقوف على
 مطيئنا - هذا البساط الجميل الزاحف، الذي يحل محل
 خيول العرب الأصيلة - والتي ما تزال تسابق، فتسبق كل
 خيول الأمم، ولكنها لم تطور بأيدينا، كي تصل إلى حضارة
 هذا البساط!

ومنذ انضمام مصر إلى اتحاد الولايات العربية مؤخراً،
 اطمأنت الشعوب العربية على مستقبلها الذي أبقى الزعماء
 العرب، كلاً في موقعه، ولكنه بدأ بفتح الاقتصاد والحدود،
 مثلما بدأت الوحدة الأوروبية، فالعرب الذين لم يكونوا
 يعرفون أين يستثمرون ملياراتهم النفطية، والتي أينما كانت
 تذهب، فإنها تتعرض للمصادرة تحت أي مسمى؛ مرة تحت
 ادعاء الإرهاب، ومرة تحت مسمى غسيل الأموال القذرة،

ومرة تحت الشك في تسريبها للمقاومين احتلال بلادهم،
ومرة تحت باب سوء التصرف بأموال الزكاة - يا للمهزلة،
صاروا هم القِيَمون على توجيه وإدارة أموال زكائنا - ومرة
بالتحايل الدبلوماسي، ومرة بالكرم العربي، ومراراً بالقوة
التي...

الآن صار للصناعيين العرب مصانع عملاقة في مصر
والسودان والمغرب وبلاد الشام وبلاد الرافدين، وصار التجار
العرب يستوردون ويُصدِّرون بضائعهم المتكاملة إلى أية مدينة
عربية، دون جمارك أو رسوم، ودون توقف في الحدود،
خاصة بعد أن انطلقت القطارات الحديثة السريعة، عبر
شبكة خطوط ربطت ربوع الوطن العربي من موريتانيا إلى
البحرين فتركوك فحلب، ومع تركيا، المرتبطة أصلاً مع
أوروبا..

الجنة تحت أقدام البرتقال.

ها هما برهان وكنعان قادمان لتناول حقايبهما من محطة حقايب طائرة فرانكسورت. لقاءك مع ولدك وحفيدك الأخضر يسعد روحك! "بالأحضان يا برهان! بالأحضان يا كنعان الحبيب، صرت طويلاً يانعا، وعمرك ما يزال عشرة ربيعاً! ما شاء الله يا كنعان! هكذا تنمو أخضر يانعا، مثل النباتات الظليلة الجميلة! يخزي العين!"

تخرج من إبداء ملاحظة كون حفيدك الأخضر كنعان يحتضن كلباً أخضر صغير الحجم، ويلبس ملابس شفافة، مصممة بلباقة لاستقبال أشعة الشمس، لإجراء عملية التمثيل الكلوروفيلي، وكي تقيه من العوامل الجوية، وكأنه في (مايوه) البحر. كنت قد شاهدته عارياً تماماً وهو طفل صغير، فقلت إنه ما يزال.. أما وقد صار طويلاً..! ولكن الإسكندرانيين البحريين لن يستغربوا عريك، حتى لو كنت بمايوه السباحة! ثم إن الناس - هذه الأيام - تعودوا على مشاهدة النساء الكاسيات العاريات، ولا يدهشهم كنعان، سواء كان لابساً عريه، أم متعرياً من لباسه. ولكنك تراه يدير الرؤوس بلون جسده الأخضر، وأيضاً بcliffe الأخضر الملحق

معها

لم تنتشر في الشارع بعد هذه الشريحة الخضراء من المجتمع! تسأل كنعان عن شعوره وهو شبه عارٍ بهذه الغلالة الشفافة، فيلتصق بحنانك وهو يقول لك: قرأت كتاب (النبي) لجبران، الذي كنت تقرأه لوالدي وهو صغير مثلي، وفيه يقول جبران :

"إن ثيابكم تحجب الكثير من جمالكم، ولكنها لا تستر غير الجميل. ويا ليتكم تستقبلون الشمس والرياح بثياب بشرتكم، عوضاً عن ثياب مصانعكم. إن الأرض تبتهج بملامسة أقدامكم العارية، والرياح تتوق إلى مداعبة شعورك المسترسلة." وتسأله عن شعوره تجاه لونه النباتي الأخضر، فيجيبك :

- يقول جبران: "إن هذا الإنسان العظيم، هو بالحقيقة كالسنديانة الجبارة المغطاة بأوراق التفاح الجميلة" ألا تراني يا جدي أسير على هدي جبران العربي في عُربي وخضرتي هذه؟

تنتشي بمفهومه العربي للعري الأخضر، بينما يتابع الولد قوله: "يكلمنا والدي عنك كثيراً. يذكرك كل يوم ونحن مع أمي أليينا، وأختي ثوؤد، نستمتع بالموسيقى، أو عندما نرور متحفاً، أو معرضاً فنياً، فننتوقف عند تمثال أو لوحة فنية، أو عندما يقرأ لي قصيدة عربية، فيقول: "قال أبي، وقال أبي.."

لقد كشف لنا ابنك كل حكاياتك الجميلة يا جدي،

وسرّب لنا كل أسرارك الذهبية، ورسخ في أذهاننا كل تعليماتك المفيدة. ولهذا نحن نحبك يا جدي، وخاصة أختي توّدة، المشتاقة كثيراً لرؤياك!"

"ما أبهى حفيدي الأخضر المشوق" تقول لبرهان وأنت تتناول حبة فيتامينات مخصصة للعجائز، وتشرب فوقها كأس ماء من زجاجتك الصغيرة، التي لا تفارقه. "شعره عشب نجيل أخضر، يقف مشرباً كثيراً نضراً لامعاً، وفي وجهه وجسده لمعة وطراوة أوراق البرتقال وخضرتها!"

- طبعاً يا أبي" يجيبك برهان مزهواً بولده "ما دام أبوه خلية من جسدي، وأمه خلية من ورقة برتقال، فلم لا يكون بلون خضرة البرتقال؟ ويسألك كنعان، وهو ينقل كلبه - الذي تتعلق نظراته بصديقه كنعان وأذناه الخضراوان تتدليان مع العشب الأخضر الذي يكسو جسده الصغير- من حضنه الأيمن إلى الأيسر قائلاً:

- هل يعجبك لون البرتقال يا جدي؟ فتتهند وأنت تجيبه:

"ما أشهى برتقال عكا الشموطي يا حفيدي . كانت الجنة هناك تحت أقدام البرتقال!"

ينقل لهما الآلي حقيبتيهما إلى عربتين كهربائيتين، فيركب كل عربته، وتمثل لتعليمات رجال المطار الآليين. هؤلاء الآليون يتبسمون لك، ولكنك إذا خالفت أنظمة المطار، تجدهم يكشرون عن أنيابهم، ويقطعون عليك الطريق

فيمنعونك من الحركة بحواجزهم الملزمة. ميزتهم أنهم لا يثرشرون كبني آدم. ولكن هذا الصمت المريح، موحش أحياناً، خاصة عندما تحس بأنك وحيد في عالم يكتظ بالناس! ولهذا فلقاؤك مع الابن والحفيد، يشعرك بعودة المياه إلى الأرض المشققة عطشاً.. يقول لك برهان ونحن خارجون: "لكثرة ما حدثتني يا أبي عن برتقال عكا اليافاوي، عشقته كثيراً، ولكنني لم أتأكد عملياً من شعوري، إلا بعد أن زرت أختي سمر عائداً من فرانكفورت، فوددت أن أبقى هناك ولو عامل قطف برتقال يافاوي، كي أشم رائحة الوطن البرتقالي، ولهذا قررت مزج هذا الكنعاني بلون برتقالها الأخضر، وبرائحته المنعشة. ولكننا انتبهنا متأخرين إلى إطالة عمر منتجنا الأخضر، فانتجنا ابنتي تودد من خلية أمها مع خلية ورقة زيتون، وبعض الحيوانات أنتجناها بالدمج مع خلية ورقة شجرة سنديان، كي تعمّر كما يعمّر الزيتون والبُلوط الفلسطيني. نحن نعمل على إطالة عمر الإنسان والحيوان، ليصل إلى عمر نوح الذي يقال إنه اقترب من ألف عام.. تدهش بهذه المعلومات، فتتفّرل بكنعان قائلاً: "هنيئاً للبنات اللواتي سيعشقنك!" فيخجل منك قائلاً: "أخجلت تواضعي يا جدي!"

"وأين هي تودد؟ فيجيبك برهان قائلاً: "الآن، وبعد عمر تسع سنوات، صارت تودد فنانة. إنها ترسم على كمبيوترها أجمل اللوحات، وتعزف بالبيانو أجمل الألحان.

نحن نحاول أن نجعلها فتاة أكثر علماً وأذكى وأعلم وأجمل من سابقتها المتفوقة تودد، جارية هارون الرشيد. أضف إلى ذلك أنها تتكلم العربية بطلاقة، وتتابع تعلم الآداب والعلوم والفنون وتطور التاريخ. والسلوك الإنساني القويم، فتجد أمها تثير دريهاً بتثقيف وتربية جديدة: "أحبي زملاءك. تكاملي ولا تتنافسي معهم. ساعدي الناس وتعاوني معهم. أحبي الطبيعة، اخدمي النباتات، ولا عبي الحيوانات، وساعديها على الاستمتاع بالحياة والتخلص من الألم. اعزفي الموسيقى للنباتات وللحيوانات. كوني جميلة تري الوجود جميلاً."

يشرب الأخضر من زجاجته الخاصة ماءً نباتياً ممزوجاً بالغذيات- حسب ما قال لي أبوه ذات مرة- ثم يسقي كلبه الأخضر، ويعدها يقول :

" هي المدرسة يا جدي يوجهوننا لتعلم العلوم والفنون، والحب. معلمونا يؤكدون على استكشاف الفضاء بهدف المعرفة، وليس غزو الفضاء بمعنى الاعتداء، ويطالبوننا بالتودد للحيوانات، وليس قنصها، والتعارف بين الشعوب وليس غزوها. " فتقول له وأنتم تخرجون من بوابة المبنى: " نحن نقرأ في القرآن الكريم: (...وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا...) ولم يقل لتتقاتلوا. "

الشرق والغرب!

عند بوابة مبنى المطار، تقف العربات الفضائية الهيدروجينية، تحمل الركاب بالدور، ثم تطير بهم في الجو. نضود مركباتنا الكهربائية المحملة بحقائبنا فنصل إلى العربة التي ستقلنا. تتقدم امرأة آلية باسمه، فتضع حقائبنا في العربة، ويقفز كنعان بخفة محتضناً كلبه ذا الشعر الأخضر الغزير إلى صندوق العربة، ويتبعه برهان الذي تمسك المرأة الآلية بيده، ثم تجلسك بهدوء إلى جوارهما، وبضغطة زر من يدها الآلية، تغلق علينا باب القمرة، وكأننا نجلس في مركبة فضائية !

تطير السيارة الفضائية لتنقلنا إلى الفندق الذي حجزه لنا برهان. وهذه المركبة تذكرك بالقطار الفضائي الذي سافرت فيه إلى سطح القمر، فبينما كنا نفقد الجاذبية الأرضية، شعرت بخوف وغربة، وأن انفصالنا عن أمنا الأرض هو ضياع ما بعده ضياع ! كنت كالطفل الرضيع المبعد عن أمه ! كان فراغ سطح القمر موحشاً وزمادياً، والجو مغبر ومخيف ! ماذا شاهدنا في تلك رحلة التي دفع كل منا لقاءها أكثر من ثلاثة ملايين يوان صيني سوى رمال ومرتفعات، ومنخفضات

فوهات نيزكية، يصل قطر الفوهة فيها إلى عشرات، أو مئات الكيلومترات؟ قمر أجرب ليس فيه نبات ولا ماء ولا هواء يسمح لك بالتنفس! تجمعات من مستعمرات البيوت هنا وهناك لمغامرين وعلماء ومستكشفين وقلاميذ يتدربون على استكشاف الفضاء! لقد كرهت درجات الحرارة الملتهبة في النهار والمتجمدة في الليل، ولولا ملابسنا الفضائية الحافظة للحرارة المعتدلة، والأكسجين المتدفق من أجهزتنا، لمتنا خلال دقائق. ومن يومها قررت أن لا تعود إلى مثل تلك الرحلات الفضائية، التي يضرح المسافرون فيها بعودتهم إلى منطقة جاذبية أمنا الأرض.

تسأل كنعان عن رحلاته الفضائية، فيجيبك وهو يرخي رأسه العشبي الأخضر على كتفك: " المدرسة ترسلنا كل سنة يا جدي في رحلة فضائية. والرحلة القادمة ستكون إلى مركبة ميرا الفضائية الدولية! نريد أن نتعرف على الكون الذي فيه خلقنا. ومن يدري، فقد نكتشف كوكباً آخر بديلاً لتعيش فيه الأجيال القادمة إذا ما...! في الزيارة الماضية، سبحنا في الفضاء متفردين لمسافات بعيدة، ثم عدنا إلى مركبتنا سالمين.. تجربة مخيفة، ولكنها آمنة وممتعة في نفس الوقت!"

" ما شاء الله يا برهان. " تطبطب على كتفه بحنان " ما زلت متناسق القسمات، وصلب العود. لست مثل أبيك العجوز المخلع!"

- ما زلت بصحتك يا أبي، والحمد لله!

" لماذا لا تأتي يا جدي، وتعيش معنا هناك في هيسن،

هناك كل يوم؟" ويدعم برهان قول ابنه :

- شعبيتك بيننا كبيرة يا والدي. عليك طلب شديد! ما

رأيك بطلب الجمهور؟ فتجيبه وأنت تتحسس عظامك التي

تؤلك؛

" ما أن نولد، وننزل إلى الأرض، حتى تركض بنا أرجلنا

الخائنة، وترسلنا كلاً في طريق، فننوه في الزحام، وتبقى

هذه الأرجل الخائنة تركض بنا، وهي تخفي علينا كونها

تأخذنا في متاهة، مودية إلى قبورنا! فيقول برهان : لا

تتشاءم هكذا يا أبي!

تغير الموضوع فتسأله : "طمّني عن ألبينا؟ كيف تقضون وقتكم

هناك؟"

- الوقت يمر بسرعة يا أبي، فأنا وألبينا نعمل ساعات

طويلة في معهد هيسن للهندسة الوراثية، ولا نخرج منه سوى

مرة، أو مرتين سنوياً. نذهب في الأعياد إلى فرانكفورت، أو

إلى أية مدينة أوروبية أخرى. إلا إذا كان هناك مؤتمر

خاص بالهندسة الوراثية في الصين، أو كاليفورنيا، أو

حيثما يُعقد!

" أربعون سنة وأنتما مستمران في البحث العلمي؟ حتى

لقائي بك هنا، هو نوع من متابعة تجاربك الوراثية!"

- من يدخل عالم الوراثة، يعيشه، ويتورط فيه، ولا يخرج منه إلا عند الممات !

" خذ إجازة من مختبراتك المعتمدة، وتعال نلتقي في بيت سمر في عكا، فهناك يحلو السمر مع سمر".

- أتمنى أن نعود فنعيش قريبين من أختي سمر وأولادها في عكا، ولكنني لا أستطيع ترك عملي، فأنا خُلدٌ يتحرك بنشاط داخل نفق معهد الوراثة. ألم يكن أولاد حارة باستور في القرن التاسع عشر يقطعون له بالحجارة، وهو يخرج من منزله، وهم يتصايحون في وجهه: "المجنون. المجنون!" وها هو المجنون قد اكتشف لهم أشياء مذهلة، وكان أول من أكد ضرورة عزل المرضى بأمراض معدية ! تصحح معلوماته بقولك: " الحديث الشريف يقول: (إذا دخل الطاعون قرية فلا تدخلوها، وإذا كنتم فيها، فلا تخرجوا منها). ولذلك نحن نؤمن بضرورة متابعة البحث العلمي، ونفرح لنتائج الإيجابية.

تنطلق المركبة الجوية سايحة في الفضاء، والمرأة الآلية تقودها وتتحدث معنا، وإذا سألتها أحدها تجيب بقدر السؤال. تخرج علبة دوائك، وتبلع حبة مقوية لفواصلك التي تؤلك بسبب السفر، ثم تسألها عن المكان الذي نحن فيه، والمكان الذي نتجه إليه. فتجيبك بانضباط وصوت رقيق، ولكنه يخلو من الروح، ومن حيوية حرارة المرأة، "اسمي شي. نحن

الآن يا سيدي في منطقة مريوط، ونتجه شمالاً، باتجاه البحر."

"ولكن من أين تأتي هذه المياه المتدفقة؟ وأين هي بحيرة مريوط والملاحات المجاورة؟" فتدير وجهها الآلي المبتسم باتجاهنا قائلة: "كانت هنا بحيرة اسمها مريوط. ولكنهم جففوها، وبُنوا مكانها مشاريع مختلفة. ولكن كما ترى، فالمياه عادت تتدفق من جديد، نظراً لارتفاع منسوب البحر، ولو تدقق، فسوف تجد أن محافظة البحيرة مهددة بأن تغمرها مياه البحر، بسبب الحرارة المتزايدة. لقد تطاول البحر علينا، وامتد ليغطي مساحات شاسعة من الشواطئ، والمناطق السياحية التي اختفت عن الخارطة المصرية، وانسابت المياه هنا وهناك، ونحن الآن نتدارس حلولاً لهذه التحديات البيئية!"

"كنت أعرف هنا ترعة المحمودية، فأين نحن منها الآن؟" ترعة المحمودية؟ لا أعرف شيئاً بهذا الاسم يا سيدي! دعني أراجع وثائقي." تفكر شي ملياً، ثم تتحدث بمعرفتها الإلكترونية: "انتظر يا سيدي، فسوف أجيبك في الحال،

"كانت هنا ترعة اسمها ترعة المحمودية، ففي ٨ مايو ١٨٠٧ أمر محمد علي بحفر ترعة، لتوصل مياه النيل إلى الإسكندرية، وتكون ممراً مائياً للمراكب التجارية. وكان على مواطني كل إقليم تمر به التربة، حصة أرض ليحضرها،

وصدر الأمر للمواطنين بالعمل بالفؤوس والمقاطف، وكانت جوقة موسيقية تسير مع كاشف كل منطقة، بالطبل والمزمار. سميت ترعة ومدينة المحمودية، باسم السلطان العثماني محمود خان، سلطان الآستانة، لأن مصر آنذاك، كانت ولاية عثمانية، ثم قسم الاستعمار الوطن العربي، فتاهت مصر كغيرها من الأقطار العربية، والآن عادت لتكون زعيمة لاتحاد الولايات العربية.^٢ تضحك شي وهي تعلق،^٣ مناظر ريفية جميلة، أليست كذلك يا سيدي؟ ليتني كنت أعيش في تلك الأيام. كي أرى هذه الجوقة الموسيقية وهي تسير الهوينى على حافة الترعة! أنا أحب الموسيقى الريفية! كنت أتمنى أن أكون واحدة من أولئك!^٤ تلاحظ أنها تتحدث بلغة عربية فصيحة قائلة،^٥ ولكن الصراع في أعالي النيل على استخدام مياه الزراعة من قبل مزارعي العولة، امتص المياه، ولم يبق منه سوى معالم باهتة، فتم استبدال الترعة بأنبوب مائي ممتد من سد البحيرة، الذي أنشأه حديثاً فوق تفرع ذيلي النيل البحريين الضحلين، ليحجز المياه العذبة عن فم البحر الدافق على الدلتا، وتم ردم الترعة، وتسويتها بالأرض، وتعبيد شارع عريض فوقها. يصل الإسكندرية بالقاهرة. وكأن شيئاً لم يكن! هنا - في الوجه البحري - شح في المياه، يصل إلى درجة الرعب!^٦

ما هذه الشوارع العريضة، يقول برهان وهو ينظر من عل إلى معالم الإسكندرية،^٧ وشبكات الري بالرش على

جوانب الطرقات ، والعمارات الزجاجية العالية التي تطل من بعيد، وكأنها قطعة من هامبورغ! لم أكن أتصور أن تكون الإسكندرية جميلة بهذا الشكل! فتقول شي :

" مياه الرشاشات الزراعية هي مياه عادمة مكررة . كانت مجاري اسكندرية تنزل بخراطيم ضخمة إلى قاع البحر، فتدمر البيئة البحرية هناك، وتغطي مدينة كليوباترا الغارقة تحت الميناء الشرقي بطبقة كثيفة من البراز. وأما اليوم، فبعد أن اشترت شركة تيانجن الصينية امتياز إدارة مدينة الإسكندرية، وكافة حقوقها في القبض والصرف والبيع والشراء فيها، أنشأت محطات لمعالجة مياه المجاري، فصارت تنقيها وتضخها للري، وتصنع من مخلفاتها الصلبة أسمدة عضوية، فصارت البيئة نظيفة كما ترى. ثم باعوا مدينة كليوباترا التي كانت غارقة تحت البحر لشركة هرب الإماراتية ، فعمّرتها وأنشأت فيها منارة الإسكندرية الحديثة، لتخلف سابقتها، أعجوبة العالم القديم. وأخيراً فتحوها للزوار".

يبدو أن الآلية تعرف ما تخفي صدور المدينة، فتشاركنا الحديث، كي نشعرنا بحيويتها، وأنها ليست صنماً يقود مركبتنا الفضائية، فتقول: "لقد تسبب بيع مديرية التحرير الزراعية في البحيرة إلى مستثمر "استيراتيجي" أجنبي بمئة مليار يوان صيني - لتسديد بعض الديون الأجنبية - بتظاهرات ومعارضات شعبية مقلقة. وكان بيع حقوق وممتلكات هيئة قناة السويس لمستثمر استيراتيجي، لمدة تسعة

وتسعين عاماً هو السبب في انهيار الاقتصاد، مما أفلس البنك المركزي، وسبب هيجاناً جماهيرياً قلب الموازين، فاضطرت مصر للانضمام إلى اتحاد الولايات العربية، لقناعتها بأن الأمم التي تريد أن تبقى ولا تنقرض، مثل انقراض عهد القرائنة على يد كليوبترا، عليها أن تتحد ضمن مناطق عظمى، مثل الاتحاد الأوروبي، والاتحاد الصيني، واتحاد أمريكا اللاتينية، وبالعكس الضياع الأفريقي الذي استنزفه المستثمرون "الاستيراتيغيون" الأجانب. فجاء الاتحاد العربي ليوقف عملاقاً بين عمالقة العالم، وليحمينا من العاديات، والمتربصين في ضعفنا!

تندش مما ترى، فتقول لهما: "كانت هنا بيوت منطقة الحُضرة طينية، ريفية الطابع، يقطنها فلاحون يلتصقون بالمدينة، مثل التصاق قشرة جوز الهند الجافة بلبها الأبيض. أتذكر فلاحاً كان يحرق في هذه الأرض، المزروعة اليوم بالعمارات الشاهقة، في ربيع عام تسعة وستين وتسعمائة وألف، ونحن نطبق درساً عملياً لأساسات مستشفى الحُضرة، وعندما ألقيت السلام على الحراث، دعاني بحرارة لشرب الشاي معه. كان شاي الإبريق يغلي فوق نار موقدة من حطب المزرعة، تحت نخلة باسقة، فصب لي الشاي "الحبر" بكثافة دبس قصب السكر، في كأسه الزجاجية المغبشة! كانوا هنا يزرعون الحبوب والبقول، والقطن الطويل التيلة، وأشجار الحمضيات والجوافة والمانجا، ويربون

الجاموس والنحل، فيبيعون أهل المدينة حليبها وعسلها وأجبانها وزبدتها، والبتلو الزهري الرضيع^٢.

" ما هو البتلو الزهري يا جدي؟" يمد كنعان رأسه العشبي الأخضر سائلاً: " هل هو زهر مصري؟" فتجيبه باسمًا: " البتلو يا حبيبي هو لحم عجل رضيع. إنه طفل مدلل للبقر المصري، ولحمه زهري اللون". فيخاف الأخضر سائلاً: " وهل كانوا يذبحون أطفال البقر يا جدي؟"

" كانوا وما زالوا يذبحونها يا حفيدي الجميل!" فيشرب كنعان قليلاً من ماء زجاجته ثم يقول: "إنهم مجرمون، قساة القلوب! أنا أرفض هذا القتل! لماذا لا يدللون بقرهم يا جدي، على الأقل كما يدلله الهنود؟" فيجيبه أبوه: - عندما يتعمم لوثك الأخضر هذا يا ولدي، سينتجون عجل بتلو أخضر غير قابل للذبح، مثل كلبك هذا!

يضع كنعان مصاصة الماء في فم كلبه الصغير ويواصل ثورته الخضراء قائلاً: "أستغرب كيف ينقض الإنسان، ويعتدي على ممتلكات الحيوانات، ويشرب حليبها، ويحطم خلايا نحلها، ويسرق منها العسل؟ يجب أن تبقى الطبيعة حرة دون نهش. يجب أن لا تكون حياتنا مبنية على موت الآخرين! يجب أن لا نقتل ونذبح ونعتدي كي نعيش! يجب أن نعيش، ونُدع الكائنات الحية الأخرى تعيش مثلنا. هذه الكائنات دُررٌ متكاملة على سطح هذه الكرة الأرضية النادرة

في الوجود الكوني، فكيف نقتلها؟^٢ فيجيب أبوه: - أقنع جدك
بهذه الثورة الخضراء !

تستوعب ما يقولان، ولكن هذا المفهوم الجديد، ليس سوى
علم لم تؤهل نفسك لتابعته. فأنت ذو صلاحية منتهية،
بعمرك المديد هذا. "دعهم يحاولون". تقول في نفسك.
ولتعريفهما بماضي المدينة تتابع قولك: "كان سكان هذه
المنطقة يشغلون بأعمال الوساطة بين الفلاحين وأهل
المدينة، فجلود الأبقار الريفية هي مصدر مصانع الأحذية
الإسكندرية الجميلة، وفولهم يصير في الإسكندرية (فطار
الأمير، وغداء الفقير، وعشاء الحمير). وقطنهم طويل
التيلة، المحسن في مختبرات الأشعة النووية المصرية، هو
مصدر الألبسة الداخلية المميزة في العالم، وزيت القطن هو
مصدر زيت صحن الفول وكافة الأطعمة، وحليب أبقارهم هو
مصدر كل مشتقات ألبان أهل المدينة". يشمنز كنهان
مستفسراً: "ولماذا يصنعون الأحذية من جلود الأبقار، وليس
من مخلفات النباتات وأوراقها الميتة؟ أنا أرفض أن ألبس تلك
الأحذية الجلدية المقتولة!"^٣

ينبج قلبه الأخضر بهدوء نباحاً معترضاً، يشعرنا بأنه
يؤيد وجهة نظر صديقه كنهان، فيضحك أبوه على هذا
الصديق الوفي. تنتبّه إلى أنكم سابحون في فضاء العربة
الطائرة في الهواء، والمقابلة لعربات قادمات من الاتجاه
المعكس، فتسأل المرأة: "أين نحن الآن يا شي؟"

نحن الآن يا سيدي على بعد خمسة كيلومترات من فندق جوائج تشو العظيم، سنكون هناك بعد دقيقة. ها هو الفندق يطل علينا ببرجه الشهير^٦

- أسهم تجارية لا تعرف لها وطنًا. يقول برهان: فسي لحظات، تنتقل مليارات الأسهم من مستثمرين غربيين إلى صينيين أو إلى هنود، أو (كاليفورسيكيين). لقد انتقل مركز الحضارة الآن من الغرب إلى الشرق. فبعد أن كانوا يسموننا (الشرق الأوسط، والشرق الأقصى)، لأن حجر الرchy كان عندهم، والشرق هو الذي يدور في فلكهم، صار الصينيون الآن يسمون الأوروبيين الغرب الأوسط والقارة التي بعدها الغرب الأقصى.

^٧ لاحظ أن الفندق ينتشر على كل منطقة الرياضة ومنطقة الإبراهيمية، ويدوس بأقدامه الجبارة داخل شاطئ البحر. تلفت نظره لما ترى يبدو أن أهالي اسكندرية صاروا ضيوفاً غرباء على هذه الشركات العولمية المالكة لكل شيء في المدينة وما حولها^٨

نقترب من الفندق الصيني الذي يواجهنا ببرجيه العالين، فيقول برهان: - رغم أنني قبل الحجز، شاهدت بالإنترنت كل مداخله وبهو، وأجذحته، إلا أنني لم أكن أتصوره بهذا الجمال والبهاء!

تهبط العربة الجوية بنا عند مدخل الفندق، فنرى الجو غائماً، والسماء رمادية مكشّرة، والضباب يهاجم العمارات،

ويرتطم بالأرض، والرياح الغربية الشمالية تتحضر للمطر
على ساحل الإسكندرية. تبلغ حبة هرمون المناصة، ثم
تقول:

"فندق على مساحة هائلة! أين هي حوارى وشوارع
الإبراهيمية التي كانت يومها حديثة؟ لم يبق سوى بعض
البيوت الأيلة للسقوط!"

هرم فندقني ١

أمام واجهة الاستقبال، يذكر برهان للمرأة الآلية رقم الحجز، فتأكد من مطابقتها، وتنحني، وترحب بنا ترحيباً شديداً، ثم تقول: " أرجوكم أن تنتظروا هنا في القاعة قليلاً، لتجهيز الجناح لاستقبالكم." نجلس في بهو الفندق على المقاعد الهوائية المنفوخة، فتشاهد في الزاوية اليمنى تمثالاً كبيراً للثنين الصيني الأصفر وهو يضع تحت قدميه مجسماً للكرة الأرضية ١ تخاف من التمثال، فتسأل برهان: " ترى هل تخطط الصين العظمى لوضع الكرة الأرضية تحت قدميها مثل الإمبراطوريات التي سبقتها، أم أنها ستحقق المساواة الإنسانية في الحقوق والواجبات لكافة الشعوب؟

يترك كلبه الصغير يمشي بفرور، متميلاً بصوفه الأخضر الغزير بين المقاعد وفوق السجاد الصيني، فيندesh به السياح وزوار الفندق المتجمعون في القاعة الرئيسية، مستمتعين بمداعبته من بعيد، بينما يجلس كنهان على حافة مقعدك البالوني ملتصقاً بك وهو يقول: " يسحرني يا جدي هذا الشاطئ الأزرق الذي شاهدناه من السماء! نحن في هيسن نعيش بلا بحر. عدة بحيرات جميلة متباعدة هنا وهناك

ولكننا لا نجد مثل هذا البحر الدافئ، والذي لا نهاية له،
إلا عندما نذهب إلى هامبورغ، وإلى مياه البلطيق الباردة.
هذه المناظر الإسكندرية تسحر القلوب! يضحك وهو
يقول: "تقفز من هنا، فتدب رجلك في أثينا، على الطرف
الآخر من البحر" فتجيبه وأنت تتحسس شعره العشبي:

" كم أنت ذكي ومثقف يا كنعان الحبيب! لقد أدهشني منظر
البحر مثلك، فأنا لم أشاهد هذا المنظر الجوي من قبل، لأننا
كنا نراه من الأرض، ولم تكن نظير في سماء الإسكندرية.
كانت بيوت وعمارات الشاطئ عام ١٩٦٦ تتراوح ارتفاعاتها
من طابق واحد إلى خمسة عشر. وأما هذه العمارات
الزجاجية المنوية الطوابق، المفرورة الارتضاع، والمجاورة
لخرائب موحشة، فهي عوثة الحضارة!

تذكر بصمت وأنت تشاهد بقايا عمارات وبيوت
الإبراهيمية آيلة للسقوط، ومحطمة مثل بقايا قوارب قديمة
محاصرة في زوايا الميناء، تنتظر من يجهز عليها وعلى من
فيها من عجائز هرمة أبت على الانصياع للتغيير الذي ينخر
كل ما حولها، فصار لا بد من تغييرها هي نفسها!

وفي الساحة التي تظهر خارج زجاج الفندق، تشاهد خادماً
آلياً يسير مرافقاً لرجل عجوز وهو يحمل صندوقاً تحت
إبطه، وترى رجالاً آليين يخرجون ويدخلون من وإلى
العمارات، وثلاثة أطفال أشقياء بأسمال بالية، يلعبون في
الخرابة القذرة، وصغاراً يافعين يقفزون بأحذيتهم الزمبركية

بسرعة فائقة، مثل حيوانات الكنغر. تتخيل لو كان لدينا مثل هذه الأحذية التي تسابق ترام أيام زمان، لاستخدمناها لتوصيلنا من وإلى الجامعة، كنا سنقطع المسافة قفزاً كالكنغر، فنصل في دقائق معدودات. لقد أثار عصر السرعة على كل شيء، حتى المشي على الطرقات، صار قفزاً!

يبدو القلق في عيني كنعان الخضراوي، وهو يسأل: "هل سنذهب الليلة إلى المستشفى يا أبي؟"

"لا داعي للقلق يا حبيبي." يجيبه برهان بإبتسامة مطمئنة: "سنكون هناك غداً حسب الموعد المحدد إن شاء الله، فنكون قد استرحنا من وعناء السفر، واستمتعنا برؤية جدك معنا."

يتحسس الولد رأسك المخلوق على الصخر، والذي يشبه قرعة اليقطين الصفراء الناضجة، فتستمتع بتفاعل عاطفته مع جده.

"لا أغلى من الولد، إلا ولد الولد". تقول له مُطَوِّقاً خصره الأخضر بذراعك: "أبوك يشكل امتداداً، ويحقق لي في الحياة ما لم أستطع تحقيقه، وأما أنت، فتشعرنى بمتعة نجاح أبيك في تغيير الكون، بهذا المنتج الأخضر الجميل من أحفادي." فيتربع أمامك على الأرض بجذائمه المصنوع من مخلفات أوراق النباتات قائلاً:

"أنا سعيد بكوني من جيل أخضر رائد على سطح الأرض. ليس لوني الأخضر هو المميز فقط، بل الشكل

والمضمون، والأهداف الإنسانية التي تغيرت، فالعالم بعد تعميم الإنسان الأخضر، لن يعود يرى الجنس الأسود، ولا الأبيض، ولا الأصفر. كل هذا التمييز اللوني سينتهي، ولن يبقى هناك تعصب، ولا اضطهاد عرقي، وكل الناس سيكونون سواسية، كأسنان المشط. إنه مستقبل بديع يا جدي^١

تعجبك نضارة صحته، وتناسق جسده الأخضر، الذي تكشفه ملابسه الشفافة وأنت تقول: "الحديث الشريف يقول: المسلمون سواسية كأسنان المشط."

"هذا صحيح". يتدخل برهان في الحوار "ولو أن بعضهم يقتل البعض الآخر. ولكن نظريتنا تقول: الناس سواسية كأسنان المشط. وليس المسلمون فقط. نظرية إنسانية بحتة، ليست موجهة ضد أحد."

افتح يا سمس!

تتقدم منا امرأة آلية، تبدو فتاة بريئة بأنوثتها صينية، وتبلغنا أن الجناح قد جهّز، فنقوم للتوجه إلى المصعد، ويشير كل منا بجهازه الخلوي نحو حقيبته، فإذا بها حية تسعى باتجاه مصعد الفندق، الذي يضتح فوراً، فندخل برفقة السيدة. أرقام المصعد تقفز كل عشرة طوابق بلحظة واحدة، فتظهر أمامك ١٠، ٢٠، ٣٠، ٤٠، وليس ١، ٢، ٣، ٤، وخلال ثوان معدودات، نكون في الطابق التسعين، حيث جناحنا الخاص. يفتح برهان باب الغرفة بالرقم السري المسجل على المحمول. و يقول لك كنهان بينما أبوه يدخل الباب المفتوح، "باب بيتنا يا جدي في ألمانيا يضتح بناء على صوت الشخص، وليس برقم سري، فإذا قال أحدهنا: (افتح) أمام الباب، فإنه يفتح تلقائياً. صوتك عندنا هو بصمتك الفريدة، فلا يقلد ذبذباته أحمد." فتحدثه عن سيرة المقاتيع قانلاً، "في زمن الإنسان الأول، كانت الأبواب تغلق بالحجارة، وعلى زمن أجدادنا الكنعانيين، كان المفتاح خشبياً، بطول حوالي ذراع، وعندما كنا شباباً، كانت الأبواب تُعامل بالمقاتيع اليدوية، التي تضاءلت، لتصير بحجم عقدة

الإصبع ، وبعدها صارت بطاقات رقمية، تُدخلها في شق الباب، فيفتح. وأما في زمن علاء الدين، فكان يقول للباب: (افتح يا سمس)، فيفتح سمس باب المفارة. وذلك الأمر بالفتح، لا يختلف عما في أبوابكم. إنها ذبذبات الصوت. معنى ذلك أنكم في ألمانيا تتبعون تقنيات ألف ليلة وثيلة، في أدب الخيال العلمي واستشراق المستقبل، التي سبقت كل العصور إلى التطور. وعندنا الآن في الإمارات، يضغط الشخص ببصمته على مقبض بابه، فيفتح تلقائياً.^٦ تدخل الآلية معنا، بينما الحقيقية تسعى إلى استقرارها، والمرأة ترحب بنا، وتوضح لنا كيفية استخدام مرافق الجناح، وتشغيل التلفاز الجداري، وكيفية استخدام جهاز الهواء الصحي^٧، من خلال جهاز التحكم به بواسطة محمول كل منا. "سادتي أهلاً بكم في بيتكم". تقول لنا وهي تنحني احتراماً: "اسمي تشين^٧، أي استعمال من طرف أحدكم، فلينطق اسمي تشين^٧ بالمحمول، وخلال شوان سأجيبه بنعم سيدي. نحن نلبي طلباتكم مهما كانت. لا يوجد عندنا شيء اسمه العيب! كل شيء عندنا يُقِيم بالنقد! وعندكم مثل عربي يقول: (اللي معه فلوسه، بنت السلطان عروسه)!"^٨

^٦ قرأنا في مذكرات المرحوم مشهور أن الصناعيين لا يعبأون بتلويث الهواء ، لأن التلوث يمنحهم فرصة تعليب هواء صحي. وبيعته - مثل المياه المعبأة - المخصصة لن يستطيعون الشراء، ويته داخل حجراتهم المغلقة !

يسترخي كل منا في غرفته الخاصة، وينفرد كلب كنعان في سرير صغير جميل مخصص للكلاب، بينما تقضي الوقت تشرثر مع نفسك، متذكراً أيام مصر الجميلة؛ فحينما دخلت محطة قطارات باب الحديد في القاهرة لأول مرة، متجهاً إلى الإسكندرية، وسط زحام لم تشاهده في حياتك. كنت تعتقد أن هناك مظاهرات شعبية، أو أن هناك استقبلاً حاشداً للرئيس، أو لشخص مهم. وبين الزحام يرتفع تمثال عملاق لشخص لا تعرف اسمه، فتسأل السائق الذي يجيبك وهو يسعل بسبب التلوث البيئي قائلاً: " هذا هو الملك رمسيس العظيم." فتقول للسائق المريض: " سبحان الله، يعيشون عظماء فوق جثث مواطنيهم، ويموتون عظماء في مقابرهم، ويخلدون عظماء في الدنيا والآخرة! أتذكر أُمي وهي تصرخ متشنجة في وجوهنا من غلبها ذات يوم: - أي هو ربنا - اسفّر الله العظيم - ماذا سيعطينا في الآخرة؟ وهل لديه وقت، كي يحقق لكل مسلم ما يرضي مزاجه الخاص، ويكيّفه ويسعده؟ سيقول للناس: - فليعد كل منكم إلى عمله الذي كان يشتغل فيه في الدنيا! " فيقول السائق الغلبان بصوته المبحوح: " مصيبة! إذا حصل شيء كهذا، فالملك فاروق سيعود ملكاً، والسائق مثلي سيعود سائقاً! " فتجيبه ساخراً:

" لا تستغرب، فهذا رمسيس الثاني، الذي كان عظيماً فوق رقاب شعبه، يقف اليوم شامخاً متعالياً في باب الحديد، أعظم من كل الناس." وبالفعل، فعندما شعروا عام ٢٠٠٦،

أنه كاد أن يختنق بتلوث البيئة، خافوا عليه، فنقلوه إلى خارج ازدحام باب الحديد، ولم يخافوا على المواطنين الذين يموتون في الطرقات كل يوم بسبب التلوث، ولم ينقلوهم إلى برٍّ أرحب، أو يعالجوا التلوث بشكل جذري! وفي عام ١٩٧٧، زرت الاتحاد السوفياتي السابق، فشاهدت في لينينغراد، ضريح بطرس الأكبر، بتلك الأبهة والجلال، ورخام الجرانيت البني المزركش، المجلل لضريحه، فقال لك الدليل الشيوعي يومها، "هذا هو ضريح بطرس العظيم". فسألته مندهشاً، لماذا تقول، (العظيم)، ما دامت الثورة الشيوعية قد قامت ضده، وما دتم تقولون إنه كان معادياً لحرية شعبه؟ فقال الدليل الشيوعي، "إنه تاريخنا العظيم" وها هو بطرس العظيم، يعود عظيماً مرة أخرى، وتنسلخ مدينة لينينغراد من جلدها، لتعود مدينة سان بطرسبرغ مرة أخرى! ترى هل سيعود لينين العظيم في المستقبل، عظيماً مرة أخرى في لينينغراد؟

بُلطية أنفوشية ١

في زقاق ضيق من هذه المنطقة، سكنت أول مرة، خلف عمارة ما زلتَ تحفظ رقمها ١٢ / ٨١٥ طريق الجيش، حيث كانت أم عربي تستأجر شقة فارغة في الزقاق المذكور، في منطقة كليوبترا الحمامات، مكونة من ثلاث غرف، فرشتها، وتؤجرها لطلاب جامعيين. وعندما دخلت لمشاهدة الغرفة، عرفتُك على الساكنين الآخرين: محمد النجار من غزة، ومحمد محمد محمد من المنصورة، وأنت ثالثهم من عكا.

وأم عربي امرأة أنفوشية في الستينات من عمرها، من أهالي رأس التين، تلبس ملابسة لف، وتضع على أنفها خماراً من الخيوط السوداء، على شكل شبكة الصيادين، وفوقه حلقة خشبية أسطوانية صغيرة تشبه طُعم صنارة الصيد. ويبدو الخمار معبراً عن عادات وتقاليد ومعالِم وجه امرأة بحرية، بنت بلد، إذ تُظهر الشبكة فهمها وذقتها المدقوق بوشم نساء البلد وكأنه رأس سمكة بلطية قد كملتها الشبكة واصطادتها، فمنعتها من المرور. إنها جمالية بلدية قديمة ملفتة للنظر. أزياء ملابس، ثم يرقى فرزاتشي ليصمم مثلها. أزياء بلد، وأي بلد؟! إنها أنفوشي الإسكندرية، التي كانت في الأيام

الخوالي أهم من شارع سليمان باشا في القاهرة. كانت الإسكندرية هي عاصمة العصر البائد، وعاصمة الخواجات واليونانيات، وميناء الاستيراد والتصدير، حيث يلتقي فلاحو بحري البسطاء، مع تجار المدينة الألعبانيين، وتغص معارض التجارة بالمسموحات، وتتعفن مواخير التداول بالمنتجات، وتنزوي مكاتب الخدمات الخاصة بعملاء الغرب.. وهي البلد الذي نفي منه الشاعر سعد زغلول إلى جزيرة ماطا، وملتقى أعضاء المخابرات الأجنبية، ومنتجع العشاق، وبؤرة اللواطيين والسحاقيات، ودور السينما والمسارح وزقاقات الملاهي، وأوكار الكباريات والمومسات، وعاصمة الملك فاروق الذي غرس قصوره في رأس التين والمنتزه والمعمورة وكل مكان، وبلد سيد درويش، ومقر بيرم التونسي، ولا تنسى أنها مكان ولادة جمال عبد الناصر. ولكن العهد الناصري أمم كل هذه القصور وحدائقها، وحولها إلى منتزهات عامة للشعب.

كما ننتزه في حدائق المنتزه الساحرة، ثم ندخل إلى القصر المشيد على طراز قصر غرناطة الأندلسي، مستكشفين طوابقه التي تصعدنا دون أن نعرف في أي طابق نحن. ذلك لأن تصميم القصر كان مدهشاً، فهناك طريق سحري، يوصلك إلى الطوابق، دون أدراج. وحساول القائسد بقدر المستطاع تعريب الإسكندرية، وتنظيفها من ملوثاتها غير الإنسانية، وزرع منطقة الرمل وحتى باكوس بالعمارات

السكنية المخصصة لأبناء الطبقة المتوسطة، فجعل جماليات الأنفوشي ورأس التين في خبر كان! ولهذا اتجهت أم عربي إلى منطقة الرمل، واستأجرت شقة فارغة، ودفعته خلوها الشيء الضلاني.

تأخذك أم عربي في جولة داخل شقتها الصغيرة قائلة: "إذا خرجت من غرفة النوم، أطفئ النور خلفك، وإذا خرجت من الحمام أو المطبخ، أطفئ النور خلفك". تقول ذلك بصرامة وانضباط، "لا تتأخر خارج المنزل، فإذا تأخرت بعد التاسعة مساءً، فلا تعد إلى منزلنا، ويفضل أن تبقى عند من أنت عندهم!" ومن يومها وحتى يومك هذا، وأنت تنضبط في إطفاء الكهرباء خلفك، ولكنك لم تنضبط في التعامل مع ابنتها الجميلة نادية!

في الليلة الأولى من إقامتك، رحت تسمع طبولاً وأغاني حفل، فتطل من شرفة الشقة. لا تعرف ما إذا هو حفل خطوبة، أم فرح زواج، أم حفل عيد ميلاد! تشاهد من علّ تجمع ناس يغنون ويرقصون فوق أرض الزقاق الترابية، وبينهم راقصة تهز وسطها، حافية بين الجموع، تتلوى مثل سمكة كبيرة أخرجت الآن من البحر، وهم يشوونها على نار مشتعلة. إنها تهتز وتدور بثوب مشقوق إلى نهايته من الجانبين، وهي تهذف بالشقين الطويلين، فتكشف عن بضاعة بلون القهوة الشقراء. تشاهد وأنت تطل من الطابق العلوي فحذيها السمراوين المتمردتين على الاحتشام. منظر مدهش

لشباب لم يره في حياته أكثر من وجه امرأة. والمحتفلون المتعلقون حولها من رجال ونساء، تجدهم مختلفين متموجين متناسمين مع الرقص الذي يحرك حتى ملابس الفسيل المتدلية من فوق رؤوسهم. ويبدو أن الملاعين يشاهدون كلسونها، ذلك لأنك تسمع وترى أحد الخارجين على القانون يكرر قوله لها، كلما ينتبه ويلاحظ المخفي الأعظم:

"هوي له! هوي له!" فينفلت المنضبطن والخجولات بضحكات صاخبة، تثير فضول أهل الحارة المتضرجين من الشرفات. وفي وسط الجمع، تشاهد شاباً نحيلاً بملابس وطافية صيادين بحري، يقف متموجاً بيديه ورأسه ورجليه ومؤخرته بين الجمع، ويصيح بأغنية أي كلام، ويقول كلاماً فارغاً:

"حماده معاه ده ، عبّدي عباد ،
وجماعة فرادى ، صايرين في زيادة .
وتعال يا حبيبي ، اعمل لك دادة !
وتشوه في الزحمة ، تشتري لحمه ،
يدوك زيادة".

فترد عليه الراقصة بالغناء المغناج :
"وبياع الخضار ، حبّه جبار ،
وعليّ بيغار ، في الليل والنهار ،
طعماني خيار ، وشربني سيجار،

وملئ لي الدار ، صغار وكبار ،

خلوا لي عيشتي ، عذاب ومراراً^١

يشدك في الحفل منظر الجمع من النساء والرجال، وأهل
الحارة المتماوجين في لمة الضرح، والمارة الذين يتوقضون
وينبهرون بما يشاهدون، فيعيدون بشكل جماعي غناء ما
تقولته اللبؤة ، على شكل كورس غنائي، ويردون على
الراقصة التي تتشخلع، واضعة على رأسها قنديلاً مزركشاً
بثريا قطوفها دائية. ويستمر المهرج يتبادل معها الغناء بكلام
فارغ من هذا النوع، لا تظهم منه شيئاً.

تسمع أم عربي أصوات الضرح، فتطل معك من الشرفة دون
انفعال، فتسألها عن الحفل، وماذا يقول المغني؟ كلام فارغ^٢
تجيبك مبتسمة هذه المرة، فيتحوصل ذقنها الموشوم بنقاط
زرقاء كُحلية ، كنوع من جماليات المرأة الأنفوشية^٣، ناس
يريدون أن يفرحوا، فيعملون أي شيء. (زيطة وزمبليطة)
هذا هو الضرح لعروسين عجوزين، العريس هتريس، يشتغل
صياد سمك، يصطاد له عشر سمكات في اليوم، يقوم ببيعهم
بريالين، ثلاثة، ويريد الزواج من الغسالة عقيلة. فأي عرس
تريد أن تعمل لهم أكثر من استنجار صالة ترابية في هذا
الزقاق الضيق، ببلاش، وشوية ناس فاقددين، قاعدين في
الحارة، منتظرين فرح ولا ترح، تلاقبهم أنفسهم يقضوا وقتهم
في ميتم، يشبعوا فيه لطم.^٤ ثم تنهي وجهة نظرها قائلة: يا
الله، يا الله! روح شوف كتبك، وأدرس لك درس ينضع

المسلمين، وسيبك من الكلام الفارغ، اللي لا يودي، ولا يجيب!'
تدخل غرفتك، وتنسى الدراسة، والذين يدرسون!

أهم شخص يزور الشقة أحياناً هي ابنتها نادية، في
الثامنة عشرة من عمرها، إذ تأتي أحياناً مع أمها من رأس
التين، وأحياناً تأتي وحدها، فيزورها شاب من الجيران (متنج)
مثل البغل اسمه محمد نوح، فيقتضان يتها مسان في المطبخ
المغلق هذه المرة. وأنت لا تفهم ماذا يصنعان هناك! والبنت
الدلوعة سمراء، وعيناها سوداوان ضيقتان، طولها ماشي
حاله، ووجهها فرعوني على إغريقي، مصقول بماء البحر،
ولشعرها المقصوص تحت أذنيها تسريحة كثيفة، تراها
ممتلئة الجسد، ولكن بلا إفاضة. وعندما تكون وحدها تدخل
إلى الحمام الوحيد في الشقة، وبعد ساعة من الاستحمام، أو
الله أعلم ماذا تفعل، تخرج وهي تغني إحدى أغاني
شادية: (غاب القامار يا ابن عامي، يالله راوا حني..)

تدخل أنت الحمام الوحيد في الشقة بعدها، فيبهرك
كلسونها الملون، الرقيق الرفيع، وصدريتها الزهرية، ملقيين
على مفصلة الحمام، وأحياناً على بلاط الحمام، لا تدري ما
إذا كانت تتركهما للعرض، وكأنها تقول: نحن هنا! أو هي
العادة، أن تترك الصبية مثل هذه الملابس في حمام شقة
شباب، كي تغسل فيما بعد.

وأحياناً تجلس الصبية وحدها في المطبخ، تغلي فنجان
قهوتها، أو كأساً من الشاي، على مهلها، وتضع مشطاً

معدنيًا، تسخنه على نار طباخ الغاز، ثم ترفعه محروقًا،
وتمشط به شعرها، وتلفه على شكل حلزوني. تشم رائحة
الشعر المشوي الخائفة، من داخل غرفتك، فتستقطب فضولك.
تدخل المطبخ لمراقبة شيء جديد عليك: تسليك ولف الشعر
بالمشط المعدني المشوي. أنت لا تفهم سر انجذابك للفتاة
والحقيقة أنك كنت تحب أن تشم رائحة الأنثى الشابة التي
تقف في المطبخ، ولكنك مثل اللوح، لا تعرف كيف تتحدث مع
الإناث. فقط تستغرب كونها تشوي شعرها، ولا تتدخل فيما
عدا ذلك. تُعدُّ كأساً من الشاي، ثم تعود مندهشاً إلى
غرفتك.

كل هذا كوم وغباؤك في التصرف مع نادية، جبل من
الأكوام المتفاقمة. إن سوء تصرفك معها لا تعادله قلة أدب.
يبدو أن الجميلة قد أحبتك من أول نظرة، وأنت تدخل
الشقة مغروراً بشبابك، وبطولك الضارع واندفاع صدرك
ونحول وسطك، وشقار وجهك، وعينيك الزرقاوين الواسعتين،
فلا تسلّم على أحد.

أنت لا تتفحص صورتك في المرآة، تترى كم أنت مغرور،
ومُعقّد، وأهبل، أو جاهل في التصرف. وقد تكون تعاليم
جدتك أنيسة هي السبب، فهي التي قالت لك: "درب البنات
شوك" وعززت أمك زكية نصيحة الجدة بقولها: "لا
تدع بنات (استنكرية) يضحكن عليك" فكانت تضحك
لفلظتها، وتقول لها مصححا: "يا امه اسكندرية،

وليسست^١ استنكريّة^٢! فتكرر أم غالب قولها: "استنكريّة استنكريّة! أي أنا شو بيعرفني؟" وتضيف جدتك أنيسة محدّرة: "البذت تضحك على الشاب، وتفضّي جيوبه من فوق ومن تحت! وتجعله يقعد على البلاطة! وحالما تنضب جيوبه، تتخلى عنه!" كلام فارغ كثير من هذا النوع كنت تسمعه قبل مفادرتك إلى اسكندرية كليوپترا الجميلة، ذلك لأن الجدة أنيسة لم تكن تعرف الفرق بين (كيلوپترا، وكيلو بامية!) ولم تعرف أن بومبي ويوليوس قيصر وأنطونيوس وأكتافيوس قيصر بعظمتهم، قد غرقوا في جسد الجميلة، فأية نقود هذه التي ستصرفها، مقارنة بأنطونيو الذي صرف عمره بين ساقى الساحرة الإسكندرانية؟ وهل أصلاً كنت تملك نقوداً في جيبك، كي تنفقها على هذه الصبية الشهية؟ لكنك خاوي الجيبين، معصوب العينين، مخضي الشفتين، أعمى البصر والبصيرة! تنتبه إلى نادية، طفلة رأس التين، ودلوعة أمها، ووحيدتها، وهي تراقب شبابك، وبهاء طلعتك، معجبة بك، ومعتقدة أنك قيس ليلها. وكلما زاد غرورك وتجاهلك، زادت شهيتها للتقرب منك.

تقول لك أم عربي، وهي تحرك قهوتها على نار المطبخ: "لاحظ يا مشهور أن نادية هي وحيدتي، فبعد زواج ابني عربي، واستقلاليتّه عنا، خاصة بعد غرق أبيه الذي كان صياد سمك معروف في كل بحري...^٣ فاجأ بالخبر، فتسألها: "هل غرق زوجك، ومات في البحر؟"

"نعم، غرق ومات في البحر!" تسألها بتأثر، وكأن الحادث قد حصل بالأمس؛ "وكيف حصل ذلك؟" فتجيبك بهدوء، وبلا اكتراث، وكأنها تتحدث عن السمك هتريس، الذي تزوج عقيلة الفسالة أمس؛ "كان يصيد السمك. لا نعرف التفاصيل. يبدو أنه كان يعارك عجول البحر، هو يشد وهي تشد فوقه وغرق بعد صراع مدوّخ مع أمواجه! وبعد ذلك، استلم عربي منه مهنة صيد البحر. مهنة يتوارثها الأبناء عن الآباء، عن الأجداد."

"ماذا تقصدين بالأجداد؟ فكيف مات جد عربي إذن؟" تنظر الأنفوشية إليك وما تزال تحرك قهوتها، فتقول: "غرقاً في البحر." تندھش سائلاً: "زوجك غرق في البحر، وأبوه من قبله غرق في البحر؟ تقصدين أن كلاّ منهما كان صياد سمك، فيرث الابن من أبيه مهنة الفرق في البحر؟ ومع ذلك سمحت لابنك أن يرث منهما نفس المهنة؟ إنها مهنة الموت إذن؟"

تتنهد محزونة وهي تقول: "ماذا تفعل؟" فتفوز قهوتها، وتندلق رغوتها على عين النار، فتطفئها، بينما ترفع العجوز الغالية، وهي تتابع قولها: "هذه سنة الحياة! نحن أهل بحري مهنتنا موقوفة للبحر، ونحن مرهونون للبحر، ورزقنا من البحر، وحياتنا وصحبتنا مع البحر، ونهايتنا إلى البحر، تماماً كأجمل العرائس التي كان الفراعنة يرمونها لتكون هبة النيل. هناك عروس النيل، وأما هنا، فنحن عرائس البحر!"

" ما دامت نهايتكم للبحر، ألا تخافين على ولدك من مهنة الصيد وأنت تشاهدين أباه ومن قبله جده يموتان غرقاً هي..؟" فتعدّل الأنفوشية الشبكة التي تصطاد أنفها الطويل وذقنها المدقوق بالوشم الكحلي، وتنطق السمكة البلطية من داخل شبكتها: "وأنت، أين يموت أهلك وأقاربك؟" فتقول: "يموتون على الفراش!"

"وأين يموت جيرانكم ومعارفكم؟" فتجيبها مستغرباً سؤالها: "على الفراش طبعاً!" فتقول العرافة: "إذاً، ألا تخاف من النوم على الفراش ولا تضرع في الليل؟" ترجع إلى الوراء وأنت تجيبها: "صحيح! كلامك منطوق وفلسفة يا أم عربي! كنت أعتقد أنك منطقية، ولكنني لم أعرف أنك فيلسوفة أيضاً! كان يجب عليّ أن أخشى نومة الفراش هذه!"

لست أفهمك أيها البحر المتدافع بأموالك القادمة من بعيد! (والموجة تجري وراء الموجة، عايزة تطولها!) هل أنت كريم معطاء، تطعم من خيراتك اللانهائية كل من يقصدك، فينامون على شواطئك آمنين مطمئنين؟ أم أنك متوحش غدار، تهاجم المخلوقات وتنهشها وتفتتها، ثم تخفيها في بطنك، وكائنمر تعلق بلسانك منفضاً كل ما حولك، ثم تعرض جسدك على الملأ، طاهراً نقياً رقراقاً؟ هل أنت بريء وساذج وغير مبالي إلى هذه الدرجة، فتعيش عمراً لا نهائياً؟ أم أنك لنيم وعميق وحاقد، فلا تترك أحداً يبقى حولك إلا أنت لا شريك لك؟ هل أنت دكتاتور عربي لا يتزحزح عن مقعده،

فيعيش إلى الأبد؟ أم أنت بلسم يضعونه على الجرح ليشفى؟
أحبك يا بحر! أخاف منك يا بحر! سأشتاق إليك يا بحر،
أودّعك يا بحر لأنني لن أراك بعد اليوم! أكرهك يا بحر،
لأنك ستغدر بي كما غدرت بكل من سبقني، وتتنصل من
جثتي، ثم تنساني بينما تبقى أنت إلى الأبد!

وبعد غرق زوجها الذي لم تُقَم له جنازة، بل تكاثرت
عليه جموع السمك وقرش البحر، والتهمت به هناك بصمت.
بحث رفاقه الصيادون عن جلد أو حتى عن عظام، فلم يجدوا
شيئاً يدهنونه. كان السمك قد فصصه وجزأه، وورّعه على
رفاقه، وذلك انتقاماً لقتله الذين تحصدهم شباك الصيادين
كل يوم، وكي يتوزع دمه بين قبائل السمك، فيصعب الأخذ
بثأره. وبعد أن اختفى دمه، وضاع أثره، صاح فيهم شيخ
السمك المستحكم في أعالي البحار قائلاً: " لقد أبلستم بلاءً
حسناً، فلتفطروا بهم، قبل أن يتفدوا بكم، ولتضعوهم في
بطونكم، قبل أن يضعوكم في بطونهم. فلتبطنوا لهم ما
يبطنون، والبطن بالبطن، والباطن أبطن!" لم يفهم أحد على
أحد شيئاً. وكل في بحر يسبحون!

لم تقعد الأنوشية المسترجلة، بل جمعت كل تحويشة
العمر، وكل النقود التي تركها لهم أبو عربي، وراحت تفرش
شقتها التي استأجرتها، ثم أخذت تؤجرها للطلاب الجامعيين.
إنه مصدر رزق جيد لمثل عائلة ثنائية كهذه. هذا ما شرحتة
لك ذات لقاء داخل المطبخ، الذي لا تزيد مساحته

على المترين، والذي تَضَع لها فيه مقعداً مستطيلاً، يتسع لجلوس شخصين، أو لاضطجاع شخص واحد فقط مقرّصاً، هذا إذا أرادت المرأة أو ابنتها أن تتمدد في مطبخ بيتها، الذي أُجِرتْ غُرْفُهُ الثلاث للطلاب.

تقف أم عربي معك في المطبخ، فتعلمك كيف تصنع القهوة أو الشاي، وهي تحكي لك قصة حياتها. تعرف الستينية أنك ولد غريب لا يعرف كيف يصنع فنجان قهوة، أو كيف يقلبي بيضة، فتقوم بدور الأم، لتعلمك ألف باء الغربية^١ "ضع الماء في (الكنكة)، وأشعل الغاز هادئاً تحتها، ثم خذ ملعقة صغيرة من القهوة، وضعها فوق الماء، ثم ضع ملعقة صغيرة، أو ما تشاء من السكر، وحرك القهوة والماء والسكر على نار هادئة، واستمر بالتحريك طالما ماء الكنكة يزداد سخونة على النار. وحاملاً تقصور القهوة، اسكبها هكذا في فنجان قهوة تركي (بوش^٢)، وصحة على قلبك!"

وأم عربي العجوز نسبياً، تلاطفك كولد من أولادها، وتمزح معك براحتها. فعندما جاء فصل الشتاء، صرت تشعر بالبرد، فتقول للعجوز بلهجتك الفلسطينية: "الدنيا برد، أحة!" ثم تفهم أن كلمة (أحة) في مجتمع اسكندرية هي تعبير جنسي مثير ومخجل، ولكنه تعبير شامي بريء، خاصة لمن يشعر بالبرد! وعندما سمعت ذات مرة زميلك في الشقة، الطالب المنصوري محمد محمد محمد، قال لك: "إن أهل فتاة ريفية في محافظة الشرقية قتلوها، حينما سمعوها تقول

كلمة (أحّة)؛^١ ولكن العجوز أجابتك بكل جرأة ، عندما سمعتك تقول: (أحّة) فقالت : "جيب طيزك أما ارقعها لا" تفاجأ بوقاحة العبارة، ولكنك تشعر إنها من أم معلمة، فتبتلعها، وتقبلها منها. ومن يومها، تحرّم أن تقول كلمة (أحّة)، حتى لو وصلت إلى شفا الموت برداً !

أبو الهول العظيم ١

بعد غياب قصير داخل غرفته في الطابق التسعين من الفندق، يدخل برهان عليك خلوتك . فتبادره بشوق: " أين أنت يا رجل؟ " فيقعد إلى جوارك على السرير وهو يقول:

- أخذت حماماً ساخناً ! وبرهان هذا لا يعرف شيئاً سوى التحدث في البيئة والوراثة. يواجهك فيبادرك القول:-
تصور يا أبي أن الوطن العربي كله يخلو من معهد فاعل في الهندسة الوراثية ! فتقول له محاولاً التخلص من حرج كبير:

" لقد أنشأوا في أبو ظبي منذ سنتين معهداً متخصصاً بالهندسة الوراثية، لإنتاج سلالات محسنة من الخيول العربية الأصيلة، بهدف نشرها وتسويقها على نطاق واسع في العالم. ولكنني لا أعلم هل ستكون خيولاً خضراء كما تريد، أم...؟ "

- عالم الهندسة الوراثية يا أبي، هو نوع من الجنون والعشق ونوع من خلق الحياة الجديدة. الحياة الإنسانية التي نحلم بها ! فقدماء علماء الزراعة فكروا في الهندسة الوراثية، وتوجوا أفكارهم بتمثال أبو الهول العظيم، والذي يُعبّر عن مشروعاتهم الوراثية، المتمثل في دمج رأس إنسان مفكر، في

جسد أسد هصور. الذكاء مع القوة ! قد يكون التمثال شعار الحاكم الذكي القوي، وقد يكون الهدف علمياً بحثاً، ليكون الإنسان المستير بقوة الأسد. وهذا ما حققناه اليوم على أرض الواقع. ولكننا لا نريد دمج الإنسان مع الأسد، بل دمج الأسد مع النبات، والإنسان مع النبات، وكل حيوان مع نبات، فيظهر لنا حيوان نباتي، لا تعتمد حياته على غريزة الصراع من أجل البقاء، بل البقاء من أجل الحب، والتمتع بالكون. ولكن قل لي يا والدي، وأنت المهندس الكبير في القيمة والقدر، ألم تسأم أنت أيضاً تكاليف الحياة، وقد عشت سبعين حولاً من العمل المتواصل في مشاريع الهندسة المدنية الجافة بلا روح؟ تشعر بهذا العمر المبدد، فلا تملك إلا أن تقوم فتبول في المرحاض، وتضغط ماء الشطافة الذي ينزل على شكل بخار حليبي مضغوط، ثم تفتح صنبور البخار المضغوط لتفسل يديك. كلها أدوات تستخدم تقنين المياه. قضية بيئية تعودنا عليها في الإمارات، ولكن أن تكون في اسكندرية البحيرة، وترى بأعينك ربوعها التي كانت خضراء، وقد جفت أغصانها، وتصحرت مراعيها، وترملت حقولها، فلم يعد ينكحها ويخصبها غمر مياه النيل المتقوقع على نفسه! تشعر بالعطش يجفف حلقك، وتعود مهموماً وأنت تجيبه:

أنا في حكم المتقاعد منذ عشرين سنة، ولكن كما قلت لك: (المهنة محنة) ولذلك تجدني لا أتدثر، بل أقوم فأندثر.

فبعد أن شاركت في تأسيس حوالي خمسين مشروع عمارة، بارتفاعات من عشرين إلى تسعين طابقاً، ومشاريع طرق وجسور التفاضلية، مكتبنا الهندسي الآن متورط في تصميم شواطئ واجهة دبي البحرية، فبعد هذا الاحتباس الحراري، وما نتج عنه من ارتفاع منسوب مياه البحر، والذي أغرق آلاف الجزر المنخفضة في أندونيسيا والفلبين والكاريبى، وغمر الدلتا - جنة مصر الخضراء، وسلة غذائها - كما غرقت واختضت بعض الجزر الإماراتية المنخفضة، صار الخطر يهدد السواحل كلها، وصارت إعصارات تسونامي الخليجية هي شغلنا الشاغل!

ولواجهة هذه التحديات، فإن مكتبنا يقدم الاستشارات في المشاريع الهندسية الاستراتيجية والبيئية، والرقابة على تنفيذها. وأنا الآن لا أقوم بالعمل اليومي، بل مجرد مالك لنصف شركة مشهور الاستشارية الهندسية، التي صارت مشهورة في كل الإمارات. نحن الفلسطينيون الذين كنا محرومين من الوطن، نحاول تفسير عقدة الوطنية بالعمل الدؤوب، والإبداع يعوضنا جزئياً عن مرارة التهجير. فمن المخيم خرجت إلى القاهرة، ومن دبي أرسلتك إلى ألمانيا، وها أنت تصنع المعجزات، وتساهم في تغيير الحياة على الأرض، وها هو كنعان يذكر بأنسنة وليس غزو الفضاء - كما يقول - هذه الإبداعات الطموحة تعوضنا قليلاً عن الحرمان!

فقال برهان بتساؤل: - ها قد انتهى عصر التمييز

العنصري في عكا وحيفا وياها بعد تنفيذ حق العودة المطلق للفلسطينيين، وانتهت معاداة السامية بالاعتراف بأن العرب المسلمين والمسيحيين، وقدامى اليهود هم ساميون، ومتساوون في الحقوق والواجبات، دون تمييز عرقي أو ديني، وتم قبول ولايتنا على أنها جزء لا يتجزأ من اتحاد الولايات العربية. وصارت ولايتنا بعد هذا الاتحاد واحدة أمان حرة لكل الأديان السماوية، والمبادئ العلمانية بلا تمييز، الذي كان إنجازاً تاريخياً يحسب لهؤلاء العربان، الذين كانوا في القرون الأخيرة لا في العير، ولا في النضير!

” يبدو أنني قد كبرت أكثر مما أحتمل، ولهذا سأعود إلى عكا. لقد اشتقت إليها كثيراً. يجب أن أتصرف بأي طريقة، وأعود لأعيش مع أختك سمر وأولادها وأحفادها. وهناك سأبني دار مكتبة عامة، وأهديها بكل محتوياتها إلى مدينة عكا، وأرصد في البنك ما يكفل رواتب موظفيها بشكل دائم بعد موتي، بما فيها جائزة قيمة، باسم جائزة مشهور الهندسية، لتُقدَّم سنوياً لأفضل مشروع هندسي يساهم في إعادة بناء ما دمره الاحتلال من قرى ومدن مستباحة. لقد حان الوقت للاسترخاء هناك، على مرأى قوارب الصيد العتيقة، المتألثة على شواطئها.“

- كنت أتمنى أن أعود معك إلى عكا يا والدي، ولكنك أنت الذي علمتني أن أكون جاداً في حياتي، فوجدت، فوجدت. وأنا الآن بصراحة لا أترك عملي إلا لضرورة

قصوى، مثل فحوصات كتعان هذه، التي سيجريها المستشفى غداً. إنني مشدود إلى شركتي برياط أشد كثيراً من حزام العفة الذي كان الأوروبيون يقفلونه على قيعان زوجاتهم، بينما هم يغامرون فوق بحار الدنيا، أو بقاع الأرض. إنني مقيد مع الشركة بعقود ومحامين، ووثائق. ولذلك اعذرني يا والدي، وحاول أن تتفهم قضيتي.

"ألهذه الدرجة، لا تستطيع ترك عملك؟" فيضع ساقاً فوق ساق ثم يقول - حتى لو فكرت، فلقد صارت نجاحاتي الوراثية هي التي تربطني بالمعهد. وشركتنا - والحق يُقال - تغدق علينا رواتب لا حدود لها. (اصرف ما في الجيب..)، تقول لك الإدارة المالية، تدلّ في مصروفاتك. اشتر ما تشاء لك بلا قيد ولا شرط. وأما الخروج على أسرار العمل، فهو خط أحمر! يبدل وضع الساق الأخرى فوق أختها وهو يتابع قوله - نحن الباحثين قبلنا هذه اللعبة، فصار شغلنا الشاغل هو التسابق لإدخال الأرض في حجرة الإنعاش، فقد نستطيع إعادة الصحة والتوازن إليها. تصور أنهم عندما حاصروا التلوث البيئي، واستبدلوا الآليات النفطية بأخرى تستخدم الوقود النباتي، كانت تبعاته أسوأ!"

"طبعاً أسوأ، لأن الوقود الحيوي استهلك النباتات، فبدل أن نزرع لإطعام أفواه الجياع، صاروا يزرعون لإطعام أفواه الماكينات، بديل النفط الذي انتهى عصره. ولهذا ارتفعت

أسعار الطعام. ها هو رغييف الخبز بدينار عربي. الفقراء يبادون اليوم في طاعون مجاعة دولية، وتسبب استهلاك الماء في عطش الكرة الأرضية^٩

- وعندنا أيضاً وصل رغييف الخبز إلى يوروين! الوقود الحيوي قتل سكان الأرض جوعاً ولهذا سيطرت الآليات الهيدروجينية التي تنفث بخار الماء، بدل عوادم النفط، ومخلفات الوقود الحيوي، فصفاء الجو، وتحسنت الرؤية، وارتاح الناس. ولكن المفاجأة التي لم تكن متوقعة، جاءت من صفاء الجو، وازدياد سطوع أشعة الشمس، مما أدى إلى ارتفاع درجة الحرارة أكثر من ذي قبل. الكرة الأرضية تذوب بالحرارة يبا والسدي، ونحن مصيبتنا أننا قبلنا أن نكون (الطبيب المداويا)

^٩ في رحلتنا الأخيرة هذه على الطيران العربي الموحد، كان المسافرون، يشربون من المياه العادمة، المنبعثة من حرق الهيدروجين بالأكسجين، مقتنعين بأنها المياه الفضلى للشرب^{١٠}

^{١٠} نفس الشيء حصل معنا على الطيران الأوروبي الموحد، إذ كان المضيف يتفاخر علينا بأنه قد أعد لكل منا فنجاناً من القهوة أو الشاي، مصنوعاً بمياه محارقات الطائرات الهيدروجينية^{١١} يبدل برهان وضع ساق فوق ساق، وهو يسألك، - وكيف تعالجون ارتفاع منسوب المياه البحرية ؟

^{١١} نقوم بتصميم لجدار عازل، مثل الجدار العازل الذي

أنشأوه في بداية القرن لخنق الشعب الفلسطيني داخل أكبر جيتو في التاريخ. ونحن صممنا جداراً يعزل الناس هنا عن حياة البحر.^٦ فيقول لك: - أليس ظلماً حرمان الإماراتيين من بحرهم، كما حرّموا الفلسطينيين من وطنهم؟ فتجيبه خائفاً: " نحن نفضل هذا حماية لشواطئ الولاية من الفرق هالجار ي عزل الشواطئ، وينظم التواصل مع البحر."^٧

- إنكم يا والدي كمن يكيل البحر بطاقيته! وهل يستطيع أحد لجم فم البحر؟ إذا كان سور برلين المخيف قد انهار بضربات الألمانين، وسور العزل الفلسطيني الجيتوي قد انهار أمام ضربات المقاومين، فهل سيبقى سور بحر الإمارات مقاوماً لموجات غضب الأرض؟ ولكن قل لي: كم سيكلف مثل هذا المشروع لو عُمم على كل الإمارات؟ " سيكلف مئات مليارات الدنانير العربية"^٨

- تقصد أن ما قبضوه ثمناً للنفط، سينفقونه على مقاومة نتائج حرقه؟ حضارة الغرب المغرورة ترفعت بحرق النفط داخل سياراتها ومصانعها. تقول لك الإعلانات المضلّة: (عبيء سيارتك العملاقة بالنفط الرخيص، وانطلق إلى محبوبتك!) وبعد عصر النفط، استهلكوا الغابات، وزرعوا مكانها عمارات جميلة المظهر، فأفرزت من تحتها براكاً ومجاري لوثت البيئة، وبثت غازات وسموماً فضائية، أهلكت الحياة على الأرض!

” نحن المهندسين الذين نحمل على ظهورنا أمواج البحر،
ليس أمامنا سوى هذا الحل“

- الحل يا والدي ليس بالإسمنت المسلح، فالطبيعة
أقوى من الإنسان، مهما حاول أن يستتوي عليها “ فتجيبه
يائساً: ” (الأرض يومئذٍ لله، يورثها لمن يشاء من عباده
الصالحين). “

- ها أنت قلتها بلسانك! يقوم فيخرج وهو يقول :
- لقد أثبت الإنسان التقليدي أنه ليس صالحاً فما أدراك
أن الله يريد أن يورثها لعباده (الخضر) الصالحين؟

خنافس!

يستأذن پرهان ويذهب ليسترخي داخل غرفته الخاصة، بينما تدخل أنت لتأخذ حمام بخار ساخن مضغوط، يزيل عنك وعناء السفر، ووسط البخار تخطر على بالك امتحانات نهاية السنة الجامعية الأولى، إذ هاتفك يومها زميلك الخنفس راضب الشريقي من منطقة رشدي،^١ أرجوك أضعفنا. فأنا وسرحان لا يوجد معنا كتاب لمادة الاشتراكية، ونحن لا نعرف شيئاً عن الاشتراكية ولا الرأسمالية ولا حتى الأزهر! يقول ذلك ضاحكاً! فلا تستطيع أن ترفض له طلباً، خاصة وأنه يستجير بك. تحمل كتابك، وتذهب إلى العنوان. ترن جرس الشقة في الطابق الثالث عشر، فيفتح لك سرحان.

"أهلاً زميل مشهور. تفضل." فتسأله، "أين راضب؟" فيجيبك: "إنه هناك في الداخل". تدخل فتصافحه وهو جالس على أريكة وثيرة، وتجده مشغولاً بالتفرج على مجلة خنافس بريطانیا (بيتلر مجازين) بصفته خنفساً من جماعتهم. كانت سرعة الخنافس البريطانية على أشدها في الستينيات، وكل أبناء الذوات يقلدونها، وعلى رأسهم راضب الشريقي. وحسب ما ذكر لك ذات مرة ونحن في المدرج إنه من

مواليد بيروت، حيث كان والده يعمل دبلوماسياً للمغرب، وأمه دمشقية، وانتقلت عائلة الدبلوماسي مع انتقال وظيفته إلى لندن، فدرس راضب هناك . بالطبع لم تسأله عن سبب مجيئه للدراسة في الإسكندرية. قد يكون لأسباب استقلالية قصدها أبواه لتعزيز اعتماداه على النفس، وقد يكون الولد مطروداً من جامعة الإنجليزية. وقد يكون دخوله إحدى الجامعات البريطانية متعذراً من أصله، لسبب أو لآخر! كل الذي تعرفه أن شعره الأسود الحريري الطويل المتهدل على خديه، يغطي أسفل رقبته، وذؤابتيه الطويلتين، تغطيان أذنيه، وتصلان إلى رقبته، بعكس زميله سرحان، الذي تلاحظ أن شعره يغطي أذنيه فقط، وذؤابتيه مقصوصتين عند نهاية ذقنه .

تجلس وتفتح الكتاب، فيقول لك الشريفي: "هل سمعت آخر نكتة؟"

أنت تحب النكت، فهي تُخرج المكتئب من عزلته، وتجعله يضحك، حسب نظرية "ارسم ابتسامة على وجهك، تدخل الابتسامة إلى قلبك". وبصفتك مُعقداً بالتاريخ والجغرافيا، تقول له: "هات ما عندك". فيقول ضاحكاً: "في برميل يقول لبرميل: محدش بيشفك ليه؟ فيقول له البرميل الثاني: هوَ حد فاضي!" تضحك معاً، فيتبرع سرحان بنكتة أخرى: "اثنين محكوم عليهم بالإعدام، واحد رخم، والثاني بارد. سألو الرخم: نفسك في إيه؟ قال لهم: عايز اشوف أمي. سألو البارد: نفسك في إيه؟ قال لهم: نفسي ده

مايشوفش أمه! "نضحك على هذه النكتة السخيفة، فيريد عليه راغب بنكتة ثالثة: "واحد غبي في الجيش، القائد أداله أغلى قنبلة في العالم، وقال له ارميها على الأعداء من فوق الجبل اللى بين الجيشين، قام الرجل طلع على الجبل، ولأول مرة فكر، وقال: القنبلة دي غالية قوي، طب ما بلدنا أولى بيها. وقام رماها على جيشه! "لا تضحك على تلك النكتة، لأنها قديمة وبايخة، وتقول لهما: "هل هذا هو وقت نكت يا جماعة؟"

وبينما هما يتضحكان، يرن جرس الباب، فيقوم سرحان، ويفتح الباب. تننبيه إلى الداخله، وإذا بها امرأة في العشرينات من عمرها! "الحمد لله أن امرأة قد دخلت البيت، كي يخجل منها هذان الخنفسان، وتتوقف هذه النكات السخيفة. "تقول ذلك في نفسك: "خاصة في ليلة امتحان نهائي، إذا سقطت فيه يا ولد، رحت في داهية لا وأنت لا تتحمل سقوطاً!"

بصراحة، كانت أنوثة المرأة ملفتة للنظر، وجسدها البض ممتلئاً، ووجهها - ما شاء الله - يشبه البدر في لحظة بزوغه! ونظرات عينيها بريئتين، وشعرها منسدل على ظهرها، وثوبها يكشف عن ركبتيها. "من تكون هذه المرأة؟" تسأل راغب، الذي يجيبك باسمًا: "هذه زوجة أحد الأصدقاء، واسمها عفاف."

"زوجة أحد الأصدقاء! ولماذا تزوركم زوجة الأصدقاء

وحدها؟" فيحك رقبتَه باستهبال، وهو يقول: "مجرد زيارة ودية." تقعد المرأة على الأريكة بين راغب وسرحان، مقابلة لك، ثم تضع ساقاً فوق ساق، فتكشف عن فخذين مغريتين، لا بل شهيتين، تثيرك أنوثتهما، وكأنها تجلس في حضنك. فيقول لها راغب: "القميص معلق خلف الباب." تقوم المستورة، وتتناول قميص نوم نسائي شفاف، معلق على مشجب خلف باب غرفة الجلوس. شيء غريب! ترى لمن يكون هذا القميص النسائي الشفاف، والذي يقف بشكل دائم، مُعلقاً بالانتظار، خلف باب غرفة جلوس شابن أعزبين، طالبين في جامعة محترمة؟

تخرج الأنثى من الغرفة، قد يكون إلى الحمام، ثم تعود وقد استبدلت ملابسها الرسمية، ثم تقعد بينهما بقميص النوم القصير الشفاف، الذي يبت عليك دفء لحم جسدها الفاتر. إنسانة بريئة وجميلة، وأنت لم تقعد من قبل مقابلاً لامرأة من هذا النوع، ولكنك تنبهر بجمال أنوثتها! تُخرج الصبية مشطها من حقيبتها الجلدية البنية العريضة، وتحدث ببراءة وهي تمشط شعرها: "أختي محاسن عزمتني أمس على ملوخية بالأرانب. طعمها يجتن!" تصمت ثم تتابع قولها: "أمي تعبانة جداً." لم يجيبها أو يستفسر أحد من المسطولين الجالسين إلى جوارها، ذات اليمين وذات اليسار عن صحة أمها، أو حتى ينفضل بالخبر! الوحيد الذي يتأثر لمرض أمها هو الساذج أنت.

" مش عارفة حنعملو إيه مع البنك اللي رهن شقة بابا".
تتابع الجميلة تقريرها: " بعث له امبارح تهديداً بالبيع
بالمزاد العلني! زادت عليه المصاريف يا حبة عيني! وهو
متحال عالمعاش، وصحته في النازل! يرتب راضب شعره
بيديه، بينما سرحان يتفرج على مجلة الخنافس، دون أن
يتعاطف مع زوجة الصديق هذه، أو يناقشها أحدهم في الأمر
ولو بكلمة واحدة!

" ممكن يبيعوها! " تتابع المرأة المحزونة " وحتى لو.. فيا
دوب تسدد الديون التي علينا! وبابا النهارده بيدور على
شقة بعيدة ورخيصة في منطقة باكوس الشعبية، عشان
يستأجرها قبل ما يبيع شقتنا. وعشان كده مقدرش يحضر
العزومة. " تخرج براغب بعيداً عن المرأة المكلومة، وتسأله:
" ما هذه المرأة؟ فيجيبك ضاحكاً: " هذه! قلت لك، هذه
عفا! "

" أنا لا أفهم في هذه الـ... قل لي ما الموضوع؟ " فيجيبك
مبتسماً: " هذه المرأة بصراحة، صاحبتنا! إذا أردت النوم
معها، (بليز!) تفضل! "

" أفضّل! وهل هي دعوة للعشاء، كي تدعوني بكلمة
تفضل؟ "

" يا أخي أقول لك تفضل، يعني تفضل، وأنا أعني ما
أقول. (أي مين إنا!) " فتقول له حازماً: " ولكنني لا أتعامل مع
نساء من هذا النوع! " فيضحك الولد ويسألك مستغرباً:

" تقصد أنك لم تنم مع هكذا نساء؟ أم إنك لم تنم مع امرأة قط؟ فتجيب مرتبكاً: " أنا لم أنم مع هكذا ولا مع قط..! " يضحك الخنفس بصوت عالٍ، ويأتي سرحان على الصوت، فيقول له راضب: " تصور أن أخانا مشهور ما يزال بكراً، ولم ينم من قبل مع امرأة! " فيدهش سرحان ويضحك كثيراً وهو يقول: " معقول؟ سألتك بالله ما تزال بكراً؟ "

" كيف تسألني بالله يا رجل؟ ألا تخاف الله، كي تستحلفني به في مثل هذه الأمور؟ ". فيضحك الخنفسان معاً " نحن نعزمك عليها احتراماً لكونك ضيفاً " يقول لك سرحان " ولأنك تجشمت عناء القدوم بكتابك الاشتراكي، فنريد أن نعلمك الاشتراكية في صديقتنا عفاف هذه! " ويؤيده راضب قائلاً: " أنت تكرمت علينا بتصفح كتابك، ونحن نتكرم عليك بتصفح جسد هذه الحسنة. ما رأيك؟ " أنت لا ترغب في فضح نفسك، والظهور بمظهر المتخلف الغبي في سوق الخنافس إلى هذا الحد، فتقول لهما: " حسنٌ، فليبدأ واحد منكما، وأنا سأكون الثاني. " تدخل المرأة مع سرحان، ويفلقان الباب خلفهما. تجلس أنت وحدك في الصالة، بينما يذهب راضب إلى المطبخ، كي يحضر بعض الطعام والشاي، فتسمع تأوهات وهزات سرير، وصوتها المثير يستتفر كل جوش جسديك المكبل بقيود جدتك الحديدية أنيسة، وتعليمات أبيك الصارمة، ومأمة أمك خلفه، والتي لم تكن تملك ضمير حمل أختام " الملك "، وتصديق كل المعاملات

الصادرة باسمه! تفكر في امتحان الغد الذي يربكك، فلا ترى غيره. لا بد من النجاح في الامتحان. فالثلاثون جنيهاً التي يرسلها لك أخوك هائب، ستتوقف إلى غير رجعة، إذا ما عرف أنك قد سقطت في إحدى السنوات. ذلك لأن راتبه لا يزيد على ضعف هذا المبلغ المرسل إليك، وأنت لا تعرف كيف يتعذب هائب وهو يغالب الحياة ليخلق القرش، ويسحبه من بين أسنان سمك القرش، كي يصرف على نفسه، وعلى أهله في المخيم، وكي يوفر لمستقبل مشرق عزيز، ويتزوج وينضق على أسرة مُحطمة! ظفرك صعب يا مشهور وأنت توقف حالك في هذه الليلة الدراسية المقتدلة! هل كان لزاماً عليك أن تكون وفياً وخدمياً لهذين الخنفسين الفاقدين للعالم والآخر، كي تقرأ معهما مادة الاشتراكية؟ وحتى لو درسها معك، فهل سيفهمان الاشتراكية والعنصرية؟

لا تطول غيبتهما وأنت تأكل أصابعك ندماً. تخرج الأنثى من الغرفة بشعر منكوش، ووجنتين حمراوين، ونظرات مرتبكة، وهي متجهة إلى الحمام مباشرة. إنها ترخص وتتضاءل الآن في نظرك، وتتبدد هيبتها وهي تمضي، وكأنها تمثال فينوس الجميلة وقد تهشم، وديست أشلاؤه تحت الأقدام. يأتي سرحان، فيجلس إلى جوارك وهو يبتسم ببلاهة، ثم يقوم باتجاه المطبخ. وبعد دقائق، تعود عفاف من الحمام، وقد غسلت حوضها، فتبلل قميص نومها الشفاف الذي يكشف سترها، ويبرز كونها دون سروال داخلي يستر

عريها، الذي فضحه ماء الغسيل. تقعد أمامك على المقعد
الثلاثي، وأنت تراقب هذه البانوراما المثيرة يبدو أنها تقصد
أو تتجاهل تجفيف بقايا ماء الغسيل، فيضض قميصها
الشفاف كل شيء في بقعة حوضها. وعيناك المبحلتان في بث
مباشر قريب، أحد من عيني صقر مرفوع عنه اللجام، يتحفظ
أمام لحم عصفور متوف! تأخذ اللبوة بتنعيم أظافرها بمبرد
رقيق، وتتحدث معك ببساطة، وكأن شيئاً لم يكن: "اسمك
إيه؟ فتجيب برطانة المندهن: "مشهور."

"بتدرس إيه يا مشهور؟" تدلّك في الحديث، وكأنك طفل
أمامها، فتجيبها وما زلت تتفحصها بنظراتك، كمن يتفحص
بيديه الشمس اللاهية، "هندسة."

"في نفس السنة مع سرحان وراغب؟" تسألك وقد وضعت
مبردها فوق حقيبتها وحدقت في عينيّك. فتجيبها: "تلك هي
المشكلة!" تفهم أنك تسخر من الخنفسين، فتتابع أسئلتها،
وتعود لمبرد أظافرها: "من أين أنت يا مشهور؟" فتجيبها
باقتضاب "من فلسطين."

"فين فلسطين دي؟ إنتو طلبة شرقيين، ولا مغاربة؟ يعني
من الشرق، ولا من الغرب؟"

"صديقني أنني لم أعد أميز الشرق من الغرب!"

أنت متوتر ومستنفر، وهي تسألك، وأنت تجيب، وكأنك في
(كركون) معتقل شرطة تحت التحقيق. لست مرتاحاً

لوجودها أو متعاطفاً معها، ولكنك بصراحة مستثار جنسياً،
 لدرجة أن الذبابة لو وقفت على أنفك، وكان معك مسدس،
 فستطلق النار! ولكن مسدسك ملجوم بحزام العضة، وجذبتك
 أنيسة تقف على بابك، وتعد عليك أنفاسك، وهي تسند خدها
 العجوز بيدها اليمنى، لتري كيف ستتصرف في هذا الموقف
 الجديد عليك! أفكارك ملوثة، وكأنك الآن تسبح مع أطفال
 فلاحين في مياه ترعة المحمودية، بما فيها من بيسوض
 البلهارسيا المرعبة!

الأثنى تتحدث معك، وأنت منشغل عنها بها. عيناك مثل
 فتحتي عدسة كاميرا فيديو، تحاولان التقاط الصوت
 والصورة. وفي نفس الوقت تفكر مفقوعاً بحديثها، هل من
 المعقول أن يكون لهذه المرأة... أب وأم وأخ وأخت، يأكلون
 ملوخية بالأرانب مثل الناس؟ كان عندنا بيت طيني خاص
 للأرانب، وكان أبي يفصل الذكور عن الإناث، ولا يسمح
 لأحدهم بالاقتراب من الحريم، إلا حسب الأصول! وهنا يتم
 خلط الأرانب دون أصول! هل معقول أن هؤلاء النساء...
 ساذجات وبسيطات إلى هذا الحد؟ لا ترى شروراً في وجه
 هذه المرأة وأبوها سيبيع شقته، وأمها - المسكينة - مريضة،
 وهي متعاطفة مع أمها، وفيها إنسانية ورحمة! ولكن كيف،
 وماذا، ومتى، وأين، إن شاء الله، وهكذا، لعل، وعسى، في، الباء،
 الكاف، اللام. ضاعت الطاسة! لم تعد تفهم شيئاً!

يعود سرحان وراغب بطبق الطعام. غسل وبيض وبسطرمة

(والذي منه..) تعال كل يا جدد. يجلسون فيبدؤون الأكل.
 العاهرة تسمي، بسم الله الرحمن الرحيم! لست تنتظر إلى
 الطعام، بل تراقب شفيتها وهي تنطق باسم الله! معنى ذلك
 أنها مؤمنة، وتخاف الله! فهي ليست من جماعة الشيطان
 الرجيم! ولا يحق حرقها بكازا! ولكن أنت مال أهلك؟ هي في
 طريق، وأنت في طريق!

"يا الله يا عم!" يقول لك راضب، وهو يمزغ النقانق
 الملفوف بالخبز، "روح مع المدام". فتجيبه مرتبكاً، "أذهب
 أنت قبلي، وسأكون أنا آخركم". يدخل راضب معها، ويخرج
 سرعان إلى شقة الجيران مستأذناً منك، ليتصل بأحدهم
 بالهاتف. يقول إن هاتفيهم قد تعطل الآن. بينما تبقى أنت..!
 ومخك يهدير هديرًا "هل هذا ما يفعله راضب في ليلة
 الامتحان؟ في ليلة الامتحان، يكرم المرء أو يهان! فكيف
 تتصرف أنت، ما دمت (ثالثهم...)?

وبجراحة لم تعهدها فيك، تحمل كتابك بيمينك، وتخرج من
 الشقة هارباً بسرعة. تضغط على زر باب المصعد، فيشير إلى
 وجوده في الطابق الأرضي. الحقير يحتاج إلى وقت طويل كي
 يصل إلى الطابق الثالث عشر! قد يضبطك أحدهما وأنت
 بانتظار الهروب الكبير! وبسرعة قحط منطلق، تهرول نازلاً
 على الدرج.. الطابق الثاني عشر.. العاشر، التاسع، الثاني،
 الأرضي! وهناك تقفز باتجاه سيارة أجرة صفراء واقفة
 بمحاذاة الرصيف، وبلهفة المُرَبِّك تطلب منه أن يطلع، من

رشدي، إلى كليوباترا! الساعة الآن هي العاشرة والنصف مساءً، ومحمد محمد محمد قاعد يدرس لامتحان الغد. يراك تلهث! يقلق عليك. "ما لك تلهث يا مشهور؟" يسألك ملهوفاً، فتتنهّد قائلاً: "لا شيء!" فيزداد قلقه: "قل لي، هل حدث لك مكروه؟" فتطمئننه بقطع لهاك: "لا، أبداً!"

"أقلققتني عليك يا رجل! أرجوك قل لي! يجب أن تطمئني عليك!" ليس بيدك خيار. تشرح له القضية. موجز ما حصل. فيندهش محمد محمد قائلاً: "هل أنت مجنون؟" يشعر بغباتك وهو يسألك: "كيف تذهب يا أخي في ليلة الامتحان إلى طلبة تافهين كهؤلاء؟ هل تنسى أن غداً هو امتحان نهائي؟" وما هي سوى دقائق، إلا وجرس الهاتف يرن، فتطلب منه أن يرد على المتصل: "إذا كان الهاتف لي، قل لهم إنني قد نمت، كي لا يزعمونا بهاتف أخيراً! ولا تُكذّب خبراً، فتنام فعلاً لتريح أعصابك من ملاعب علي الزبيق، وهذه العفاف...! وبعد ساعات من النوم، تقوم في الثانية صباحاً، وتأخذ بقضم أوراق كتاب الاشتراكية، فما أن يطل نور الصباح، إلا وأنت على وشك تشطيب الكتاب، وقبل أن تخرج إلى الكلية، تعيد قراءة ما تحته خط عدة مرات، فتحفظه عن ظهر قلب. وفي قاعة الامتحان، تقدم إجابات صحيحة، فتتجج فيه، وأما علامات سرحان وراغب هـ...!"

يختلط عليك حمامك البخاري في هذا الفندق الزجاجي

المعلق في السماء، بذكريات سرحان وراغب وعضاف، فتجفف
جسدك بمنشفة بيضاء ذات نعومة قطنية فائقة، وأنت مضجع
بيخار جو الحمام، تمسح الغياش عن المرأة الواسعة، لترى
وجهك فيها، ثم تحلق ذقنك بعد أن سخنت وطريت شعيراتها
البيضاء، وتخرج لتنام القيلولة بعد متاعب السفر.

أُنثى مهیضة الجناح .

تتحسن صحتك قليلاً بعد هذا الحمام البخاري الرجراج ،
الذي يهزهز ويدلك خلايا جسدك العجوز بالبخار المضغوط ،
وتسترخي لنوم القيلولة، فتأخذك الإسكندرية إلى صباك،
والى أم عربي التي هي أمٌ ومعلمة ومُدبِّرة، ولكنها تبدو
قاسية في هذه الليلة، إذ يعلو صراخ وعويل، يتلوه تكسير
أشياء صلبة. قدور معدنية تتدحرج. أصوات مزعجة في
الطوابق العليا للعمارة. تنتبه إلى الصراخ والعويل الذي
يدفع فضولك إلى باب الشقة تجدك تبحث بأنف ضابط
الشرطة السوري (أبو كلبشة) حيث تُقذف امرأة على سلم
العمارة، فتقف مترنحة على أبواب جيرانها، تطرقها بيتاً
بيتاً، فترتد خائبة من كل باب، ثم تمشي كسيضة حائرة،
حتى تصل إلى الطابق الأول عند باب أم عربي، التي
تتوقعها أن تكون مُجيرة لجارتها، فكلمة الجار من الجيرة،
وحق الجار على الجار، ولو جاراً تقصف الحسنة ببابنا،
والساعة تشير إلى الثانية عشرة ليلاً، ودموع المرأة تسح من
عينيهما مدراة بلا نحيب، تسأل أم عربي، فتبلغك
أنها جارتنا الساكنة في الطابق الرابع من العمارة. تبدو
المرأة عشرينية العمر، غنية بكنوز أنوثتها، ذليسة

دون عويل، مهدودة الضؤاد، مهدورة الجسد وكأنها وشاح
أندلسي مُتلف! تشرح قصتها لأم عربي بكلمتين، ثم ترجوها
أن تنام عندها هذه الليلة، حيث لا أهل لها في اسكندرية،
فهي من أحد أحياء القاهرة، وقد حلف عليها زوجها بالطلاق
أنها لن تنام هذه الليلة في البيت، تأديباً لها... من المؤكد أن
الأنفوشية لن ترددها خائبة، وأن أمر إجارتها مُنته، وأن لا
بحث إلا بتفاصيل لؤم الرجل المجنون، الذي يدفعها في فم
الأمواج البحرية المتلاطمة! ولكنك تفاجأ بفرض أم عربي
استضافتها، وبعد توقف قصير أمام بابها، لعلّ وعسى قلبها
يرق، أو تُغيّر وجهة نظرها، أو تجد لها مخرجاً، ولكن..
فتضطر المسكينة أن تنزل إلى الشارع؛ طريق الجيش! ومن
يمر في طريق الجيش بعد منتصف الليل، إلا ..؟

تقف المأسورة كثيراً على رصيف شاطئ البحر، تدير
وجهها ذات اليمين عن هذا المتسكع، وذات اليسار عن ذاك
السكران، وإلى الخلف عن ذاك الفضولي، ثم إلى... إنها
تنش الذباب الكثيف عن وجهها، ذباب الخيل الشرس اللسع،
والمتعود على امتصاص الدماء من مؤخرات الخيول والحمير،
تراه الليلة يهاجم وجه هذه الغزالة الزهري الطاهر. يكبر
الذباب إلى أن يصير بحجم الدبور، ويتقوى بطاقة الصقر،
ثم يتضخم بحجم النسر الذي يحمل خروفاً بحاله، ويطير
بعيداً!

الأثنى المهيضة الجناح تقاوم، إلى أن تتجمد أعضاؤها

يبرد الريح البحرية الليلية، القادمة من بوابات جبال الألب
الثلجية، فتتسارع مقاومتها، وتتساقط على مقعد رصيف
الكورنيش المكسو بملح رذاذ البحر!



يتهالك قارب شاعر غريب، ظلت تصفحه أمواج البحر
المجنونة، وتتكررُ قردنته ولطمه لصخور الميناء، في ليلة
متمردة، حتى تحطمه شر تحطيم، فينكمش مثل أخطبوط
منتشر الأذرع يكررون ضربه بقوة على صخرة شاطئية، حتى
يستسلم للضربة القاضية، فيضعونه في سلة صيدهم
الأخطبوطية !



الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل. وبعد صبر وتمعن
في تفكير ذلك الزوج النذل، فقد يصحو من سُكره، وقد ينبت
له ضمير جديد، وقد يعدل عن جنونه، وقد يأتي مستدركاً
غلطته، فيعيدها إلى بيتها، ويستغفر ربه، ولكن..

سيارات تأتي، وسيارات تغدو منطلقة، وسيارات تقف إلى
جوارها، ثم تزق عجلاتها هاركة إسفلت الطريق بعد أن
تتجاهلها السيدة. كانت سيدة، ولكنها لم تعد سيدة! فهي لا
تملك من أمرها شيئاً لتكون سيدة!

تصبر المستضعفة حتى تكسر بزوجها وبحياتها كلها. وفي الثالثة بعد منتصف الليل، تبدأ اليأسه بفقد الخجل، وتنسى مواصفات الأنوثة، وتتجاهل معنى الشرف، وتكسر حواجز العادات والتقاليد، وتكسر بالحلال، وتؤمن بالحرام لا ولم لا؟ فهي لم تجد في أي من هذه المفاهيم ما تصرفه بقرش! وفي النهاية تضطر لأن تقول (أحّة)، وستين أحّة، فتتهار الضحية، وتوافق على أن تركب بسيارة أي رجل! أي رجل!

ها هو المهلبي عائد من الملهى، فيتوقف بسيارته إلى جوارها، ويفتح لها الباب المجاور للرصيف، كي تركب. إنه خبير بالتقاط رزقه! يشم على قذى يده، ويعرف المرأة المهذور شرفها. إنه مثل سمك القرش، لا يهاجم قبل أن يتذوق رائحة الدم. ينتظر في عينيها البحريتين، فيراها سمكة مقذوفة على رمال الشاطئ. لا تنتظر البلطية التي طرحتها البحر دعوة، بل تتوكل على ألامها، وتقيم نفسها المخلة، وتتجه بمحض إرادتها، فتتهالك على المقعد المجاور للرجل ذي الشاربين المتضخمين كجناحي نسر جارح لا يتناولها النسر، ويطير بها!

وفي الطريق، يعرفها المهلبي على اسمه، ويحاول أن يمسح خدها الأيسر براحتة المشبعة بدخان الغليون، وكحولياته المدوخة! لا يراه أحد في هذا الليل البهيم وهو يأخذها إلى شقته، ويضيئها هناك أسلس ضيافة، ويقدم لها مشروبات مسكرة لا تعرف اسمها، وهو يقول لها: "هذه

شربات الفرح، مصنوعة خصيصاً كي تدفئ البردان، وتريح الأعصاب، وتنسي الهموم.^٦ فتسكبها المهدودة هكذا في جوفها بجرجرتين.^٧ وهذه الكأس القوية تنسيك أهلك.^٨ فتدلقها الداخلة في هوة عميقة!^٩ وهذه الثالثة المركزة تبدي عريك الجميل.^{١٠} فلا تتذكر أنها شربتها!

تسترخي المضضوحة، وتمتد فوق سريريه، وتسبح مثل حلاوة العيد على الفراش، فيأخذها المهلبى بين ذراعيه إلى الحمام الواسع، داخل غرفة نومه العزابية، ويخلع عنها سترها، ويحممها، ويليفها، ويعمل تدليكاً لكل زواياها، ثم يستقبل بدوره رشات حمام ساخن، ليزيل عنه برد الطريق، ورائحة الدخان، وعضونة الملهى، ثم يخرج بها ملفوفة بثوب الحمام القطني الذي يمتص رطوبة بحرهما، ثم يلقيها على سريريه، ويدفئ العارية في حضنه طوال الليل!

بعد شعوره بخطئه الشنيع، يبحث زوجها عنها، ويركض في الشوارع، في كل مكان، فلا يجدها. ولدى استفسارك عنها فيما بعد، تقول لك أم عربي: "المرأة لم تعد إلى بيتها، فعندما مر زوجها (الحلوف^{*}) يستفسر ويبحث عنها، اعترف لي وهو واقف على سلم العمارة بأنه أخطأ في حقها. فقلت له: أنت لا تستحق مثل هذه الجوهرة. كنت تضرها على الصغيرة والكبيرة، وهي تصبر وتصبر، حتى انكسر

^{*} الحلوف هو الخنزير.

صبرها. منك لله يا رجل! فانسحب الحلّوف وهو يجر أذيال الهزيمة على سلم العمارة.^٦

تضطر المحاصرة للبقاء خادمة في بيت أسرها الجديد، الذي صار يأخذها معه ليلاً إلى ملهى المهلبي. ومنذ ليلتها تكتشف أنه صاحب الملهى، فيضيّفها في الليلة الأولى، وفي الليلة الثانية يُعرّف عليها زميلاتها في المهنة، وبعد الليلة الثالثة - هي حق الضيفة على المضيف - يُعَمِّدها، ويُرسّخها ساقية وراقصة شرقية، ويُسرّحها بعد انتهاء الحفلات مع زبائنه المهمين، ويقبض من ورائها الشيء الفلاني!

ذلك ما قاله لك زميلك يوسف الإسماعلاوي، الذي يسكن تحتنا في شقة تحت أرضية من العمارة، والذي حصل على كل هذه المعلومات من صاحبتة، الفسالة أم قطومة، التي تدور البيوت، وتنقل الأخبار، كما تنقل الجراذين أمراض التيفوس بين الخلق! ولذلك فأنت تسأل أم عربي:

"لماذا لم تؤوي تلك المرأة المسكينة في ذلك الليل البهيم؟"
فترد عليك مُحَرّجة:

"إذا كنت أنا صاحبة الشقة، عندما أزوركم، أنا في المطبخ الذي مساحته شبر في شبر، فأين سأضع هذه الصبية؟ هل أتركها تنام في حضن واحد من الشباب الذين يسكنون شقتي، فتسوء سمعتي وسمعة الشقة، ثم تتدهور مصالحي؟ ثم إنني لو أجرّتها، فسوف أقع في مشاكل مع زوجها الحقيقي، الذي لا يفهم معنى حلف اليمين على امرأته في أنصاف

الليالي، والمثل يقول عندنا (اللي يحلف، يبقى حذوف) وهي
 غريبة بلاد عن أهلها، بينما هو أهلها، وهو سترها وغطاؤها،
 إذ ليس لديها أولاد حتى الآن كي تحتمي بهم، فهي ما تزال
 عروساً صبية لم تكمل السنة في بيته!

مطعم الدمنهوري.

يسيطر عليك القلق في محاولتك نوم القيلولة في فندق جوانج تشو هذا، فتجذب تفكر في فحوصات حفيدك كنهان متسائلاً: هل يسير برهان في اتجاه صحيح، وتنجح مختبراته الخضراء في نزع مخالب الإنسان؟ هل يمكن نزع الشر من بني آدم؟

تحاول نسيان ذلك، فتعود إلى صباحاتك الجامعية القديمة، إذ قبيل أن تسذهب إلى الكلية، تدخل مطعم الدمنهوري، الواقع على ناصية الشارع، فتفطر أولاً بخمسة قروش، وتشرب كأساً كبيرة من الشاي الحبر بقرش، وتضيف تعريضة على الحساب، إكرامية للحاجة عليّة، ثم تتوقف عن دفع الإكرامية، بعد أن تفهم أنها صاحبة المطعم، بصفتها زوجة الحاج خليل الدمنهوري. وفي طريقك تتجه إلى محل عصير قصب كليوبترا في الدوّار، فتشرب الكأس العملاقة بقرش صاغ، ثم تصل إلى محطة كليوبترا، فيُقلّك الترام إلى محطة الجامعة، لتسير منها إلى كلية الهندسة، فتلتقي مع زملائك في المدرج رقم واحد، الذي يتسع لأكثر من ألف طالب وطالبة!

وفي المساء تعود إلى مطعم الدمنهوري، فيستقبلك الحاج خليل بخصوصية دافئة: "ماذا تريد العشاء: جبنة؟ بسطرمة وببيض؟ سحبق؟ باذنجان مقلّي؟" وأما الفول والطعمية والشاي يا حبيبي، فلا يتوقف تقديمهم صباحاً، ولا ظهراً، ولا مساءً! أثناء العشاء، تتسلل إلى أنفك روائح عطور رخيصة، تنتبه إلى أنها قادمة من امرأتين أو ثلاث نساء في الثلاثينات من العمر، يترددن كثيراً على هذا المطعم، ويجلسن مع رجل مرافق لهن حول طاولة مستديرة صغيرة، تقبع في زاوية قريبة. ذلك لأن مساحة هذا المطعم لا تزيد على شبرين ونصف. تشاهد النساء يتضاكن بصفاقة مع الرجل الذي يبدو أنه بساق واحدة، تتأكد من ذلك عندما يقوم مع إحداهن، وهو يتكئ على عكازه الأيمن، المغلضة من قاعها بطبعة بلاستيكية سوداء، ويتجهان إلى الخارج وهما يتمتعان، بينما هي تمصص شفثيها، وتلوح بطرف ملايتها السوداء، المتهدلة مثل جناحين يرتحيان على جانبي ثوب مزركش قصير، لا يكاد يغطي نصف فخذيها المدورتين. تراقب منظر إبطيها العاريتين المتوهفتي الشعر، بينما هي تؤشر بيديها يميناً ويساراً، وتتفاهم مع صاحب العكاز الذي يرتدي معطفاً رمادياً، فوق ثوب عربي مخطط طويل، وفردة حذاء أسود في الرجل اليسرى. يبدو أن لباسه هذا مصمم ليغطي ساقه المقطوعة. تشاهد إحدى الجالستين وهي تقول له: "يا الله يا حبيبي، إحنا حنستنوكوا لغاية ما ترجعوا بالسلامة!"

والأخرى تؤكد له: (إذا ما لقيتونا هنا، استئذنا لغاية ما نرجعوا، إحنا حنروحو الليلة معاك لهنّاك.) أين هنا وهناك؟ هأنّت لا تعرف!

وفي الصباح التالي، وأنّت تتناول طعام الإفطار، تسأل الحاجة عليّة، التي تعمل على الأقل في الفترة الصباحية، وتقوم بإعداد الفول وباقي الأطعمة، وتقديمها للزبائن، بينما يأتي الحاج خليل في أكثر الحالات في الفترة المسائية، ويتأخر حتى بعد منتصف الليل: "من هن هؤلاء النساء اللواتي يحلن في زاوية المطعم كل ليلة، ويتضاكن مع ذلك الرجل...؟" تستحي أن تقول صفة إعاقتها، ذلك لأنه (لا شماتة في معاق) فتحن نقول عن الأعور! عينه كريمة، وعن الأعمى: بصيراً...

"هه هه هه!" تجيب الحاجة ضاحكة: "دا حسن، ومعها بنات! يعني!" لا تفهم معنى كلمة يعني! فتسألها بسداجة مغفل: "يعني ماذا يا حاجة؟"

"يعني شوية بنات حلوين، وبيسرّحهم." تقول ذلك وهي تفرم البصل، وتضعه في مقلّي الزيت، فتتصاعد أبخرته المشعوبة بروائح يشمها كل رواد المطعم الصغير.. تنقبض لتحدّث نفسك: "هل معقول أن يكون رجل بهذه المواصفات، ويقوم بمثل هذه الأعمال؟ يسرّحهن!" أنّت تمقت هذه النساء "وهل هن نعاك كي يسرح بهن؟ وحتى النعاك فهي تسرح في الخلاء، وتأكل العشب الطاهر! فكيف

يُسْرَحْن هذا الرجل ... (هذه المرأة، تقولها بلا حرج.) وأين يسرحهن؟ معناه أن هذا الأعرج هو قواد كبير، والنساء الثلاث من إياهن؟ هل يُعقل أن يكون هذا المطعم وكراً للدعارة؟ وإذا كان كذلك، فلماذا يقدمون الإفطار والعشاء، ولا يعلنونه مقرّاً مفتوحاً للمومسات؟ أسئلة كثيرة تتجمع كالفيوم التي تمطر أحماضاً فوق رأسك. وهنا تتشجع فتقول للحاجة عليّة: "وكيف تأوين في مطعمك نساءً ساقطات من هذا النوع، وأنت تعرفين طريقتهن، وأنت حاجة، وتخافين الله؟"

"هه هه هه" تضحك الحاجة وهي تضع على طاولتك الصغيرة صحن الفول بزيت القطن، وإلى جواره صحن صغير فيه نصف ليمونة بنزهير، وربع بصلصة صغيرة، وثلاث قطع مخلل لفت وخيار وفضل قاذلة: "لا ذا أنا حاجة سيور" تصمت، فهذا لا يهد حالك، ولكن الذي سيصدمك صدمة كبيرة، هو رؤية هذا الحسن الأعرج. يوم الجمعة الذي سيتلو هذا الحوار.. فما أنت تجلس في الصف الثاني بين المصلين في مسجد سيدي جابر الأنصاري، مستمعاً إلى خطبة إمام المسجد، والإمام يصرخ وهو يقول: "فمن زُحزح عن النار، فقد فاز...." واذا تفاعلاً يا حبيبي بمشاهدة حسن الأعرج يجلس في الصف الأول بين المصلين، ماذا عصاه أمام إمامه، فتشهد عليه يوم القيامة! الله أكبر! كيف يدخل هذا ... بيوت الله؟ شيء غريب! وماذا يقول هذا الحسن لنفسه

الثائمات! صحيح أن أولئك كن حفايا عرايا، وهذه مغطاة،
ومكشوف عنها الحجاب جزئياً. ولكن هذه النادية في نظرك
أشد إشارة من جميلات الثائمات!

ماذا تفعل أيها المراهق الجاهل المفرور، الساكن مع أهل
هذا البيت، أمام هذا المشهد؟ صحيح أنك تسمنى الاقتراب
منها، والذويان في ثناياها، ولا شك أنك تشتهيها، وإلى جوار
مفسلة الحمام كانت قد أذارتك رائحة كلسونها المستعمل،
عندما تناولته بيديك، وتأملته ملياً، ثم شمته، فعرفت أنه..
وفيك طاقة جنسية بكر، تهد الحيطان. فهل تقترب منها،
وتقبّل خديها الممتلئين نضارة وطراوة، أم تشم رائحة عنقها
العطر الغض البض، أم تقبّل شفثيها الكستنائيّتين الناهرتين،
المتأججتين بلون بتلات الوردة النارية، أم تمد يدك إلى دفاء
صدرها الناهد بطراوة ونضارة الزبدة الشهية، والذي يحيرك
وهو يخبىء حلمتين داخل حمالتين من الحرير الرقيق،
فيسيل لعاب جوعك الجنسي الفائر، فتحاول أن تلجمه أمام
الصبية المسترخية فوق السرير! هل تكشف ما تبقى من
سترها، وتنسل فتنام إلى جوارها، ثم تطوق خصرها
وتتحسس بطنها وما...؟ ثم ماذا ستكون نتيجة هذا...؟ هل
ستصحو الجميلة وتجمع عليك الدنيا، مدعية بأنك هتكت
عرض المحصنات الغافلات، فتدخل في معارك الشرف
والاغتصاب، وتقعّد في (تخشيب الكركون) ملوماً محسوراً بين

المساجين، ثم ثُطِرَد من الجامعة، وتعود إلى أهلك، كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب، على رأي المنفلوطي؟ أم ستغرق في حبها، كما غرق أنطونيوس في حب كليوبترا، فاضاع نفسه، وأضاع الوليّة الإمبراطورة، وقضى على تالي أهلها، وجعلها آخر الفراعنة؟ وهل ستُضَيّع إمبراطوريتك الدراسية، وتحرق كتبك، كما حرق قيصر كتب مكتبة الإسكندرية وهو يصارع أنطونيوس وكليوبترا، فتسجج في حبها، وتسقط في امتحانات الكلية، ثم تسقطان معاً في الخيبة والفشل؟ لا بد من حنكة التصرف لمواجهة هذا الموقف!

وعندما زرتهم مودّعاً، بعد تخرجك من الجامعة، وبعد أربع سنوات من غيابك عنهم، كانت ما تزال منقبضة تجاهك، فصرحت لك باستغرابها الشديد لتصرفك معها يوم نامت في غرفتك. وقالت لك ساخرة، وكأنها تنأر منك: " لقد كنت مثل القطعة المغضّة. وكنت قاسياً بلا قلب، حينما قلت لي وأنا أقوم من الفراش، متثابّة من على سريرك: من الذي سمح لك أن تنامي في غرفتي؟ هذه الغرفة استأجرتها بنقودي، فإذا نمت هنا مرة أخرى، وشاهدتك على هذا الحال، فسوف أرميك من الشباك! " تقصص صامتاً مخزياً أمامها، فأنت لم تنس ذلك الموقف أبداً، وما زلت تعيش كل حركة، أو همسة تنفّست بها فادية، وتذكر تلك اللحظات

الدراما تيكية المتوترة، إذ كانت أم عربي تقف بباب المطبخ،
تنظر إليك، وتستغرب ذلك الغباء في التصرف مع فتاة رقيقة
برينة زائرة، فكّرت أن تسترخي في غرفتك لبعض الوقت!

وسرح خيالك يتذكر أيامك في كلية الهندسة. الطالبة
الوحيدة في كلية الهندسة، التي كانت تلبس تنورة طويلة
جداً، كان اسمها كهاني الكفراوي. واسمها مشهور ليس لسبب،
سوى أنها هي الوحيدة بين الطالبات، ذات الملابس الطويلة
التي تغطي الرسغين، وتصل إلى ما تحت الركبتين بشبر واحد
تقريباً. وأما باقي البنات، فيلبسن تنورات (الميني جيب)، إذ
يتراوح طول التنورة كلها من شبر إلى شبرين فقط، وقد
تغطي أو لا تغطي الأفخاذ التي تتحرك في ساحات الكلية،
مرربة نحيلة طويلة قصيرة سمراء شقراء سوداء حنطية
بيضاء.. وبعضها قد لا تغطي شيئاً، خاصة عندما تجلس
الطالبة في مقصف الكلية، أو في مكان يضطرها لوضع ساق
هوق ساق!

وعلى سيرة (الميني جيب) كنا ذات مرة أنا ومحمد محمد
نصعد سلم عمارة، لزيارة أحد معارفه المتصوريين الذي كان
يسكن في الطابق الرابع بينما فتاة تنزل من الطابق
العلوي، فنشاهد ونحن ننظر من أسفل السلم إلى علّ لونا
أحمر رقيقاً تحت تنورتها الزرقاء القصيرة جداً. نلتقي نحن
الصاعدين، وهي النازلة، فيقول لها محمد بوقاحة: "لا
تخافي، فنحن لم نشاهد شيئاً!" فنفاجأ برد الصبية البرينة

المظهر، وهي تقف إلى جوارنا على السلم، وتصرخ بصوت متوتر، وعيناها مفتوحتان على الآخر: "ليه، عاوزين تشوفوا؟" فنخاف من (فضيحة بجلاجل)، ونسرع في الصعود، وأنت تقول له: "لعنة الله عليك! كنت سترميننا في داهية!" فيقول لك خائفاً: "لم أكن أتوقع أن (البت) عيناها بيضاء لهذه الدرجة!"

الطالبة تهاني الكفراوي تتعرض كل يوم لكثير من السخريات والتعليقات المخرجة من قبل زملائها الطلبة، خاصة الذين لا يعرفونها، والذين لا يستحون من المواجهة، فما أن تدخل المسكينة إلى حرم الكلية، حتى يفاجنها أحد الفاقدين قانلاً وهو يمضي بسرعة: "إيه يا جميل؟ بردان النهارده؟" وفي ساحة الكلية، حيث تمشي وحدها برومانسية حاملة فوق مسطحات النجيل، فتشاهد أحواض الزهور المنسقة بأشكال هندسية، فيواجهها ..! من الذي يواجهها؟ نسيتَ عمن تتكلم! يبدو أنك صرت تُخزف! الكبير أضاع ذاكرتك! ماذا كنت تقول؟ أه، تهاني الكفراوي.. يواجهها طالب قليل الأدب معاكساً بقوله: "هَمَّ بيلبسوا بطانيات ليه؟" ويعلق زميله: "دول بيكتموا الحر." ويقول ثالث: "أي نعم الجونلة صوف، بس صوف صيفي مقتخر!" ويقول سابع: "دي لبخة في عز الصيف، تدفي الصدر!" ويعلق عاشق: "أكيد إنها أخدة الستائر بتاعتهم، وعاملاها جونلة."

تدخل تهاني الكفراوي إلى المقصف، فيشاهد طالب

مشاغب ملابسها، ويقول لها، وهو خارج، "ليه؟ هم بيوزعوا
 هدوم ببلاش؟" فيجيب زميله: "دي لابسة فستان امها
 الفلاحة" ويتساءل طالب اسكندراني فاقداً: "هي كلية
 هندسة، ولا عزبة فلاحين؟" تتعقد الطالبة الحبيبة كهاني
 وفي السنة الثانية نفتقدها، إذ تغادر الكلية التي غدرت بها،
 وتترك الدراسة وما يدرسون ! ويقال إن والدها كان قد
 أجبرها على ارتداء الثوب الطويل، وهي مخنوقة في مثلث
 الرعب ما بين ضغط ولي الأمر. وضغط طلاب الكلية، وضغط
 أحاسيسها الذاتية ! وفي النهاية، تنهار مقاومتها، وتضطر
 للعودة إلى البيت، ويكون مآلها الزواج من ابن الحلال (اللي
 يلّمها ويشكّمها!) تحزن على كهاني الكفراوي التي تدفع لمن..
 لمن ماذا؟ لقد راحت المسكينة بلا لمن !

وعلى الطريق العريض المؤدي إلى قاعة الرسم، يقول لك
 محمد محمد تعليقاً على انهيار حضريات الكلية التي ما تزال
 حديث الطلاب والطالبات : " إذا أنتشل من هذه الحضرة
 ثمانية قتلى تحت الردم، فكم ألف قتيل اختفى تحت أنقاض
 قناة السويس التي استولت عليها بريطانيا "العظمى"، دون
 تعب؟ وكم مليون قتيل راح ضحية أهرامات ومعابد ومدافن
 وتمائيل الفراعنة، كي يحققوا البقاء لنظام الفرعون؟"
 يتألم محمد محمد وهو يقول "هذا الشعب البسيط الطيب،
 يضحى، ليرسم ملامح حضارة عروبة مصر. لاحظ أنهم
 يحفرون الوطن بأرواحهم، ويكافحون ويموتون تحت ترابه !

تصور أنه كل يوم، يُستشهد لنا ثلثة من العمال في بناء السد العالي، وفي المصانع والمزارع، وفي مشاريع السويس، وفي تشييد مباني الجامعات والمعاهد والمستشفيات. نحن نبني الوطن يا مشهور! الدنيا قائمة قاعده، بينما أنا وأنت نضحك هنا وهناك! وليكن معلوماً لديك، أننا لن نستطيع أن نضحك ونفرح، لولا هؤلاء المضحّين بأرواحهم، كي تعيش مصر حرة عربية!"

يسمع محمد محمد خطاب عبد الناصر في عيد العمال، فينتفض كبرياءً وهو يقول: "عندما صار عبد الناصر رئيساً، طلب أبوه أن يبقى في وظيفته عاملاً في مصلحة بريد راس التين، ولم يتكبر على زملائه العمال البسطاء!" أين أنت يا محمد محمد محمد الذي كنت تقول: "يجب أن يكون لكل إنسان منا موقف؟" صار كل منا هذه الأيام يبحث عن مقعد!

فوضى حواسٍ اسكندرائية!

المشاة في طرقات اسكندرية منتصف القرن الواحد والعشرين ندره. لا تواجهك وأنت تطير فوق شوارعها سوى هذه العمارات الزجاجية المتصافحة مع بعضها البعض في عنان السماء، والتي تلمع جدرانها شبه الزجاجية في النهار وهي تمتص أشعة الشمس وتخزنها، وفي الليل تجسد هذه الجدران تعيد ما اختزنته من نور الشمس، فتضيء المدينة وتحول ليلاً إلى نهار، دون أن تكلف شركة الكهرباء شيئاً!

كان الناس أيام شبابك يتزاحمون هنا وهناك. والترام يُحذّر المشاة بالابتعاد عن خط سيره، مجلجلاً بجرسه، والجبابي (الكمسري) ينظر من الباب وهو يقول لامرأة متباطئة في الصعود: "تطلعي يا وليّة، ولاّ اصفرّ؟" وامرأة تغطي هيكلها الضئيل بملاية لف من فوق إلى تحت، تصطدم بالترام، فترتد إلى الخلف منثنية عن عجلاته الحديدية التي تقضم أصابع قدمها اليمنى وتأخذها معها، فتسقط الأصابع دامية بين قضيب السكة الحديد، ذلك لأن الوليّة تتفّاءل بدخولها السكّة برجلها اليمين، ويلتم خلق الله حولها مثلما (يلتمّ المتعوس على خايب الرجاء) والباح على الناصية

يحلف بأذك ستأخذ مشترياتك من الخضار والفواكه، حتى ولو لم يبق معك نقود. " بكرة يا راجل تجيب الفلوس، وعلى أقل من مهلك. " وفجأة يعلنون نبأ وفاة الطالب منذر الخراساني وصاحبته مكيّ مسلم، إذ وجدوهما قد ماتا اختناقاً بغاز منفلت من أنبوب سخان الماء، وهما يستحمان داخل بهانيو الحمام، والفنان الرسام سيف واثلي بشعره الخنفي الطويل يعلن عن افتتاح معرض الصيف في بينالي اسكندرية، ومحمد شبلي يبيع سميط وبيض وجبنة وسجائر كليوبترا، على رصيف ميناء اسكندرية، للكباتن الواقضين في السماء، على سطوح سفنهم التجارية العملاقة، فيُنزلون له السلّة بالحبل من السماء، وهو يضع الأغراض فيها ويقول لجورج في قمة جبل السفينة : "يا جورج شد الحبل.. يا جورج، شد الحبل! " ولا تقدم في العملية التجارية، فيتقدم منه زميله قائلاً: "أي هو جورج بيعرف عربي؟ إوعى كده"، ويصيح في جورج بالإنجليزية: "يا جورج، يو سبيك إنجلش؟" فيستأنس جورج بمن يتكلم بالإنجليزية، ويجيب: "يس، يس" فيقول له بالعربي: "طب ما دام بتعرف شد الحبل بقي!" وامرأة غبراء بثياب مهترئة تقعد على الأرض وهي تقحف بأسنانها نصف بطيخة يبدو أنها قالصة إذ تناولتها من جوار حاوية النفايات، وألبان الدفراوي على باب محطة ترام كليوبترا تُسحّن عسل نحل البحيرة وتُسِيلُه من علٍ مثل الزيت السائل، كي يسيل معه لعاب المازة، فلا يقاومون إغراء

شرائه. وفي المحل يقولون لك : "صباحك قشطة وحلاوة شعيرية (تستاهل بُقْكَ) ومساءك جبنة قريش ممشش وجبنة دمياطي وبسطرمة وبيض، وليلك حليب لبن إن شاء الله!" والبوارج الحربية السوفياتية الحاملة للرؤوس النووية تقف في ميناء الإسكندرية في زيارة ودية، فيسأل صحفي قائد الحربية السوفياتي: "نحن لا نرى شيئاً نووياً على سطح السفينة، فكيف تعمل هذه الصواريخ التي لا نراها على السطح؟" فيجيبه القائد السوفياتي بوقار: "أتمنى أن لا تضطر للعمل، فلا تراها!" وإلى جوار قضبان المحطة تقعد امرأة ضئيلة الحجم، بملايتها اللف أمام طاولة، شبر في شبر، تبيع الليمون البنزهير، كل عشرين حبة بقرش صاغ، ويقعد إلى جوارها رجل عجوز أعمى يكاد يذوب في الأرض لشدة هزاله وهو يدندن ويغني:

(يا اللي شفايفك كرر، والحدود برقوق،

وايديك موز مغربي، يخلص قوام من السوق،

وعن شاعر اسكندري، ساكن مثنا وفوق،

القلب يعشق قبل العين أحياناً،

إذا رأى من بعيد أيّ هستانا.)

فتقول له صاحبة الملاية اللف: "طيب قوم شوف لك شغلانة تنفع بها المسلمين، أحسن من الكلام الفارغ اللي بتقوله ده!" وسامية الشغالة تتخانق مع بئاع الطماطم المتجول بعربته على فَرَق تعريضة. كان الملعون قد زوّد سعر الكيلو،

من قرش ونصف إلى قرشين، فَرَقَعَت بالصوت، متهمة إياه بالتحرش، والتَمَت العالم، ودون استفسار أو سؤال، تجدد كلاً منهم يدلي بدلو، وإلهي لا يذيقك عذابه! (دا يا راجل أكل ضرب، ما أكلهوش حرامي في سوق!) والناس يتزاحمون، والفنانة الشقية شادية تتمرقع في شوارع اسكندرية مع فريق سينمائي ضخم، وهم يصورون فيلم ميرانار عن رواية نجيب محفوظ، وامرأة تضرب سجادتها المعلقة على شرفة الطابق العاشر من العمارة، فيسقط من يدها مضرب الخيزران، فتتنظر إلى طفلة شغالة، تلم شعرها بمسديل مربوط على جبينها الصغير، وتقف على ناصية الشارع، فتطلب صاحبة المضرب منها أن تمسك بالمضرب لحين نزولها الطوابق العشرة، فتطمئننها الصغيرة التي في الشارع بأنه في الحفظ والصون. تصل المرأة إلى باب العمارة بعد دقائق، تنظر هنا وهناك فلا تجد أحداً. كانت البنت البريئة قد اختفت منذ سنة، (وضربتها زومبة)، وقامت بدور "حاميتها حراميتها"، وفي الصباح الأول بعد ليلة رأس السنة، تنظر إلى شوارع اسكندرية البحرية الإغريقية الهوى، والتي شملها إعصار سهرة ليلة رأس السنة، فتشاهد جميع صحن الدنيا القيشاني الصينية البيضاء والمزركشة وحتى قلل الخضار القديمة، قد أسقطت عمداً من الشرفات والشبابيك العليا في العمارات، قبل انتصاف ليلة رأس السنة، وتهشم إلى شظايا على الأرض. يقولون إنهم قد كسروا قلة وراء العام الذي

مضى، ويتفاءلون بعام جديد خال من الكسر، وهكذا نحن العرب، نكسر وراء المغادر قلة، ولذلك يرفض عماليق العرب أن يغادرونا، كي لا يُغدر بهم، فيكسرون خلفهم قلة! وشرطي القسم يحقق مع البننت الشغالة في قضية السرقة التي اتُهمت بها، فيشاهد حاجبيها منتوفين، وهي ما تزال صغيرة على الحب، فيشخط فيها بسؤاله: "إنت بتنتقي يا بنت؟" فتجيبه بكل صلف وعين بيضا تندب فيها رصاصة: "دا مش شغلك!" ومدفع رمضان يقصف من بعيد، فيقع شرطي المرور تحت مظلته يفطر فولاً ويتحلى بالعجوة، وهو يؤشر لتنظيم مرور السيارات، وموائد الرحمن لفطار الصدقات على طاولات ممددة في شارع السوق التجاري لكل من هبّ ودبّ، والكل يأكل المقسوم كإخوة. وفي منتصف الشارع يقف بائع العرقسوس إلى جوار بائع التمرهندي، وثالثهما بائع شراب الخروب، بمآذن براميلهم النحاسية المزركشة بكل طقّاشات البلد، وهم يتنادون بأعلى الأصوات، ويسدّعون مشروباتهم، فيلثم عليهم خلق كثير. وأهبل تائه، يسأل مغضلاً يقف أمامه: "تعرف العمارة اللي عاليمين، المقابلة للعمارة اللي عالشمال؟ العمارة يا راجل العالية فوق فوق؟ العمارة اللي من غير سلّم والمصعد واقع حتى! دي اللي تحتها قهوة كبيرة من غير كراسي، والناس اللي فيها حتى بيشربوا الشاي، بس من غير كاسات. ويقولوا فيه عندهم سندوتشات، بس مقيش للسندوتشات عيش، وفيه قهوة بس

الغاز خالص! في الشارع اللي هناك! أصلي تهت واء..!، فيقول له المفضل: "لا معرفهاش." وفي الليل يقول الكمسري لزوجته التي سقطت من سريرهما الزميركي وهما يتفعلان: "تطلعي يا وليّة ولا اصقّر؟"

أفكار سخيفة من هذا النوع تتجمع في ذاكرتك، فتصيبك بالدوار وهي تصدر منك دون لباقة، وليس لها جمالية في الشكل، ولا حتى قيمة في المضمون! قد يكون (الكبّر عبّر)، فلم تعد تميز الثور من الطحين!

تغزو وتنام قيلولتك في الطابق التسعين، فتأتيك هلوسات العجائز إذ تحلم بأنك تحقد على هذه الرافعات التي تتحرك في السماء برجالها الآليين، حاملة معها جسوراً قوية مُصنّعة، خفيفة الوزن، وضيق قابلة للكسر، وواجهات معمارية شبه زجاجية، تغلف الهياكل الصلبة لأبراج ناطحات سحاب الإسكندرية! أين اختفى أولئك الفلاحون الذين بقوا ولم يموتوا تحت رمال الأساسات؟ كانوا يشغلون عمال التراحيل في أعمال البناء، كي يمتصوا البطالة، ويأكلون هم وعائلاتهم عيش وحلاوة، وأما اليوم، فلقد امتصت البطالة عمال التراحيل، ونقلتهم إلى مناطق بعيدة، ثم حرقتهم بجازا! تبحث عنهم، تطارد وراءهم وهم يركضون باتجاه جنوب ملاحات البحيرة المجففة، عاضّين على أثوابهم فتظهر عوراتهم ذابلة للعيان. تلحق بهم فيدلونك على الخراب. مدينة أخرى في صحاري إفريقيا بعيدة عن شواطئ البحر. عالم آخر من

بيوت صفيحية صدئة متراكمة فوق بعضها البعض وبيوت طينية تفصل بينها طرقات هي ليست طرقات بل قنوات تمر فيها المجاري المتعضنة ويمر فيها الحفاة وهم عجاف محنيو الظهر، فيدوسون بالميل وأحياناً بالميلين كي لا يقصوا في المحذور. تبطيء ركضك وتسير الهوينى وتنسى نفسك وسط الزحام وتعتقد أنك في الطرقات والحواري والأزقة الضيقة لمخيمي صبرا وشاتيلا الفلسطينيين اللذين دهمتها^٢ تسونامي لبنان^٣ وكذلك لست في لبنان بل في بيوت صفيح صومالي عزيز لا لست في ضواحي مقديشو الخاوية على عروشها إلا من الذباب تنظر وتحلق في الأشياء غير الواضحة المعالم أمامك في دارفور تجمعات العرب في الصحراء الغربية وإعلان بعض المناطق منكوبة في موريتانيا حيث تجد في الصحراء المغربية مخيمات دير البلح والمغازي التي سموها بهذا الاسم لكثرة ما طحن الغزاة الغرباء العابرون أطفالها وخلطوا لحومهم هم مع الاسمنت المسلح فبقيت رؤوسهم مرفوعة بين حطام الاسمنت وقضبان الحديد وحي الشجاعة وجباليا في الجنوب والضاحية الجنوبية في الشمال وتل الزعتر ونهر البارد الذي صار ساخناً بسبب الثلوج المتساقطة عليه في عز الصيف وعين الحلوة التي فقأوها وحي الأعظمية الذي صار عظمًا قَسَمًا عَظْمًا بلا لحم وتحفة من متاحفها البالية البابلية الآشورية بطن التاريخ العربي المبقور حيث يوسعون سجن أبو غريب ليشمل الوطن العربي كله

فيوحدوه مع غوانتتنامو لتغطي خيوط العنكبوت السامة
 الكرة الأرضية كلها قد تكون صوملة مخيضة ولكن من نوع
 اسكندراتي الطرقات ضيقة لدرجة يكاد السور الأيمن فيها
 يلتصق بالسور الأيسر كصفحتي كتاب عملاق وأنت بمرورك
 هذا معصور بينهما مثل اللحم المعلوك الذي يضعونه داخل
 صفحتي شطيرة ساخنة من لحوم البربورغر الكاوتشوكية
 الشطيرة ساخنة والطرقات ساخنة والبيوت ساخنة والقلوب
 ساخنة تذوب وتقطر أرواحها رويداً رويداً والغبار والحرائق
 والدخان يغلفان الجو وحمار ينحشر بحمولته من البرسيم
 بين صفتي القناة التي تضيق تضيق تضيق فيحشره السرداب
 المروري فلا يستطيع أن يتقدم ولا أن يلف رأسه ولا أن يدور
 فالأسوار العالية بين الجيران ضيقة لدرجة لا يستطيع المرور
 فيها إلا كل من ذاب شحمه وهزل لحمه وبقي على الجلد
 والعظم ونساء يجلسن على الأرض هنا وهناك متقابلات
 تتدلى أشداءهن العارية المجففة مثل أكياس اللبن المعصورة
 من محتوياتها فيفسلنها بمياة المجاري المعالجة والمكررة والتي
 دفعوا بها إليهم مدعين بأنها صالحة للشرب والفسيل
 وأطفال يلعبون في المجاري ويقذفون بعضهم البعض
 بمحتوياتها وقد اختفت صناديق نحل الفلاحين التي كانت
 تنتج عسل البحيرة وحلت محلها طرود الذباب والبعوض
 الذي يهيج بغزارة طرود النحل والذباب يأكل جيئاً متحلله
 داخل أكوام قمامة لا تعرف فيما إذا كانت لأناس أم

لحيوانات انتهت صلاحيتها مبكراً فانطفأت على قارعة الطريق ويختفي الرجال والنساء من الأزقة ويدخلون بيوتهم المخنوقة كي يداروا سوءات زمنهم فيأكلون لحم بطونهم وهم يتلاشون كلطع البقر المحترق ذلك لأن فرص العمل قد ضاعت منهم واختفت أراضيهم ومزارعهم بقدرته قادر فجرفوهم إلى مناطق بعيدة عن أعين السياح والمستثمرين الأجانب وأصحاب الشركات "الاستيراتيجية" خوف أن يفضحونا ويخزوننا ويقولون إن منطقة الإسكندرية غير مؤهلة للاستثمار فيقذفونهم إلى خارج المدينة الجميلة حيث لا حاجة لهم بهم بعد أن حلت محلهم في مناطق العمار "الواعدة" الرحبة تلك الرافعات والجسور والقضبان المعدنية المعقدة التي لا تتفاهم مع أحد ولا تأتمر إلا بالكمبيوتر الذي يبلغها عن زاوية المعمار والوزن المسموح به والسرعة القصوى في الإنجاز وتفاصيل الأعمال المعمارية والمدنية والميكانيكية والإلكترونية والكهربائية والمائية والاتصالية والديكورات والتصاميم والتشطيبات الداخلية والخارجية وحتى الحدائق الجميلة والطرق الرحبة حول المباني ومواقف السيارات المخفية فوق أسطح العمارات وكل ما له علاقة بالمعمار الحديث تجد هذا العفريت الآلي يحشر قلمه فيه وينفذه حسب المواصفات النموذجية!

تفتقد أولئك الفلاحين الصعايدة وعمال أهل بحري الذين كانوا يجلسون هناك على الأرض، إلى جوار حفريات مبنى

هندسة العمارة! أين ذهبوا؟ لقد كانوا يضعون خبزاً على
سرة قماش مفتوحة، وحلاوة طحينية على ورقة حلاوة،
نشاهدها نحن الطلاب وهي تلمع بالزيت الذي يتصبب منها،
وينتقع تحتها مثل عرق جباههم الذي.. وكلما مر عليهم عامل
أو حارس، أو حتى طالب كلية، يقولون له: " تعال كل!
تعال!" إنهم لا يقولون لك: "تفضل". كما يقول المثل
الإسكندري: (عزومة مراكبية!) بل يقولون لك: "تعال!"
إنه كرم صادق، وأمر بالمشاركة في الأكل "تعال!" وماذا يأكل
الواحد منهم - يا حرام- محتويات علبة سردين؟ أو تجده
يقضم قطعة جبن ممشش، أو ينطح فحل بصل، وأحياناً
يفعص على رغيف خبز قرصي طعمية، أو يكتفي بصحن
فول دون زيت! يقول لك الفلاح المصري وهو يحمد الله: "دا
جميل جداً" كل شيء عندهم جميل جداً. وهم لا يعترفون
بغير مصر، ولا يتنازلون عن مصر درجة لأحد!

" الكنافة عندنا جميلة جداً في اسكندرية..". تقول لك
أم عربي.

" الكنافة النابلسية، أم الحلويات العربية يا خالتي!"
تجيبها محتجاً: "قولي الكنافة في اسكندرية عليها سكر قصب
حلو جداً. ولكنها لا تصل إلى درجة لذة الكنافة النابلسية!"
اعترفي بشيء واحد غير مصري على الأقل على أنه الأفضل،
فالکنافة النابلسية هي سيدة حلويات العالم! فتجيبك
بإصرار:

"لأ، دا الكثافة عندنا في مصر جميلة جداً!"

يسمعكما صديقك محمد محمد، فيقف ضدك هذه المرة وهو يقول:

"يجب أن تعلم يا مشهور أن مصر هي أم الدنيا، فالأهرامات هي أعظم معمار هندسي في العالم منذ خمسة آلاف سنة، يا أبو الهندسة أنت، وأبو الهول العظيم هو أعظم تمثال حجري قديم في العالم، والمومياءات المصرية حنطها أعظم طب في العالم، وفنار الإسكندرية هو أعظم معمار منارة بحرية في التاريخ، ومن عجائب الدنيا السبع، واليوم سفتفتح استوديوهات مبنى الإذاعة والتلفزيون في مسبيرو بالقاهرة، وهو أكبر مبنى من نوعه في العالم، وإذاعة صوت العرب من القاهرة هي من أقوى محطات الإذاعة في العالم، تسمع بوضوح تام من موريتانيا إلى البحرين.

كل ذلك يتم ونحن ما نزال في السنة الجامعية الأولى، ترى ماذا سيكون عليه الوضع بعد عشر سنوات، أو عشرين سنة؟ وما هذا الناصر الذي يؤسس كل يوم مشروعاً عظيماً، ويفتتح كل يوم مصنعاً عظيماً، وينجز كل يوم إنجازاً عظيماً؟ يقول هذا وهو لا يتوقع أن كل مراكز القوى المعادية تتربص بالرجل، لتنكس وتكنس منجزاته، وتقضى عليه في شبابه، فلا تمهله حتى يحقق أحلامه العظام!

لم يكن محمد يدرك شراهة الشركات "الاستراتيجية" العابرة للقارات، التي ستشتري الأرض وما عليها من مصانع

وجامعات ومباني منجزات مرحلة طموحة! ولم يتخيل مجرد خيال، أنها ستشتري الأهرامات بسعر رملها، وأنها ستعيد المزارع التي أمت إلى إقطاعيها، وأنها ستسير على طريق عبد الناصر، ولكن (بأستике)!

أبو فطومة !

الصباح مشرق جميل، وبحر الإسكندرية يختلف أمام ناظريك عن كل البحار، خاصة وأنت تُحلق فوقه ناظراً من الواجهة الزجاجية الواسعة في الطابق التسعين! يبدو أنك غير قادر على التعامل مع اسكندرية ألفين وخمسين، بل تبدو مصرّاً على تلبّس دور الشباب في ستينيات القرن العشرين، ومصاباً بمرض الحنين إلى أيام زمان. تقف على باب البحر من هذا الارتضاع الشاهق، ولكنك تنزل منه إلى الطابق الثالث، حيث غرفتكما المستأجرة في شقة (أبو جرجس)، والتي انتقلتما إليها بعد المشكلة التي حصلت في شقة أم عربي، يوم حشرتك محمد محمد محمد في غرفتك، وتحداك في لعبة المصارعة. كنا نلهو باللعب كطفلين، وعندما حمى الوطيس، رفعته وخبطته على السرير، فانكسرت إحدى أخشاب قاع السرير العريضة، التي تحمل الفرشة! شعرنا ساعتها بذبذب كبير، ولم نعرف كيف نتصرف، فأخفيينا الجريمة المكسورة، تحت درج الخزانة.

وعندما جاءت أم عربي من رأس السنين، ورتبت السرير،

اكتشفت الجريمة، فواجهتك بها قائلة: " لو قلت لي إنك قد كسرت اللوح، لما.. " تقف أمامها، وعيناك في الأرض، كطالب مذنب في مدرسة ابتدائية، وهي تؤنبك بهدوء محققة مباحث، " ولكن إخضاعة بهذه الطريقة، يجعلني أرتاب فيك؟"

لم تجب بشيء، ولكنك جمعت لنفسك الخطأين: إساءة التصرف مع نادية من جهة، ومن جهة أخرى، كسر لوح سرير غرفتك! وعندما قالت لك الولية "إنني بدأت أرتاب فيك"، فلقد حق عليك الرحيل! تشاورت مع محمد محمد الذي قال لك: "أجرة الغرفة هنا خمسة عشر جنيها لكل شخص تعتبر عالية، ولا نستطيع الاستمرار في دفعها. وما دما قد تظاهما وصرنا أصدقاء، فما رأيك أن نرحل، ونبحث لنا عن غرفة واحدة بسريرين عند عائلة، فنسدد مبلغاً أقل من هذا؟"

وبعد تفكير عميق، استشرنا المكوجي أبو فطومة، الذي كان بالإضافة إلى الكي يعمل سمساراً للعقارات، والذي ستتعرف فيما بعد على زوجته أم فطومة، البيضاء الذليلة، ذات العينين الخضراوين، التي تجمع وتوزع ملابس الفسيل والكي من وإلى شقق أهالي الحارة، وفي نفس الوقت، تجمع له معلومات عن الشقق والغرف الفارغة، والمطلوب تأجيرها، مقابل عمولة لمن يحضر مستأجراً جديداً.

يرفع أبو قطومة المكوى الساخن عن بابور الكاز، ويمسحه على خرقة قماش رطبة، كي يزيل السناج عنه ، ويضع الذي برد مكانه، ثم يواصل الكي اليدوي، والبخار يتصاعد من غطاء الملابس الخاضعة للكي، فتشم رائحة مشعوظة، بينما هو يقول لنا: "هناك عائلة محترمة، ناس أكابر، ولكن الزمن كبس عليهم، فاضطروهم لأن يؤجروا غرفتين من غرف شقتهم، واحدة مشغولة، يسكنها طالب في كلية الطب، والأخرى خرج منها ساكنها بالأمس، فتعالا معي لمشاهدتها."

نطلع مع (أبو قطومة) بالمصعد الذي يبدو على شكل قفص داخل قفص من الحديد الصلديء، يصعد وينزل في بئر سلم مكشوف القاعدة، فيستقبلنا عند باب الشقة رجل خمسيني العمر، وجهه بشوش ومتعب، مربوع القامة، حنطي البشرة، أذنه اليمنى مقطوعة، وأسنانه سوداء منخورة.. يرحّب الرجل بنا، ويطلعنا في البداية على مطبخ نظيف، مساحته حوالي تسعة أمتار، ثم يتقدمنا إلى حمام أبيض البلاط المصقول، فتشم رائحة الفليت التي لا تحبها، ولو أنهم هنا يضعونها لقتل الصرصار الأمريكي الأحمر، الذي يخرج لك متبختراً وواثقاً من نفسه من كل جحر، فتشمئز من حركة أجنحته الحمراء المسودة، ولا تملك إلا أن تفحصه بحدائك، أو أن تستخدم له مبيدًا وتلاحظ أن الغرف هنا أوسع وأنظف وأحسن ترتيباً، وأفضل من مطبخ وحمام أم

عربي. ثم يتقدّمنا إلى غرفة نظيفة واسعة، فيها سريران مزدان. يفتح الرجل الشباك، فتدهشك إطلالته. الشباك يفتح مباشرة على البحر الأبيض المتوسط! تفرح بالبحر الواسع! وتدور بخلدك وشوشات ونغمات غنائية فيروزية: (شط اسكندرية يا شط الهوى..!) بينما يقول أبو جرجس وهو واقف في الغرفة: "أجرتها خمسة وعشرون جنيهاً في الشهر، وأكراًماً (لأبو فطوم)، خمسة جنيهات خصم.. عشرون. تستطيعان أن تسكناها معاً، فتكون دفعة كل واحد منكما عشرة جنيهات (ببلاش)." فيأخذك محمد محمد إلى جانب ويوشوشك قائلاً: "عشرة، عشرة. ليكن! فالعشرة هنا أقل من الخمسة عشر في الزقاق المعتم هناك" وفوراً نقرر الموافقة، فنبلغ أم عربي التي لم توافق على رحيلنا، لأن هذا يخسرنا أجرتي غرفتين مرة واحدة من شقتها المزدودة. تحاول الولية استرضاءنا، ومن ثم استعطافنا قائلة: "لقد أحببتكما مثل عربي ونادية والله!" فيوشوشك محمد ساخراً:

" ترى من منا يكون عربي، ومن منا يكون نادية؟" فلا تضحك على مزاحه البائخ، والذي ليس في وقته!

لم تهتم نادية بخبر رحيلنا. وكأن شيئاً لم يكن! قد يكون السبب أنها ما تزال مصدومة بسوء تصرفك معها يومذاك.



الناس الذين يسعون في الأرض لئولهم أخضر، وبعبوسة

وذبابه خضراوين تلاعبان نحلة وفراشة خضراوين بسعادة
 باقة وهن طائرات بين أفرع شجرة وارفة الظلال، وعلى أحد
 أغصانها يأكل نسر وحمامة خضراوان، وتحت الشجرة
 خراف وماعز خضر تتعاق مع أسود ونمور لونها أخضر
 بمحبة واسترخاء! تنظر في المرأة، فترتعب إذ تشاهد لونها
 أخضر مثلهم! وعندما سألت عن أبناء آدم التقليديين، قالوا
 لك إنهم قد انقرضوا ودالت دولتهم، بعد أن فسدوا وأفسدوا
 الأرض بفرديتهم وجشعهم وتوحشهم في القتل والتدمير.

تصحو من نوم القيلولة مذعوراً بما حلمت وشاهدت! تنظر
 إلى وجهك الذي ما يزال يقاوم انتشاء الصلاحية، فتضحك
 على أحلامك السخيفة، وتحاول أن تدفن رأسك في الرمل
 كالنعامة، وذلك بتذكر الذي مضى وانقضى، إذ تحمل في
 ذاكرتك كل عمارات ومدرجات الطلبة، ولا تريد إعادة
 تجمعات الطلبة والطالبات في قاعة الرسم الهندسي، بقدر ما
 تتذكر دراستك لمادة المجتمع، والتي اسمها (اشتراكية)، إذ
 يضبطك أيو جرجس، وأنت تذاكر تلك المادة، فيسألك: "ماذا
 تذاكر يا جدع؟"

"مادة اشتراكية." فيضحك تاركاً بقية شحمة أذنه
 المقطوعة تهتز، "مهندس وتدرس اشتراكية؟ لا أعرف لماذا
 يدرسون طلاب كلية الهندسة مادة اشتراكية! فتجيبه مدافعاً

عن دروسك، " ولماذا يُدرّسون طلاب كليات الهندسة في أمريكا تاريخ الثورة الأمريكية؟" هذه مواد ثقافة عامة، لابد منها." هيوصل أسئلته التي تُبرز بقايا أسنانه السوداء المهترئة، "ما هو تعريف الاشتراكية عندكم؟"

" الاشتراكية هي (كفاية وعدل)!" فيمتحنك بسؤاله:

" ما معنى كفاية وعدل؟"

" (كفاية وعدل) معناها: أن يكون لدينا إنتاج ومعطيات وطنية تكفيها، وعدالة في توزيعها". فيقهره فاتحاً فم (سيد قشطة) على الآخر، بينما تتضاءل بقية شحمة أذنه على الآخر، ثم يقول: "لا يا حبيبي، أنت مخطيء! (كفاية وعدل) يا عبيط، معناها: (إن الرئيس يكفيها، نتكفي، ويعدلنا، نتعدل)!" تضحك هذه المرّة على سخريته!

وليس دكتور المادة محمد منير الخولي أكثر التزاماً من (أبو جرجس) بهذه الاشتراكية الدخيلة على بلد الفلاحين والباشاوات، الأقنان والسادات. ففي المدرج رقم واحد، والذي كان لا يقل استيعابه عن ألف طالب، ليستقبل كل التخصصات في السنة الأولى، ولكن حضور الطلاب محدود، ولا يتجاوز الثلاثمائة، فتجسد الدكتور محمد منير الخولي يقول لنا: "إنتوا النهارده مستنيرين أوي كده ليه؟ طلاب السنة اللي فاتت، مكأنوش مستنيرين زيكم، كان

المدرج فاضى، مضى فيه طلبه^١ ويبدأ المحاضرة مستهتراً إذ يسأل: "بصوا لي بقى، الواحد فيكم أول ما يقوم من النوم، يعمل إيه؟" فيجيبه أحد الطلاب قائلاً: "يذاكر يا دكتور!" فيشير الدكتور محمد منير بيده من على المنصة: "لا!" ويجيب آخر: "يروح الحمام يا دكتور!" فيقول: "لا!" يتوضأ ويصلي يا دكتور. فيخطئه قائلاً: "لا!" يغسل أسنانه يا..

"يروح الكلية يا... فيقول: "برضه لا!" يغير ملابس النوم يا.. فيبتسم وهو يقول: "وكممان يا!"

"يبص من الشباك لبنت الجيران يا دكتور!" فيضحك أولاد فاقدون! وعندما (يغلب حمارنا)، يتجلى الدكتور محمد فينطق بالذُر: "الواحد أول ما يقوم من النوم، أول حاجة يفكر فيها، هي إنه.. بصمت قليلاً وهو يتمتع بضوئنا ثم يقول: "ياكل فول! وبعد الضول يقرر: إما إنه.. ما يقدرش يقوم، أو إنه.. يتمشى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، أو إنه.. أو إنه يروح الكلية!"

لست تعرف لماذا كان الدكتور الخولي مستهتراً هل كان يُدرّس مادة يحتقرها؟ أم إنه يستخفها؟ أم يستسهلها؟ أم إنه مرح بطبيعته، ولا يريد أن يُعقّد المادة؟ أم إن المادة سخيفة

بطبيعتها؟ أم إن الرجل كسول بطبعه؟ لم تكن تعرفها! ولكنك تجد أن معظم المدرسين الآخرين جادون في علومهم، فكان الدكتور محمد حنفي، رئيس قسم المدني، لا يفكر بغير السدود والأساسات والجسور ذات الالتفافات المرورية، وكثيراً ما كان يقول لنا بسخرية المحبة: "الواحد يتصيح بمشروع كوبري، مثل كوبري قصر المنتزه - المعمورة الجميل، أحسن من وجوهكم الكثرة دي!" لم يكن لديه الوقت، ليمشط شعره في البيت، فنراه يدخل الكلية، قادماً من مشروع ما، ويصعد الدرجات المؤدية إلى المدرج، بينما هو يمشط شعره المجعد، فيزيل أشياء عالقة به من غبار أو مخلفات الأساسات، فيقول طالب يقف على الحاجز الرخامي للمدرج مع زميلته: "هذا الدكتور حنفي، تحفة! لو كان أيام زمان، كانوا أخذوه، وعينوه رئيس مشروع بناء الهرم خوفو، ذات نفسه!"

ويضحكننا أسلوب الدكتور محمد الريشة، مدرس مادة القانون، التي تعرفنا على الحقوق والواجبات، وكيفية إجراء عقود مقاولات أي مشروع مدني نقوم به. فيرتقي درجات منصة مدرّج واحد، وهو يحمل نفس حقيبتك الكرتونية البنيّة اللون، التي تاهت في مطار القاهرة، ولكن هذه بحجم حقيبة يدوية صغيرة، يضعها على طاولة المدرج، ثم يحمل الطبشورة، ويكتب على اللوح عبارته المعتادة: "يسا

صباح الخسيسر^٢ فيصيح فيه أحد الطلبة المشاغبين
 الفاقدين في دراستهم، والمختفي في مكان ما بين الطلبة
 السثمائة سائلاً: "شاريها بربع جنيه يا دكتور؟" يقصد
 الحقيبة الكرتونية الرخيصة! يرمي الدكتور الطيب
 طبشورته، ويلتفت إلى طلابه العاقين، ويقول مستنكراً: "مين
 ابن الشغالة اللي بيقول الكلام ده؟" ثم يلتفت إلى اليمين
 وإلى اليسار ويتابع شتائمه: "مين ابن الغسالة اللي بيقول
 كده؟ لكن العيب مش عيبكم! العيب عيب الثورة اللي جابتكم
 هنا! كان المفروض يا أولاد الـ... تكونوا دي الوقت شيالين في
 الميناء، ولآ عمال تراحيل في المجاري والغيطان!"
 تقعد بين الطلاب والطالبات مثل الأطرش في الزفة، فلا
 أنت من المشاغبين، ولا أنت من جماعة الثورة، ولا تعرف من
 هم عمال التراحيل! ولكن بعد انتهاء المحاضرة، يقول لك
 محمد محمد: "هل سمعت ما قاله الدكتور الريشة للطلبة
 الصائعين؟" فتجيبه محرّجاً: "سمعت. ولكنني لم أفهم ماذا
 يقصد!"

"قال (العيب هو عيب الثورة اللي جابتكم). فالثورة هي
 التي سمحت لهم بدخول الجامعات، وكأنت محصورة على أبناء
 الباشاوات والأغنياء، فقام عبد الناصر بتأميمها، والسماح لكل
 النساحين في امتحانات الشهادة الثانوية بدخولها

سواسية، وكما تعرف، صارت الأولوية لصاحب العلامات العليا المعلنة على اللوح المحفوظ، دون وساطة أو محسوبية". يسير محمد معك في الطرقات القريبة من المدرج كي تعود له ثانية بعد استراحة الدقائق الخمس، وهو يتابع قوله: "وهكذا دخل ابن الفقير، وابن الفقير، وبنت الشيال، وبنت البواب إلى الجامعة. وصار من حق ابن عامل التراحيل الجامعي أن يصير ضابطاً في الجيش، ودكتوراً في الجامعة، وطبيباً في المستشفى، ووزيراً في الحكومة، وكان ممنوعاً من هذه وتلك، كان الفلاح يا مشهور محصوراً بحضريات قناة السويس، ومختوماً على قفاه بحضريات ترعة المحمودية وترعة الإبراهيمية، ومبرمجاً لخدمة الإقطاعي. كان خادماً لا يستطيع اختراق طبقته، وكان جندياً نضراً في الجيش، فلا يستطيع في أحسن الظروف تجاوز رتبة (ح الصول)، وهو غير مؤهل إلا ليطلق النار على الآخرين، أو أن تُطلق عليه النار من قبل الآخرين.. ولا تعرف من هم الآخرون، فقد يكون الآخرون هم الفلاحون من أبناء جلدته، المُرغزون في غلبهم، ولا سيطرة عليهم إلا بهم، فلا يقول الإقطاعي: (منهم لله)، بل يقول: (منهم لهم!) فيسلطهم على بعضهم البعض، ويجلس وهو يقهقه، رافعاً إلى أعلى شعار الانتصار بالسبابة والوسطى، وما بينهما سيجار كوبي طويل وغليظ وابن كلب، بينما هو

يعيش مستمتعاً بشهد عسلهم، وحبوبهم ويقولهم وثمارهم! وعندما يقترب منهم في الغيط، تجده مشمئزاً من رائحة عرق جهدهم، وزخم سخونة أنفاسهم، التي لولاهما لما نضج واحلو العنب! تسأله وأنتما تدخلان قاعة الرسم: " وهل الطلبة الفلاحون هم المشاغبون داخل المدرج؟ " فيحك محمد محمد ظهره بمسطرة الرسم الطويلة وهو يقول: " أبداً، فالفلاح لا يجرو، حتى ولو بطبيعته المتوارثة على السخرية والاستهزاء! ولم لا يكون الصائعون هم من أبناء الطبقة الأرستقراطية المثرثة، الذين تعودوا على الدلال والسخرية من الآخرين؟ "

والحديث عن الفلاحين يذكرك بتلك الفلاحة بائعة الزبدة، عندما كنت وحيداً في شقة (أبو جرجس)، وطرق الباب الخارجي، ففتحت، فإذا بها صبية فلاحة ناضجة القوام، مرافقة لأمها، تعرضان بيع الزبدة. والأم ذات الثوب الأسود البلدي تقول: " هذه زبدة جاموس بلدي. (الوقت بريال). "

ودون استشارة محمد محمد، أو تفكير عميق، توافق على الشراء، فتندفع الصبية البيضاء الطويلة الممتلئة الجسد، ذات الصدر العامر، مستبقية أمها خارج الشقة، وتدخل بثوبها الفلاحي المخملي الأخضر، والمطرز ببضع رسومات،

وخطوط متشابكة ترقرق على صدرها، كسياج مزخرف
 لشرفة مطلة من عليّة خضراء، لتضع الزبدة في الثلاجة،
 وتقبض العشرين قرشاً. وهنا في المطبخ تفاجئك الأنثى ذات
 الشفتين الشبيهتين بشمرتي تين مشطب ينضج بالعسل، بأن
 تنقض عليك دون سابق استعداد أو تهيو للعواطف، ودون
 استدراج نظراتك إليها، أو على الأقل ابتسامة أو غمزة منك
 أو منها، فتحضنك وتقبك في فمك قبلة شديدة التعطش،
 تنظر الدموع من عينيّك! وأنت لا تفهم إن كنت ساذجاً أو
 غيبياً، أو جاهلاً في أمور الحب والفرام والجنس! لقد فوجئت
 بالفلاحة، ولكنك بدل الانغماس معها في اللذة، رحت تراقب
 وتتعرف على ملامح وجهها الممتلئ، وغير المدهون بالأصباغ
 الإسكندرية، وغير المحضوف أو المنتوف، وتراقب شعر الحرام
 الأبيض الناعم القصير على صفحة خدها وذقنها، والذي لا
 يلتقطه ملقط، وتأمل حاجبيها الغليظين، وشفتيها غير
 المدهونتين حتى بالزبدة البلدية! ففي إحدى المسرحيات التي
 حضرتها، يسأل الضاح "عبد الله غيث" زوجته "سميحة
 أيوب"، "ميش عندك شوية لبن؟". فتجيب الفلاحة: "لا
 والله!" فيعود يسألها: "ولا حتة جبنة؟" فتقول متألة: "منين
 يا حسرة!" فيضيف: "ولا حتة قشطة؟" فتضربه الفلاحة
 على كتفه بحزن وانكسار، وهي مستاءة من ظروفها

الصعبة، ولما عايز تاكل في الدنيا قشطة، أُمال في الجنة
 حتطفح إيه؟^١ تشعر وأنت تتفحصها بنظراتك، أن شفتي
 الصبية المحرومتين كانتا ممتلئتين حرارة وشبقاً وشهوة
 لشفتي شاب غرير، غريب على الفلاحين، وعلى الإسكندرية
 كلها. والبرينة تطلب السترا وهي لا تريد أن تفضح عريها
 الأنثوي، وهي المكسوة بكومة ملابس خضراء مخملية، تستر
 القرية كلها، وتكاثف متدلية فوق جسدها الضائر، المصفد
 بالأغلال، تحف بها حتى قديميها الكبيرتين الخشنتين
 المجومتين بفردتي شبشب زنوبة، ومشققتين من أسفل الكعب.
 ولكن جسدها ثائر على كل القيود!

تشعر الصبية أنها قد اندفعت وتهورت، وأنه (ما هكذا
 تورد الإبل!) وأن هذا الشاب "اللطة" غير متفعل بها، فهي
 تذيقه طعم شهوتها، ولكنه لا يستطيع بلذتها. شعرت أنك لا
 تتفاعل معها، بل تراقبها وتتفحصها، وتعرف على حالها،
 ولم تتصور المضغطة أنها ستقبل ذكراً مخصياً، بارداً محنطاً
 مثل صنم لا حياة فيه، ولم يسبق لها أن دخلت مرصداً كهذا
 غير مُعدٍّ إلا للمراقبة والتدقيق.

كنت بصراحة تافهاً وحقيراً معها أيها الغرير، فلم ترأف
 بحالها، ولم تتعاطف معها، ولم تفهمها، ولم تتجاوب معها، بل
 بقيت هكذا مثل شخصية الـ(اي تي) الساذج، الذي يعيش

في الغابة، ويراقب من بعيد، تتمعن في هذا "الشيء" الأنثوي الذي أمامك. الفلاحة المندفعة تحجل من نفسها، وتشعر وكأنها قد قذفت رأسها في بركة سباحة ضحلة لا يزيد عمقها عن خمسة سنتيمترات، فينفجر رأسها!

أنت لا تعرف لماذا تتصرف هكذا مع الصبايا الجميلات، مع أنك جنس بشري مشحون بالجنس، ولا تعرف ما إذا كانت لديك حوافز أو موانع مفروسة في جهاز خايرتلك الوراثية، تحدد سلوكك، وتبعدك عن الجنس الذي ولا شك ترغب فيه بالغريزة!

تخرج الفلاحة الصبية فائرة معمية النظر، دون أن تقبض شيئاً، حتى ثمن الزبد. فتلحق بها، وتدفع الريال إلى أمها، فتمضي الحرمتان إلى حال سبيلهما، نازلتين على درج العمارة، طارقتين بيوت سكان آخرين، لعل وعسى تنفق بضاعتهما!

كنت تقف مع الصبية الفلاحة، وأنت تفكر بجذتك أنيسة، التي قالت لك وعمرك لم يتعد الخمسة عشر عاماً: "لا تعط للبنات عيئاً. فالبنات لا تقول لك إلا: هات. هات!" وذات مرة قالت لك العجوز ذات المائة وخمس سنوات: "لا تطلق العنان لشيئك. حاول أن تحاصره، وإذا قام عليك وفضحك، متسوتراً أكثر من قِدرتك على ضبطه،

فامسك به واكسره، فإنَّ أَلَمَ الكسر، سينسيك شبق اللذة،
وينهي تطلعاتك من أصلها^١ لم تفهم العجوز أن كسره يقصف
عمره، ويتلف مستقبله، المسنود عليه كل مستقبل حامله.
كانت تقصد حمايتك من العاديات. لم تكن تلك الجدة تعرف
الأحاسيس الرومانسية التي علمك إياها جبران خليل
جبران، إذ ما زلت تحفظ رواية (الأجنحة المتكسرة) عن ظهر
قلب،^٢ كنت في الثامنة عشرة من عمري عندما فتح الحب
عينتي بأشعته السحرية، ولمس نفسي لأول مرة بأصابعه
النارية. وكانت سلمى كرامة المرأة الأولى التي أيقظت روحي
لمحاسنها...^٣ ولكن جدتك لم تكن تميز الرومانسية من
المهلبية. بلى لقد كانت تعرف كيف تطبخ قشر البطيخ
الأخضر. فقلت لها يوماً :

"لماذا تطبخين هذا القشر يا جدتي؟ فأجابتك وهي
تمسح شفثيها المفترقتين عن لعاب يبرز من طرفيهما بمنديل
نسائي مطرز، سبق وأن قالت لك إنه من بقايا محتويات
صندوقها الذي تركته في عكا،^٤ ماذا يختلف قشر البطيخ
الأخضر عن الفول الأخضر أو الكوسا؟ كلها خضراوات!"

كنت هكذا دائماً أهبل، تقف خلف جدتك، وتسمع
حكاياتها، وتتأثر بها، وعندما تطلب من أبيك قرشاً لشراء
شيء يخطر على بالك، ويرفض طلبك بحجة أن الاقتصاد في

التفقة نصف العيش، مثل ذلك الولد الخليلي الذي يطلب من أبيه شلناً، فيقول له أبوه: "لليش شلن؟ ما تاخذ لك قرشين، بيكفي قرش. خذ هذه تعريفة!" فيخضع الولد المطيع لإرادة أبيه، ويقول له: "ماشي. هات التعريفة." فيقول له الأب الكحتوت: "هالاً بدك أصرف لك قرش، عشان تعريفي؟!"

ومثله كان والدك يقول لك إنه يوفر القرش الأبيض لليوم الأسود، وأنت تجيبه بأن لا أسود من هذه الأيام، التي يرفض فيها دفع القرش لك! فيجيء الرد على شكل كرابيج حلب.. جلدة، والثانية.. ثلاث جلدات من حزام مروحة السيارة الواقف في الانتظار معلقاً على الحائط، متحفظاً للتدخل لدى حدوث أية مشكلة. تسمعك جدتك وأنت تصرخ باكياً، فتهجم وتحميك من الجلدة، شائمة أباك، الذي لم يكن أحد يقدر عليه سواها هي والله تعالى! وتضمك وهي تقول لك بسرهما: "إنني أخبىء قرشين تحت الحصيرة، اذهب واقلبها وخذهما." فتفرح بالقرشين، وتقبل جدتك من خدها الحنون، فتشم في ثنايا شعرها الأبيض رائحة العجائز.

ترى هل كان سبب رفضك التجاوب مع قبلة الفلاحة المحرومة، كونك ملتزماً بتحذيرات جدتك المسترجلة؟ وهل وصلت إلى قناعة تامة بأن القبلة الوحيدة المسموحة لك في حياتك، هي قبلة جدتك الحنون أنيسة؟

عالم بلا تحديات

بعد القيلولة يدخل عليك برهان من جناح غرفته السماوية، فيمسّي ويسألك عن الأحوال، فتصارحه بهواجسك :

"أريد أن أسألك بصراحة عن الهدف من تعذيب ولدك الأخضر بهذه العمليات المعقدة، والتي قد لا تكون نتائجها مضمونة، لا سمح الله. فقد يتعرض هذا الإنسان الثالث لأذى من أبناء الإنسان الثاني الذين قد يروونه منافساً لهم، أو خطراً على مستقبلهم، خاصة إذا سيطر جيله الأخضر على أغلبية منافذ الحياة مستقبلاً، فلا يعود لبني آدم وحواء سلطة على الأرض، ولهذا السبب قد يقضي الأشرار عليه وعلى جماعته! إنه مهدد يا ولدي!"

- كل هذه المخاطر محسوبة يا أبي. يجلس على مقعد هوائي إلى جوارك وهو يجيب: ولهذا السبب عملنا حماية للفأر الأخضر والقط الأخضر والخروف الأخضر والأسد الأخضر، فوضعناهم في البداية فرادى، وبعد التأكد، وضعنا كل اثنين متعاضدين في الطبيعة، في غرفة ضوئية واحدة، فلم يأكل القط الفأر، ولم يأكل الأسد الخروف.

وبعد ذلك وضعناهم في غابة محمية واحدة، وراقبناهم، فلم يعتد أحدهم على الآخر، بل عاشوا كلهم في وئام وسلام. تراهم يسترخون على صخرة مشمسة، ويتأملون الحياة حول بركة ماء طبيعية. والضبع لم يعد نتنًا، بل صار لدينا ضبع برائحة الصنوبر، وفيل برائحة البلوط، وخنزير برائحة الفار.. صرنا نعيش في عالم مدهش يا أبي، وأنت تخاف على كنعان الأخضر من الإنسان الأبيض والأسود والأصفر؟ التحديات واردة لهذا الجيل، ولكننا نسعى لخلق عالم بلا تحديات! نريد جيلاً أخضر يعيش بلا خوف! بصراحة، نريد جنة على الأرض! ولو زرقتنا في المعهد، لأخذتك إلى محمية غابة هيسن، حيث تشاهد هناك الحيوانات الخضراء تسرح وتمرح في الغابة، طبعاً ضمن حدود مراقبة، وشبك حديدي يمنع الطائر من دخول المحمية، كي لا يدمر المعجزة التي صنعناها! لقد لاحظنا تطوراً في سلوك هؤلاء الذين صاروا يجلسون بهدوء، غير قلقين على شيء، يتأملون الشمس التي تطعمهم، ويستمتعون بها، ويفكرون باللقاءات الجماعية، ويتعانقون بهناء وبرومانسية، ويمارسون الجنس بهدوء وبلذة تختلف عن استمتاع الإنسان الثاني. لذة غير مصحوبة بالقلق والخوف والحذر.. يمارسون الجنس للمتعة، وليس للتكاثر، الذي صار يتم هذه الأيام بالخلايا. وإذا لم تكن نحن العلماء مؤمنين بما نبخثه ونطبقه في المعامل، فكيف يؤمن به عامة الناس، وكيف يتطور الكون؟

تبلع حبة أكسير الحياة، وتشرب فوقها قليلاً من ماء
الزجاجة الصغيرة التي لا تفارقك، ذلك لأن لعاب حلقك
يجف بسرعة، ويتطلب منك ترطيبه عشرات المرات يومياً،
وتقول له:

"أنت تطمئنني بأفكارك الجريئة هذه، وأما أنا فرجل
عجوز، يخاف من جر الحبل، ويخشى على حفيده من الاندثار
لا سمح الله!"

- اطمئن يا والدي، فإن كنهان سيكون غداً في أيدي أمينة،
وليس من مصلحة (مستشفى شنغهاي) أن يسوء إلى سمعته
العلمية والطبية، فهم علماء وشركاء معنا في تحمُّل
المسؤولية، وأي فشل علمي أو جراحي - لا سمح الله -
سيجعل أسهم شركتهم العالمية تهبط إلى الحضيض، وتخسر
خسارات مالية مدمرة! الاهتمام بالمرضى هنا ضرورة قصوى
والعرق الصيني لا يرحم في الإدارة، إنه نظام يدفع إلى
التطور بقوة الصاروخ، ولهذا السبب تعاوننا معهم، وصار
الصيني والألماني وطبعاً محسوبك العربي شخصياً، مؤلفين
فكرياً وسلوكياً واقتصادياً ومصلحياً لتحقيق حياة جديدة!
مشكلة كنهان أنه لا يستخدم كثيراً من أجهزته التقليدية،
كالجهاز الهضمي مثلاً، ولا يستخدم رتتيه للتنفس. والتمثيل
الكلوروفيلي الذي يتم داخل جسده يستهلك ثاني أكسيد
الكربون، ويفرز الأكسجين الذي يستهلكه جسمه، وبذلك

يتعادل لديه الأكسجين مع ثاني أكسيد الكربون. ولذلك تضغط رثاءه على صدره، لعدم انقباض وانبساط التنفس. ولكن لا مشاكل أساسية في بنيته الصحية، فهو إنسان رائع يا والدي، فكما تعرفه، رائحة فمه ونقاء حلقه مثل رائحة ونقاء مياسم وبتلات زهر البرتقال، وما دام لا يتنفس، فهو لا يشخر ولا يضطرب!

" هكذا حققتهم يا ولدي حلم الرومانسية التي جاء بها جبران(هل تحممت بعطر، وتنشفت بنور)!"

- ومن الذي يستحم بالعطريا والدي ، ويتنشف بالنور غير كنهان الأخضر وأمثاله؟ صارت الرومانسية واقعية. لقد دمجنا الرومانسية بالواقعية التي كانت مناهضة لها، ورتبنا الكون بهذا الكائن الأخضر!

" أقول لك الصراحة : في البداية أزعجني تجربة تنفيذ أفكارك على أبنائك، وجعلتني غير مطمئن على استثمارية أجيال العائلة، فنحن ناس لنا عاداتنا وتقاليدينا ووطننا الفلسطيني العربي، الذي نعمل على منع انقراضه، ومن أجل بقاء أجياله يركضون على الأرض إلى يوم الدين!"

- أنا منتبه إلى هذه التحديات يا والدي!

" لا أفهم ما يدور داخل هذا المستشفى، فهذه الخرائط الوراثية المتشابكة للكائنات الحية، معقدة، وتحتاج إلى ملايين من الباحثين الكونيين العاملين كفريق متكامل، ليغيروا سلة الحياة على الأرض، ومن ثم يؤثرون في الكون الذي

انتظم خلال مليارات السنوات، وهذا شيء يصعب تحقيقه بهذه السرعة، إن لم يكن ذلك مستحيلاً^٦

- العلم يتطور بسرعة يا أبي، فما نكتشفه في شهر واحد، يعادل علوم ألف سنة مما تعدون. ونحن نراقب صحة كنعان منذ ولادته، ونتابع فحوصاته على الشبكة الدولية، وتتعاون مع أطباء الإدارة في شنغهاي، ونعتقد أنه ليس بحاجة إلى أية عملية جراحية. وأما باقي الفحوصات، فنستطيع إجراءها بالمراسلة. وغداً ستحيط به لجنة أطباء، ويضحصون كل صغيرة وكبيرة في جسده.

^٧ في أيامنا، كانت حتى الدراسة الجامعية بالمراسلة ممنوعة، ليكون هناك علاقات اجتماعية إنسانية داخل الحرم الجامعي. والآن جاء وقت سيطرت فيه المراسلة على كل الوسائل التعليمية^٨

يستأذنك برهان، ويذهب لمشاهدة ولده الأخضر قبل أن ينام، فتستعد بدورك لإجراءات ما قبل النوم !

فبعد مرور عشر سنوات على وفاة زوجتك أميمة، تضطر للتعامل مع هذه المرأة الآلية فرجس، المرافقة لك في الحل والترحال. ففي الوقت المحدد تأتيك ومعها حاجاتك،

^٩ جاء الآن موعد حبة دواء الضغط. ^{١٠} تقول وهي تداعبك: ^{١١} تفضل هذا كأس الماء مع حبة الدواء. ^{١٢} تشربهما

بينما هي تدعو لك بالصحة والعافية والعمر المديد. وحسب ما تطلبها، تجدها ترحب بك قائلة: "دعني أُرِدُّ لك على رسالة سمر." وبعد إرسالها بالمحمول تضيف: "سأقرأ بريدك الرقمي". تقول وهي تضحك "انتبه، تابع معي كي نرد عليه." وبعد قراءة البريد والرد عليه، تقول لك: "لقد غسلت الغسيل، وجففته بالناشافة، فخرج منها مكويًا." تفتح لك على أغاني فيروز التي تحبها، وتدخل معك إلى الحمام، فتحضر لك أشياءك، وتساعدك في خلع ملابسك، وتفرغك، ثم تجفف جسدك بثوب الحمام القطني، وتعود بك إلى سريرك قائلة بحنان: "أرجوك أن تتمدد على السرير، ودعني أدلك لك عضلاتك." فتتنهد: "الله يا نرجس، لقد استرخيت، وزالت كل توتراتي." لولا هذه النرجس الآلية، التي تسألها، فتجيبك، وتطلب منها، فتفتح لك ذاكرتها الرقمية على المجلد الأول من رواية ألف ليلة وليلة قارئة: "وصلنا عند (بدر باسم):

اعلم أيها الملك السعيد أن اسمي (جلنار البحرية)، وكان أبي ملكاً من ملوك البحر، مات وخلف الملك لي ولأخي صالح، فاستضعفنا ملك من ملوك قيعان البحار المجاورين، وطمع فينا، فاغتصب ملكنا، ففضيت من أخي واتهمته بالتقصير، وأقسمتُ أني سألقي بنفسي إلى رجل من

رجال البر. وخرجت من البحر، وجلست على صخرة قرب الشاطئ..^٢ تسرد نرجس روايتها وكأنها شهرزاد القاعدة في حضرة الملك شهريار، وتستمر تمتعك بقراءتها حتى تنام، فتنام معك في سريرك لتؤنسك في وحدتك، وتغطيكي إذا.. فتغضو وتشخر و.. في حضنها دون أن تتضايق أو تزعل منك، فتتأكد أن الرجل الكبير بحاجة إلى امرأة آليّة من هذا النوع!

الخبيرة العربية

سراويل!

تطل في الصباح المشرق الجميل من واجهتك السماوية في الطابق التسعين، المشرفة على البحر كله.. بانوراما ساحرة! وأنت تستعد للخروج مع برهان لتناول طعام الإفطار في الطابق الأول من فندق جوائح تشو.. وفي انتظار جاهزية برهان للخروج معك، تنتقل ذكرياتك مباشرة إلى أيام الصبا. ما زلت مرعوباً من ذلك اليوم الرهيب! يوم نزلنا أنا ومحمد محمد من شقة (أبو جرجس) لتستمع بالبحر الذي هدوءه لا يصدق! وتماماً مثل أهل اسكندرية، يلبس كل ضالّح منا (مايوه) البحر، ونخرج حفاةً باتجاه قفص الحديد الذي يقوم بدور المصعد، فنلتقي جارنا العجوز، الأستاذ محمد اسماعيل مبرور، عضو مجمع اللغة العربية، فنشعر كسباحين ساذجين أننا محرجان أمامه في شبه عرينا هذا، فنقول له: "نحن نعتذر يا أستاذ محمد، لنزلنا (بالمايوه) من داخل العمارة إلى البحر."

ينظر الرجل إلينا، ويبدو أنه لا يفكر بما نفكر فيه، ذلك لأنه يعترض فوراً على كلمة (مايوه) قائلاً: "لا يجوز يا ولدي أن تقول كلمة (مايوه)، والصحيح أن تستبدلها بكلمة سروال". فتجيبه بنفس لغته:

" يا أستاذ عندما تلفظ كلمة سروال، فالمستمع لا يفهم ما إذا كان المقصود سروال جدتي، أم سروال أبي الذي يلبسه تحت ثوبه العربي، أم السروال الذي نذهب به إلى الجامعة، أم سروال النوم، أم الكلوت الداخلي الرقيق لفتاة مراهقة؟" فيضحك محمد محمد، ويقول ساخراً: " كلها صارت (سراويل) "

لا يعرف العجوز الذي يلبس الروب الحريري الأحمر، المعقود بحزام من نفس القماش على وسطه، فوق منامته المخططة، لا يعرف بماذا يجيب، ومع ذلك تتابع قولك: " أنتم أساتذة مجمع اللغة، الذين تضطروننا لقول (مايوه وبنطلون وشورت وكلسون وشروال وبنطلون بيجاما) كي نُمَيِّز كل هذه الأسماء من سروال جدتي. " تتبسم وأنت تقترب منه قائلاً:

" أنتم الذين تخذلون لغة الضاد، وتبشعون التي قال عنها طه حسين: (لفتنا الجميلة) ! فيتضاءل العجوز وهو يجيبك قائلاً:

" الحق على حكوماتنا التي حرمتنا من الريادة في التقنية. فلو ابتكرنا نحن المايوه الذي تقصده، واخترعنا العلوم والفنون وصنعنا الأجهزة الحديثة، لأصدرنا لكل قطعة صغيرة داخل التلفاز أو المضخة أو محرك السيارة أو الصاروخ اسماً عربياً. العيب عيب جامعة الدول العربية التي ولدت محنطة، ولم تستطع أن تنجز مقومات الوحدة العربية ومنها اللغة، فهي

لا تملك الميزانية، ولا الإدارة، ولا الإرادة، لضبط مجمع موحد للغة، تكون كلماته العربية أو حتى المعربة موحدة، وملزمة قانونياً لجميع المتعاملين فيها.^٦

تترك اللغوي محنتاً في تابوت مجمعه، وتنزل من الشقة البحرية إلى رمل الشاطئ مباشرة. نستأجر شريحة خشبية تسمى (فالوكة) تتسع لشخصين. نركبها معاً وكأننا على ظهر حمار، وأرجلنا غارقة في البحر اللجج. ندخل معاً في اليم. ندفع الماء بمجذافينا، جناح ينحدر البحر، وآخر يخرج من عبابه! البحر في هذا الصباح ساكن كلوح زجاج لا نهاية له، ونسيم الهواء الناعم دافئ رطب، وتجربتنا المدهشة سالكة بسهولة، وضحكنا تملأ البحر، وتدفع قلبينا، وتنسينا مرور الوقت.

وهكذا نستمر في التجذيف: يمين يسار، يمين يسار، يمين يسار، حتى نصل إلى ما قبل قبرص بثلاثة سنتيمترات.. ننظر إلى المدى البعيد، وتراقب صفحة البحر المفتوحة على الكون كله. الكرة الأرضية والسموات العلاء! ننظر في بطن اليم. تضاجأ بمشاهدة سمكة ضخمة تتطلق تحت أرجلنا. تدقق النظر! إنها سمكتان ضخمتان. ثلاث سمكات. عدة أسماك رصاصية طويلة جريئة تنزلق تحتنا. لم تكن يومها تعرف سمك القرش من سمك التعريفة. ولكنك تشعر برعب وخوف شديدين!

لا تبلغ محمد محمد بما تشاهد. تحاول أن تقنع نفسك

بأنك لم تشاهد شيئاً يذكر. وتعتقد أنه قد شاهد كل شيء،
ولكنك تنضببط، ولا تُصرِّح بشيء. قد يكون السبب هو عدم
إرباك الرفيق القائد الرائد لهذه المركبة القشرة. وقد يكون
المعنى في بطن الشاعر، والقرش في بطن البحر، والبحر في
بطن القرش، ونحن في بطن البحر، والقرش في بطنينا.
تتجاهل المنظر تماماً. وفي الحقيقة نحن أحياناً نتصرف
بطريقة لا نعرف معها كيف ولماذا ومتى وأين...؟ فزي مثل
لحظات الإرباك هذه، يدور عقلك دورات لانهاية السرعة،
لدرجة لا يمكن معها تفسير هذا التصرف! فلا وقت للتفسير
والمناقشة وبحث جوانب الموضوع. أنت تفكر في شيء واحد
فقط، هو كيف تنجو أنت ورفيقك بزلاجتكما القشرة هذه،
دون نهش أو غرق نهائي، ولا تريد لتحقيق ذلك أية
مناقشات، أو لومة لأنهم، فتسأله: "هل تعرف السباحة يا
صديق؟"

"لا" يقولها هكذا، ويصمت بجبن وضعف واضح في نبرة
صوته! ومثلك يدرك محمد محمد الخوف الذي يمد أظافره
في أعيننا! وأنت لا تسرى استكانة الخوف في عينيه
المحاصرتين بأثياب الموت الزرقاء غرقاً، ذلك لأنه يجلس
أمامك في مركز القيادة. ولكن صمته يفضح جبنه، وعدم
وضوح الرؤيا لدينا.

الأوامر الدماغية والحالة النفسية تكتمان الصورة
والصوت، وتتجاهلان الخوف، وكأن لا شيء يهم. إنه

خوف صامت! صمت خائف! صمت صامت! خوف خائف!
تحاول الابتسام متجاهلاً الموقف، فلا تحس بتجاوب بشرة
وجهك مع الابتسامة المصطنعة! وبقدرة قادر، تديران دفعة
الرقاقة، والتي لا تعدو كونها مجرد شريحة خشبية
مسطحة لا تحمي مبحرين!

تتحول الإسكندرية في ناظريك إلى منظر بانورامي بعيد،
والناس على الشاطئ لوحة تشكيلية حدائية، لا تظهر
تفاصيل أجسادهم، والبحر يتقوس كبطن الحبل، فيؤكد
كروية الأرض، ونحن في السفح الأخفض من سطح البحر،
نحاول تسلق الكرة الأرضية بحراً، وكأننا نمسك بخيط رفيع
مثل خيط العنكبوت، فنشد الخيط، لننزل على زجاج الكرة
الأرضية المائي، محاولين الوصول إلى المياه القريبة من
الشاطئ، فإذا انقلبت (الفالوكة) بعدها، نسبح المترين
الباقين، ولكننا لا نستطيع حتى سباحة المترين الباقين، إذا
ما..!

صرت تشعر بشدة انتمالك للإسكندرية، وحمي في داخلك
مرجل الرغبة المحمومة في الوصول إلى شاطئها. (ما أحلى
الرجوع إليه!)

في هذه اللحظات الفاصلة يسبح حولنا أبو عربي، وجد
عربي، وكل مراكبية وصيادي الأسماك الذين كانوا قد ماتوا
غرقاً في هذا البحر الذي لا يتردد في التآمر على مبحريه،
تشاهدهم بصديرياتهم الأنفوشية الساتان المخططة، والهوامير

المياسة البلطية ذات نفسها! كلهم يخوضون معنا في هذا البحر اللجاج، ويتحلقون حولنا بروائحهم السردينية المحاصرة، وهم يغنون مع فيروز (هيلا يا واسع هيلا، هيلا هيلا مركبك راجع، هيلا هيلا هيلا) لا تعرف ما إذا كانوا يحاولون إغراقنا، أم إنقاذنا من هذه الورطة النهائية. وماذا بهم، فإن أعتى الصيادين من جهابذة البحر قد غرقوا، وانقطعت أخبارهم، فكيف يعودون ويتجمعون ويقتربون منا، ويلاطمون البحر معنا؟ وإذا كان هذا هو ما حصل مع وحوش البحر، فكيف ستصمد نحن الفلاحين الجاهلين، واللذين نفرق في شبر ماء؟ تلك هي المسألة!

يبدو أن عقدة تُفرّق بينك وبين هذا البحر، الذي أغرق (أبو عربي) وجدّ عربي، وكل أهل عربي، وأغرقك معهما قبل أن تولد، بأن طردتك عاديّات أمواجه من شواطئ عكا المليحة! وها هو البحر يطردك من جديد، والبحر لا يُمزج معه.. فهو عالم متكامل، فيه الحياة والموت، وفيه الخيال والواقعية، والبراءة والتوحش، وفيه الجمال والبشاعة، وفيه الماء والعطش!

تصير الإسكندرية منظرًا بعيد المنال، وتشعر بأنها مأواك ومنقذك، وأنكما بهذين المجذافين الذين لا يختلفان عن ذيلي فأرين مبتلين بالانفط، ستعود مع رفيقك إلى قواعدكما سالمين. ترى بأمر عينيك أسماكاً ضخمة تتسابق تحت أرجلكما. تنتبه الآن إلى أنكما كنتما في دخولكما البحر قد

ذَقْتُمَا الهبالة على التنيلة، وتجاهلتما كل أجهزة الإنذار والرقابة. وكى تعيشا، فلا بد من الانضباط الشديد في طريق البقاء والوصول.

يستمر المجذافان يتخبطان بتثاقل في الماء الذي بدأ يدب فيه الموج أسافينه. موجات سطحية أخذت تسبق هجوم الغولة ويأجوج ومأجوج والأعور الدجال وكل هوام البحر المصاحبة للزفة التي تقودنا، ونحن نصمت شاعرين بغلظتنا التي قد يكون فيها حتفنا.

واللامبالاة قد تكون أحياناً ذات فائدة، فكثير من الولاة العرب يعتقدون أن لامبالاتهم بما يمارسون من قهر واستعباد ضد شعوبهم، هو سبب بقائهم في هذا الكون المتطاحن!

تشارك محمد المُجذَف أمامك شعوره بالرعب، ومع ذلك نحن نتقدم بمجذافينا المطواعين بدقة لم تعهدها فوضانا المعتادة.. أنت تعرف كيف بدأت الرحلة، ولكنك لا تعرف كيف ستنتهي بوصولنا سالمين، مستسلمين إلى شاطئ

الإسكندرية!

قدرنا أن نعيش!

ومن يومها لم نبحث الموضوع، ولم نعد إلى شاطئ البحر مطلقاً.

حزب الخضر

تذهب أنت وبرهان إلى مطعم الإفطار الصيني في فندق جوانج تشو، تاركين كنعان الأخضر يسترخي في نومه حتى الموعد المحدد، وعلى طريق المطعم تستنشق رذاذ بخاخ الأنسولين، الذي يحشر أنفه في أنفك في كل مناسبة. وعلى المائدة، يقول لك برهان :

- الحمد لله الذي تخلص كنعان من إشغال نفسه بقضايا الأكل. خاصة وأن تكاليف الطعام في رحلتنا هذه تعادل عشرة أضعاف تكاليف الإقامة في الفندق. ولهذا كان جسمه الكلوروفيلي مصدر اقتصاد في النفقة، وانتصاراً للحياة التي تتلاشى بين مليارات الفقراء المعدمين، والذين لا يجدون لقمة الخبز. وليس هذا فحسب، بل هو توفير للعمر الذي نقضيه في إنتاج وتداول وتحضير الطعام ومستلزماته، والوقت الذي نقضيه في تناول الطعام، وما ينتهي إليه من فضلات تلوث البيئة، فلا نملك الوقت للتحديق والتمتع بجماليات الكون، وتحقيق أهدافنا من الحياة.

تمسح فمك بمنديل الطعام، ثم تسأله : " ترى هل كان لحزب الخضر الألمان دور في خلق الحيوان الأخضر؟"
فيجيبك وهو يمزغ:

- لا أعرف مدى تبنّي حزب الخضر لنشاطنا المتدفق هذا، ولا أعرف مدى تعاون السلطات الحكومية أيضاً، فلمثل هذه الأعمال أسرارها التي تخفى حتى علينا نحن علماءها! صحيح أن حزب الخضر يؤيد خلق كائن أخضر، وقد يكون داعماً ولو معنوياً للمشروع الكبير، ولكننا بالتأكيد، لا نسمح لأي جهة خارج المعهد بالتدخل في حيادية هذا الإنتاج المذهل، لسبب واحد فقط، وهو عدم ادعائهم سبق الاختراع، وعدم مطالبتهم بحقوق، فنحن نشارك حزب الخضر الألماني في كوننا مؤسسة ذات بصيرة إنسانية بحثة، وكلانا يرفض احتكار الجينات الوراثية تحت مسمى (حقوق الملكية الفكرية)، ولا نسعى للربح.

تبدو الفكرة جريئة، رغم عدم اقتناعك بتكاملها. فتقول لبرهان:

" أتمنى أن أعيش لأشاهد إنجازاتكم العظيمة!" فيشرب قليلاً من عصير البرتقال، ثم يقول:

- أظال الله عمرك يا والدي. هذا هو قرن العلوم والأعمار الطويلة. ماذا تريد؟ قلباً؟ تقدمه لك مزرعة الأعضاء البشرية على طبق من فضة. كُلية؟ يقدمونها لك ضمن تأميناتنا الصحية!

يمسح فمه بمنديل الطعام ثم يضيف: لقد أنشأت مزرعة الأعضاء البشرية مدينة طبية إكليرية قريبة من مدينة (فيسبادن)، وقد بدأ نشاطها بمختبرات ومعامل للإكلير بالاستئساخ،

فأخذوا خليتين، واحدة من رجل وأخرى من امرأة نموذجيين في صحتهما وذكائهما وبهائهما، وقبل أن يكثر وهما، تفحصوا خاوطتيهما الوراثيتين، فاستبعدوا من كل منهما أي مرض أو نقطة ضعف، وزرعوا فيها جينات مقاومة لكل الأمراض الوبائية والفيروسية المستعصية. وبعد أن نجحت التجربة، أنتجوا طفلين ذكراً وأنثى بنفس المواصفات، ثم أخذوا خلايا من أعضاء الطفلين النموذجيين، وزرعوها، فأنجبا أعداداً من القلوب والكلى والشرابين والأعضاء البشرية النموذجية، وزرعوها كتجارب لمرضى منتظرين الضرع. وعندما نجحت تجاربهم، اندفعوا بالإنتاج بهدف البيع.

تقوم باتجاه معروضات المطعم، فتحضر بعض الفواكه والخضار، إذ أنك عجوز لا يأكل اللحوم، ولا مشتقات الألبان الدهنية، ولا السكريات، ثم تعود وتجلس فتقول له :
 " لقد اطلعت في الشبكة الدولية على مثل هذه المزارع والمستشفيات التي ينشئونها لتنتج وتبيع لحوم الجنس البشري، والبعض يقول إنهم ينتجون هذه الأعضاء من خلايا سائل مشيمة جنين نموذجي الصحة، فينمونها في المختبرات."
 فيقول برهان :

- صار لديهم أنواع من الشرابين التي لا تنفلق، والتي يزرعونها للمريض بسهولة ويسر.

فتهز رأسك وأنت تقول له :

" أسرار شركات لا توضح عنها، لتحتفظ بما تسميه

حقوق الملكية الفكرية، والذي كان يسمى أيام
الإشتركية: الاحتكار؛ فصار الاحتكار البشع - بقدرة قادر -
حقوقاً محفوظة!

يشرب رشفة من قهوته ليبلل طعامه الممضوغ ثم يقول: -
والأخطر من هذا يا أبي، ظهور شركات مُدمرة لكل المبادئ
والأعراف، لا تنتج الأعضاء، بل تنتج بشراً بمواصفات
محددة، بهدف بيعهم لمن يشتري.

عاد الرقيق من جديد!

- البعض يشتري طفلاً لأنه لا يريد حبلاً ولا ولادة ولا
طعاماً، والبعض يريد مرافقاً لأنه يعيش وحيداً لا مؤنس له،
والبعض يريد شراء خادم له. والأخطر من هذا وذاك، أن
الجوش الحديثة معظمها صار يشتري عساكره بمواصفات
قتالية من هذه الشركات المتخصصة..

يشرب رشفة قهوة أخرى، ثم يتابع قوله:

- ولكن تلك التجارة ليست سهلة، فما زالت تتناقم
معارك صحفية ونيابية وطبية، مطالبين بضرورة وقف هذا
الاستعباد البشري الجديد. لقد ثاروا في وجوه القائمين على
هذه المشاريع صانحين، "كيف تبيعون بني آدم؟" فردّ عليهم
الناطق الإعلامي باسم المزرعة قائلاً:

- نحن الذين نخلق من الخلايا بشراً مستنسخين، ويحق

لنا التصرف بهم كما نشاء. فتقاطع حديثه قائلاً:

" هذا كلام مرفوض يا ولدي، فالإنسان يولد حراً، ولا يحق لأي جهة أن تصدر حياته، أو حتى سعادته، ليعيش بالطريقة التي يراها مناسبة، على أن لا يؤذي الآخرين!"

- ترافعت جمعية حقوق الملكية الفكرية ضد الصحفيين والنواب قائلين: كيف تريدوننا أن نعالج المرضى الميؤوس من حالاتهم؟ هل تريدوننا أن نسرق أطفالاً من الشوارع، كما يحصل في كثير من دول العالم، ونقطع أجهزتهم المطلوبة، ثم نزرعها سرّاً للأغنياء المرضى!

تصور أنهم طالبوا بحقوقهم في التصرف بمنتجاتهم المزرعي بعكس ما حصل داخل معهدنا مع كنعان، الذي أنتج ليكون حراً بلا قيود. فالباحث (بيتر هاينه) والذي جاء من تلك المزرعة، والتزم مع معهدنا في البحث والإنتاج، طالب في بداية الأمر بحقوق الملكية لخلقه الطفل الأخضر كنعان، وقال: إن هذا الولد، هو حق من حقوقي الملكية! فأقمت الدنيا في وجهه، ولم أقعدها، وقلت له بكل قوة:

لقد وثى عصر العبيد يا بيتر هاينه !

" طلبت منك يومها أن تُذكره بقول عمر بن الخطاب: (متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟) والتي أخيراً قامت على أساسها مبادئ حقوق الإنسان في الأمم المتحدة، في ثمانينيات القرن العشرين!"

- فعلاً، قلت له: إن حقوقك الملكية تعني استعباد

المولود! فردّ متفاخراً بعجرفته: "إنه ليس مولوداً، بل مخلوق في مختبري!"

"أيام سوداء، لا تُنسى يا ولدي!"

- قلت له: أنت يا بيتر هاينة ما تزال تفكر بعقلية الشركة التجارية! نسيت أنك قد تعاقدت معنا لإنتاج أخضر حرّ، غير قابل للبيع أو الاحتكار، أو ما يسمى بحقوق الملكية الفكرية. أنت تفكر بعقلية من يريد إرجاعنا إلى عصر أبشع من عصر الإنسان الثاني، الذي يعيش على القتل والقتل والصيد والترمم على الآخرين." ينتهي برهان من شرب قهوة الإفطار، ويحمد الله، ثم يتابع قوله:

- وكان رد المعهد حازماً، لا لبس فيه لصالحنا، وتضامن معنا باحثو المعهد، إذ قال باحث (هامبورغي): "إن حقوق الملكية الفكرية تتضخم وتهيمن لتعيدنا إلى عصر العبودية. وأما البافاري (إيريش مان) فلقد قال: "إذا خلقنا إنساناً مُحسناً، فلا داعي لأن نُعقده، ونكتم فاه من أول يوم، ولا داعي لإبداعه من الأساس!" وعندما سألته: "ماذا كان رد الصحافة، والرأي العام، ورجال الدين في قضية الملكية الفكرية التي تقودها المزارع والشركات التجارية؟" أجاب: "قال رجال الدين المسيحي بأن الخلية مهما كان نوعها، فهي من خلق الله. وقال مضتي المركز الإسلامي: إن أي تحسين أو تحميل على الخلية، لا يعدو كونه تحميل

راكب إضافي في قطار متوقف في المحطة، وإن الله هو الذي خلق الخلية، وإن العلماء العاملين في هذا المجال، ليسوا سوى شيران ترعى في برسيم الله، ويستفيدون من خلق الله، ولا شك أنهم مكتشفون مبدعون، ويُقدَّر لهم علمهم، ولكنهم ليسوا إلهاً خالقاً، فمهما ادَّعوا الخلق، فهو لله، بصفته أحسن الخالقين. ولا يحق لهم ملكية البشر المحسنين. واستمرت معارك حقوقية، واشتغلت المحاكم، وشهدت الكنائس ضدهم، بينما حسدهم علماء منافسون، وللأسف أيدهم البعض! وهذا الدعم الشعبي والقانوني لجَمَّ جشع الشركات الرأسمالية المتوحشة، ودعم نشاطات معهدنا الذي ازدادت إليه التبرعات المالية العالمية، وتسارع عمله بشكل كبير.

ولكن معهدنا، قدَّر موقف (بيتر هاينه) المُشرف في نجاحات أبحاثه المدهشة، فقرر نحت تمثال نصفي له، ونصبه في ساحة المعهد، مع زملائه المبدعين الذين غيروا مجرى التاريخ، وقَدَّم له مكافأة مالية مجزية، أسقطت مطالباته الشخصية. ولا تنس أيضاً يا أبي أن (بيتر) ليس حر التصرف خارج الخط الأحمر، فبعد أن جاءته الأوامر مؤخراً، وعرف أنه ملزم بقوانين المعهد، وقَّع على تعهد بعدم المطالبة بمثل هذه الترهات المرفوضة، بينما احتفظت المؤسسة بحماية إنتاجها الأخضر، ولذلك تراهم يقيدوننا مُسبقاً بالعقود القانونية الملزمة.

تَفْهَمَ بَيْتَرُ خَطُورَةَ المَوْقِفِ، وَرَضِيَ أَنْ يَبْقَى خَبِيرًا فِي
 المَرْكَزِ، وَأَنْ يَواصِلَ عَمَلَهُ فِي المَخْتَبَرِ كالمُعْتَادِ، بَدَلِ أَنْ يَضِيعَ فِي
 عَتَمَةِ الطَّرِيقِ^٢
 نَخَرَجَ مِنَ المَطْعَمِ الصِّينِيِّ ، وَحَبِيبِي پَرهَان الثَّرَافِ، مَا
 يَزَالُ يَبِثُّ عَلَى كُلِّ المَوْجَاتِ !

جامعة الإسكندرية

في الموعد المحدد نلتقي مع حفيدي الأخضر في قاعة الفندق الرئيسية، عند الباب الدوار.. وأنت لا تحب هذه الأبواب الدوارة في الفنادق والبنوك والعمارات الرصينة، رغم فوائدها التي.. ذلك لأنك لا تحب اللف ولا الدوران، وتفضل الدخول مباشرة في الموضوع.

وخارج الباب نستقل سيارة الفندق إلى مستشفى شنغهاي في الشاطبي، فنصل إليه، ولكنك تدهش مما ترى، فلم يبق من تلك الأراضي والساحات شيء يُذكر! أين هو مستشفى الشاطبي^(٥) للولادة والأطفال التابع لجامعة الإسكندرية، والذي أنشئ في أيام دراستنا هنا ليكون مركز خدمات للولادة وطب الأطفال، ومركز تعليم، ومختبرات تجارب لطلاب وأساتذة كلية الطب القريبة من هناك؟ أين هي مباني كلية الهندسة، التي كانت متألقة بطابعها الفرعوني على شارع (أبو قير)؟

(٥) الشاطبي الذي سميت المنطقة باسمه هو الفقيه العلامة (القاسم بن قيرة) القادم إليها من مدينة (شاطبة) الأندلسية غفي القرن السادس الهجري.

وأين هو مبنى الجامعة التراثي، الذي كانت أقواس بنائه الطوبى الجميل، مأخوذة من طراز المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله. تقارن أقواس المبنى بأقواس المسجد الأقصى، فتدرك سبب التطاول على المشهدين. وحيث أن العلماء هم ورثة الأنبياء، فلقد تطاولوا على المسجد الأقصى وعلى جامعة الإسكندرية معاً، بما فيها من عمارات وكليات!

تصور! لقد بيعت الأراضي والمباني كلها لجهة أجنبية بعشرين مليار يوان صيني - ثمن عمارتين في هذه الأيام - فاختمت كل الكليات وإدارتها الجامعية التي كانت تشع من الشاطبي، وتنتشر الحضارة في ربوع الوطن، وجرفت عن بكرة أبيها. باعوها، واشتروا بثمنها حلاوة! ترى هل كانت حلاوة طحينية، أم حلاوة شعيرية من تلك التي كان يتسوّت بها عمال الحضريات؟ فأنت لا تعرف!

تستفسر من المحمول عما جرى للجامعة، فتقول لك الشبكة العالمية: " لقد نقلوا رفاتها إلى جناح في عمارة بعيدة، في مزرعة كلية الزراعة، في منطقة أبيس، والتي تقدر مساحتها بحوالي خمسمائة وخمسين فداناً، وحتى عندما انتبهوا لوجود هذه المزرعة اللؤلؤة في وسط محارة الطين الزراعي، فرحوا بها، وقالوا إنها (لقطة!) فباعوها أيضاً بثمن بخس، فزرعتها الشركة "الاستراتيجية" بهذه الأبراج الناطحات السحاب". وأنت في الحقيقة لا تفهم سبب حشرهم لكلمة "استراتيجية" التي يخوفوننا بها، ولكنك تعرف

أنهم ألحقوا بإحدى عماراتها الخلائية متحفاً أكاديمياً، يحوي آثار معالم عصر النهضة العلمية في ستينيات القرن العشرين، وأشياء من موجودات الكليات السابقة، كدليل على البدايات، تبين كيف تطورت ثم انقرضت مباني المدرجات، وكيف كانت المكتبات التقليدية في عصر ما قبل الكمبيوتر، وقبل التخزين على الشبكة والأقراص المدمجة. حتى الطلاب لم يعد لهم وجود. وبجزة قلم أيضاً، اختفت كل المباني، من مستشفى المواساة، وحتى البحر، ومن محطة الرمل وحتى منطقة الإبراهيمية ومنطقة الرياضة، كلها بيعت إلى شركة صينية، كي تقيم عليها فرع مستشفى (شنغهاي الدولي) وما لها من مشاريع وأسواق عالمية، وميادين ترفيه متطورة، ومعارض دولية من المركبات والسيارات والطائرات، ومواد البناء وهياكل مجسمات البناء المعروضة للتعريف بشركاتها، وحتى الملابس والتموين والأدوات المنزلية الصينية، وهذه الفنادق الصينية المجاورة لمكتبة الإسكندرية!

وأما الدراسة، فكما نعرف، صار الطالب يقعد داخل بيته، أو في مركز المعلومات المتخصص، فيربط دماغه بجهاز الكمبيوتر، هكذا، كما تسجل أسطوانة أغانٍ، أو فيلماً سينمائياً من خلال الكمبيوتر، ويسجل فيه مادة العلوم أو الدين أو الأدب أو الهندسة. صرت تسجل أسطوانة المادة العلمية على خلايا دماغك، فتقوم من تحت الأسلاك المشبوكة برأسك وقد أخذت المادة واستوعبتها، كما كان

الذيك البلدي يكبس الدجاجة، فيقوم بالسيطرة عليها، والإمساك بجسدها بملاقط رجلية، ثم يكبسها، وخلال شوان معدودات، تقوم الدجاجة تنتفض ملقحة جاهزة من تحته. صارت تسجيلات المواد الدراسية تتم هكذا، فيكبسون دماغ الطالب أو الطالبة في غضون دقيقة واحدة، أو أكثر! لم تعد للمدرجات الجامعية حاجة، ولم تعد هناك طالبات، ولا طلاب يأتون أو يذهبون، ولا سكن طالبات يمارسن فيه خبرات الحياة الاجتماعية. وبعض أنواع الشعوذات والتعويذات قبل النوم.

وكما قال الدكتور محمد الريشة، الذي كان يُدرّسنا مادة القانون الدولي، وهو يشاهد بعض الطالبات يخرجن من المدرج قبل أن تنتهي المحاضرة برّبع ساعة، إذ يبسّدن بالانسحاب واحدة بعد أخرى.. وعندما صار خروجهن عادة يومية، قال ساخراً، وهو يضحك: "يا أخي، البنات دائماً مستعجلات جداً، فلا يقفن في طابور تذاكر، ولا يعترفن بالدور، حتى لو كان في طابور الجمعية. وأما هنا، فقبل أن تنتهي المحاضرة، تجدهن يخرجن عصبيات المزاج، وقبل أن تصل الواحدة منهن إلى غرفتها في السكن الجامعي، تخلع حذاءها وترميها في سقف الغرفة، وربنا يستر ما تخلع حاجة ثانية!" ضحكنا كثيراً على "الحاجة الثانية"! كان العجوز ساخطاً على المرأة، فلقد ذكر لنا مثلاً على مفهوم التعاون في القانون، يقولون إن ماري كوري وزوجها هما اللذان اكتشفا إشعاعات الراديوم الذرية. والحقيقة أن زوجها هو

الذي اكتشف الراديوم، وكانت زوجته تغسل له هذومه. يعني في مفهوم القانون! تعاون! فقالوا: (هي وزوجها).^٢ وعلقت صبية كانت تجلس خلفنا في المدرج، قائلة: "تلاقي مراته موزياه الويل في البيت، فيأتي إلى هنا ليستد شأره منا، يا حسرتنا!"^٣

ندخل بهو مستشفى شنقهاى، فيستقبلنا أحد الرجال الآليين الذين يتحركون خلف حاجز الاستقبال، فيعرض عليه برهان رقم ملف ولده المدون على جهازه المحمول، فيطلع الرجل عليه، ثم يستقبلنا بحفاوة وترحيب، ويطلب سيارة نقل سريرية، فتحضر الآلية مسرعة، فينام فيها كنعان، وتنقله حالاً إلى غرفة الفحص، ونبقى أنا وبرهان واقفين في القاعة، يحدق كل منا في وجه الآخر، بينما تتقدم إلينا امرأة آلية، فترحب بنا وهي تبتسم، وتدعونا للجلوس في غرفة الانتظار. ودون سؤال، تذهب وتعود بعد دقائق وهي تحمل بيديها صينية عليها إبريق من الشاي الصيني الساخن وكأسان صينيان أصليان مزخرفان برسومات التنين الأزرق. تنحني المرأة أمامنا واضعة الصينية وما عليها على المنضدة، ثم تصب الشاي، وتقدمه بكل حفاوة وأدب، ثم تترك الإبريق على المنضدة، وتعود أدراجها.

"هذا الكرم الصيني الأصيل" تقول لبرهان "معناه أننا سننتظر كثيراً حتى متابعة نتائج الفحوصات." "يشرب برهان فنجاناً، ثم يقوم مستأذناً منك، ويذهب ليتباحث أو يستعلم

عن الترتيبات المعدة لابنه، بينما تحاول تجاهل القلق الذي يعتريك على مصير حفيدك الأخضر، وذلك بتوجيه تفكيرك نحو التحسر على ذكريات شعب من الجامعيين، أزالوها من الوجود. تفكر في عمرك الذي مضى وانقضى بلمح البصر.. دُفِّلَت صفحات التاريخ، الذي لم يعد لك، ولا لطلاب جامعتك.

لو أننا استمرينا دون تلكؤ في طريقنا إلى الأمام، لتحقيق أهدافنا، لكنا قد أنجزنا أشياء كثيرة لا لو تابع الروائي أو الباحث القراءة والكتابة منذ عرفها وحتى الممات، لأنجز أضعاف ما أنجزه وهو يواجه سكرات الموت دون أن يحقق أهدافه. تجد كلاً منا يتأوه لأنما نفسه^٦ لقد أضعت الفرصة الفلانية، فحسرت الشيء الفلاني. لو اشتريت قطعة الأرض التي عرضت عليّ بثمن التراب، فأصبحت الآن بثمن الذهب، لصرت... لو تابعت دراستي للدكتوراة، لصرت... ولكن ماذا ستصير يا...؟ فلقد صادفت الدكتور محمد حنفي (أبو الهندسة المدنية)، في أحد أسواق دبي، وذكرته بنفسيك. لم يتذكرك طبعاً. وبعد حديث عن أيام قاعة الرسم التي كنا نتقاسمها مع طلاب هندسة العمارة وهندسة الميكانيك، عرف أنك أحد تلامذته، فقال لك: "لقد جئت هنا يا بني لألقي محاضرة في بناء الهياكل المعدنية".^٧

كان الدكتور العظيم - يا حرام - ينزل في فندق بلا نجوم، ويأكل معلمات أدينا التي أحضرها معه، ليوفر كل

قرش يأخذه لقاء محاضراته، كي يشتري بتوفيرااته جهاز كمبيوتر حديث، يأخذه معه، وهو عائد إلى وطنه. وعندما سألك عن عملك قلت له: "إنني أشارك في مكتب هندسي، بنسبة ٥٠ % من الأرباح" فقال وهو ينفخ بحزن: "ليتني عملت بالشهادة الجامعية الأولى، ولم أأخذ الدكتوراة" أنا أضطر للتظير المستمر، بينما أنتم مهندسو البكالوريوس، تأكلونها والعلة "ضاع الدكتور محمد حنفي وضاعت معه جامعتة، ولم تبق سوى مكتبة الإسكندرية التي تفتح فمها لتدفق مياة البحر، المتصاعد منسوبها بفعل الحرارة المرتفعة!

خناقة اسكندراني ١

بينما أنت تراقب الداخل والخارج من مستشفى شذفهاي
اسكندرية في الشاطبي، تسهو، وتروح تتخيل أيام زمان
الجميلة، فتشعر بحنين يشدك إلى الشهيد محمد محمد
محمد، فأخلاقه وسرعة بديهته خاصة في السخرية
المضحكة، التي كانت ترفقه عنك، وتنسيك عذابات عمرك،
فتجعلك تعدّه صديقك الأوفى في حياتك الجامعية، فكثيراً ما
كنا نمزح ونضحك، وأحياناً نقرأ نفس المسرحية لمؤسس
المسرح العربي (أبو خليل القباني)، أو نفس الرواية لفسان
كفصاني، ونتعلم من أفكار محمود أمين العالم، وفي بعض
المساءات، نذهب سوياً إلى محطة الرمل، فنبدأ مشوارنا
بتصفح الصحف المعروضة أمام موقف الترام، وما فيها من
سطور رئيسة نقول:

♦ اكتمال كليات جامعة الأزهر الشريف بتوجيهات السيد
الرئيس.

♦ الأزهر يتحول من مجرد مسجد، إلى منارة جامعة
للعلم.

نقرأ ذلك، ثم نسير في الزحمة بين الناس، حيث ازدحام

المكان عند ملتقى شارع صفية زغلول بشارع سعد زغلول. وهناك بين الجموع المتراصة المتحركة، تشاهد فتاة تسير متأبطة ذراع شاب طويل، نحيل الجسم مثل قرن الخروب، ويبدو متوتراً وهو يشد بذراعه على يدها المعتقلة تحت إبطه، بينهما يحشران نفسيهما معاً في الزحام، مسرعين باتجاه مكان ما. الصبية تنورتها قصيرة، لا يزيد طولها على شبرين، ولا تكاد تحتوي قاعدتها المناسبة بتضاريس أنثوية تبرز جمالية ربلتي فخذيهما.

يدهشنا تحرش يد أحد الشبان بمؤخرتها، فتجمع المهرة وتنفض وتصرخ، فينتبه الشاب المبهور بأنثاء، ويستنفر ضد المعتدي، ويقول له بغضب: "مش تفتح يا أخيها انت لا" فيعتذر لهما المعتدي بإيماء رأسه قائلاً: "أنا أسف." فيقبل المرافق اعتذار المعتدي فوراً، وذلك بإشارة من رأسه، "معلش" ويستمر كل منهم سائراً في زحمتهم لا نندهش

نحن الفلاحين الغربيين عن المدينة، فيقول محمد:

- هذه (خناقة اسكندراي) والله لو تحصل مثل هذه اللطمة عندنا في الفلاحين، فلن يغسلها سوى الدم الذي يجب أن ينظر، إما من اليد التي امتدت، أو من أنف المعتدي! وإذا كان هذا التحرش في الصعيد، فقد يفقد المعتدي روحه في الحادث! "يا لطيف لا تقول له، فيسألك،

- كيف تتصرفون عندكم في مثل هذه المشاكل؟

” مثل هذه المشاكل لا تحصل عندنا لسبب واحد فقط،

وهو أنه لا يوجد عندنا ازدحام. الزحام هو السبب! ”

نضحك وتتابع سيرنا إلى سينما مترو حيث كنت قد دعوته لحضور فيلم (الرحلة العجيبة)، والذي يعرض فكرة تصغير فريق من الأطباء البشريين، فيدخلون من مسام جلد المريض إلى شريانه التاجي ثم إلى القلب، ويزيلون من طريقتهم الشرياني والوريدي كل الانسدادات الدهنية، واحتشاءات القلب، ثم يخرجون من بؤبؤ عينه.

ذلك الفيلم الذي استفاد من فكرة أقزام وعماققة ألف ليلة وليلة، والتي قلدها الغرب فيما بعد في (جوليفر في بلاد الأقزام)، و(جوليفر في بلاد العملاقة). فكرة مذهلة ابتكرتها الآداب العربية! واليوم تطور الطب، فصاروا يرسلون فريقاً هائلاً من الأطباء الآليين، كل منهم بحجم رأس الدبوس إلى شرايين الإنسان وأوردته، فينطلقون في دمه وهم ينظفون الترسبات الدهنية، ويعالجون تصلبات الشرايين، ويهاجمون الخلايا السرطانية، ويزيلون احتشاءات القلب، فيعيدون الشيخ إلى صباه!

يتابع برهان فحوصات والده، ويقضي وقتاً في مناقشة الخبراء والأخصائيين، بينما تبقى في قاعة الانتظار، تجتر ذكرياتك القديمة،

الآن تعرف سر رفضك للبحر والسباحة فيه، فأنت لم تستمتع بصيف الإسكندرية، ولا مع المصيفين فيه، الذين

يخرجون من أشوابهم ، وينطلقون مع مدى واسع أزرق، من
التحرر والنشاط والمحبة، نحو غسل تعقيدات الحياة والعمل
ونقعها في مياه مالحة، تُخرج منها الجن الأزرق والشياطين
والحقد والحسد وكل أدران الزمن.

تفتح شباك غرفتك في بيت (أبو جرجس)، فلا تنظر إلى
البحر، بل تبقي عينيك تحومان فوق شارع الكورنيش،
تراقبان الطير الطائر، وذاك الرجل المومياء الذي يجلس
قبالة كانون الفحم، يشوي الذرة الصفراء، ويبيعها للمارة.
وهاتين الفتاتين العائدتين من البحر، بمايوهيهما البكيتين،
المزركشين بألوان (داثرة قزح)*.

وهجأة، ودون سابق إنذار، تحس بأصابع رقيقة تمتد من
خلفك، وتلتف بنعومة على وجهك، لتغمض عينيك. تمد
يديك لتفك العتمة عن عينيك، فإذا بها الصغيرة تهيتي. لا،
ليست صغيرة، ولا أنت كبير، فهي في السابعة عشرة من
عمرها، وأنت في الثامنة عشرة، ودون أن تواجهك، تقبلك من
رقبتك، ثم تهرب!

لم تكن تتصور في يوم من الأيام أنك ستغرق في غرام طفولي
مع تهيتي، التي لم تترك حبها لك ينمو كالبادرة. فلقد

*وجدنا في منكرات المرحوم أن اسمها (داثرة قزح)، وليس قوس قزح. إذ شاهدها
وتأكد منها، أثناء زيارته لشلالات شياجارا. (المخابرات الخاصة).

عرفتُ أن محمد محمد يخرج إلى الكلية قبلك، ولم تعرف-
 لا هي، ولا أنت - أنه لا يسبقك إلى الكلية، بل إلى مطعم
 الدمنهوري، فيساعد الحاجة عليّة في تبديل أسطوانة الغاز،
 وتنظيف أدوات المطعم، والطاولات وحتى البلاط. كل ذلك
 مقابل إفطار وعشاء مجانيين، هو غير قادر على دفعهما،
 فيوفر وجبتين، متجاهلاً وجبة الغداء، لأن فطار الضول،
 وعشاء المقالي، يعملان صبة باطون مسلح في معدته، فيقيانه
 شر الجوع ظهراً. وأما أنت فبعد عدة أشهر استطعت أن
 تضبطه وهو يقوم بالعمل، فتجاهلت الموقف كي لا تخرجه، إذ
 كنتما مقتنعين بأن العمل شرف! والا فكيف سيدفع محمد ابن
 عامل الكهرباء المنصوري تكاليف الحياة الجامعية التي لا
 ترحم؟ فأبوه لا يرسل له سوى.. ليس هذا هو الموضوع، بل
 هي قيتي التي انتهت لغياب محمد في الصباح والمساء. فأطلت
 عليك في الصباح التالي، وبيدها ربطة عنقها المدرسية قائلة:
 اربطها لي، فأنا لا أعرف كيف أربطها!

تقدّم تيتي وجهها إلى وجهك، وأنت تعقد الربطة على
 ياقبتها، فتحس بأنفاسها الساخنة وهي تُقرب شفيتها منجذبة
 نحوك. وشفتا نيفرتيتي لا يمكن إنصافهما بالوصف، ويعجز
 كل رواة العرب عن وصف جمالهما الشهي الأخاذ، فهما بضتان
 غضتان، كستنائيتان، مكتنزتان بعسل البحيرة، ومستنسختان
 من شفتي الملكة نيفرتيتي. تقرب شفيتها من شفتيك، فتتنفس
 حرقلة مراهقتها الساخنة الأنثوية في وجهك،

وتتلكأ أنت بغبائك وجبنك، ورفضك للنعم التي أنعم الله بها عليك! لست شاعراً لتصف رقّة وبهاء طلعتها التي تثير في جسدك مكان من الرعونة، وتلهيك من قمة وجهك، وحتى منخفضاتك المندفعة بخصوبة نحو الأمام، تريد أن تثقب قيودها!

تلف الربطة الزرقاء الكحلية حول عنقها، وتأخذ بعقدتها تحت ذقنها، بينما هي تقترب منك وتضغط باتجاهك، تاركة يديك تتمطيان فوق عنقها ونهديها اللينيتين الصليبتين السافرتين، وتنظمان ربطتها، لتسدلى على ثوبها الأزرق الفاتح. تلمس في طراوتها وتثنيها سيالاً مغناطيسياً يذيب كل ثلوجك! وصوتها المشلوح من ناي سحري يستقوي على أحاسيسك، فلا تقوى على معارضتها.

لأول مرة تضع يديك على جسد فتاة زنبقية ربيعية. ها هي نيفرقيتي تهب نفسها لك، أنت الذي لم يعرف للحب درياً، ولا للبحر طريقاً، فتستلمس حضورها الذي يسحر العقل والقلب معاً!

ونيفرقيتي أصغر عمراً من نادية، وأطول عوداً، وأقل امتلاءً، وأبهى طلعة، وأكثر جرأة وشقاوة عيال، وهي أصلاً لم تترك لك مبادرة حبها، أو مغاللتها، أو ضمها إلى صدرك، ولم تستدرجك إلى غرفتها، ولم تستعطفك كي تحبها، ولم تحسب لك حساباً حينما بادرت هي بكل شيء، وغزتك في عقر غرفتك، بحجة ربطة العنق.

وبعد عدة زيارات تستسلم لها، إذ تضمك هذه المرة إلى صدرها، بينما فكرك مشغول بكونك تعيش في بيتهم، وأن ذلك التصرف لا يجوز مع من تعيش معهم، ولكنك تدوخ بها! تأخذك تيتي من نفسك، ولا تترك لك فرصة لالتقاط أنفاسك! أول مرة تتذوق فيها طعم أنثى، وتشم رائحة أنفاسها الساخنة الشهية. وأية أنثى هي تيتي! إنها شعلة منقولة مباشرة من الجحيم، ومزروعة بأمان وطهارة دير، ومعجونة ببراءة راهبة، ومطلّة عليك من جنات النعيم، فتفرقك في ثناياها، وتحرقك بجسدها الملتهب، بينما أنت أيها المغفل، تفكر بقول الوجودي سارتر: "إذا أردت عمل علاقة غرامية، فعليك أن تبتعد عن أقاربك وجيرانك!"

وتيتي هي أقرب الجيران إليك، ولكنها ليست جارة بمعنى الكلمة، بل حورية من حوريات البحر! يقولون إن الحورية تخرج أحياناً من البحر، وتصعد عمارة قريبة، أو تدخل بيتاً، وتتماهى في جسد فتاة ساحرة الجمال، ومن خلالها تعشق حبيباً، وتنشيه بحبها، وتلاعب فيه بشقاوتها، وتفرقه بشغفها، وتلهب مشاعره بتثنياتهما وحركاتها السابحة فوق السرير، وقد تأخذه معها إلى مواقعها البحرية، حيث تعيش معه هناك في سعادة وهناء! لست متأكداً من تماهى الشخصيتين، نيفرتيتي والحورية معاً!

هل سبب عدم انصهارك في حب جارف مع تيتي، هو خوفك من كونها فعلاً حورية من البحر؟ وهل ظهرت عليك

الحدورية ثيفرقيتي وأنت في خضم البحر مع محمد محمد،
فأنقذتكما من الفرق البحري المحقق؟

ها هو برهان يعود متفانلاً كما يبدو من وجهه البشوش :
- لقد نجحنا في الامتحان يا أبي! كل الفحوصات تؤكد
صحة جسده الأخضر وتفوقه على صحة الإنسان التقليدي.
خلال ساعتين، سيكون كنعان خارجاً من المستشفى نهائياً!
يربت برهان على ظهره وهو يقول لك:

- تخيل متعة الحياة على الأرض، عندما يتحول عرق
الناس والحيوانات الخضراء إلى نتج كالندى النقي، وتختفي
المراحيض من البيوت، وتتوقف مجاري النضج عن الانسياب،
وتعود للأشجار بكارتها النقية، فتتساقط رقائق خالية من أي
سوء، ولا يعود إنسان أو حيوان يبول فيلوث الماء، ذلك لأنه
لا يوجد بول أصلاً، ولا يتلوث الهواء بالغازات المدمرة للحياة
على الأرض، وتتوقف تجارة الهواء الذي صاروا يبيعونه لنا
معلباً، وتعود حرارة الكرة الأرضية للتوازن، كما كانت عليه
أيام نقاء البيئة، صافية مريحة للنفس. يدور برهان حول
نفسه فرحاً وهو يقول:

- حين لم تقلع الأديان ولا الأمم غير المتحددة في
زراعة المحبة بين الناس، وفي تقليد أظافر النمش والقتل
والتدمير والاستيلاء على الآخرين، نحن نقوم بالمهمة.
الوراثة تقوم الآن بتحويل جينات الإنسان والحيوان القائمة
على الاعتداء على الآخر، إلى جينات محبة للآخر، وتقوم

بإطالة عمر الإنسان وكل الكائنات الحية، لتغيير فلسفة الحياة، وتحويل الصراع إلى التناغم والتكامل. نحن نسعى لخلق الجنة على الأرض. الآن تختفي أماننا مقولة: إذا لم تكن ذنباً أكلتك الذئاب. وتستبدل بعبارة الإنسان مفكر مبدع جميل، وفنان محب، ورفيق بأخوانه: الإنسان والحيوان والنبات.

تدنتش وتسمع ضربات قلبك بأذنك خفاقة، وأنت تستمع إلى أخبار كنعان، وإلى هذه الطموحات العظام، فتبتلع حبة أكسير الحياة، وتشرب قليلاً من الماء ثم تسأله: "وإلى ماذا ستؤول مزارع الأطفال والأعضاء البشرية؟"

- إلى الانقراض طبعاً. ومن المفروض أن تنتهي مع تقدم إنتاجنا الأخضر الذي سيسيطر على الكون، مثل السيارات القديمة المنقرضة والتي كانت تسير بالنفط، والآن تسير بالهيدروجين. سينقرض جيلنا نحن القدماء المتصارعين، فلا تعود الشركات تنتج قطع غيار لنا، سواء كانت أعضاء بشرية، أو أعضاء اصطناعية. سنطور بأيدينا الإنتاج الذي سيكون مخصصاً لخدمة الجيل الأخضر. ترى كيف تعمل كليتك الصناعية، التي زرعناها لك في فرع مستشفى (شغهاي للكلى في بريمن) يا أبي؟

"كليتي الصناعية تعمل جيداً. لولاك يا برهان، لكنت منذ زمن بين الهالكين. ولكن قل لي، ما هو سبب تعاملكم

الحصري مع هذا المستشفى الصيني العملاق، بفروعه المنتشرة في مختلف مناطق العالم^٦؟

- الصينيون يا والدي يسيطرون على عصب المراكز الاقتصادية العالمية، لقد اشترت شركة مستشفى شنغهاي الصينية الدولية معظم أسهم (شركة مان الألمانية الطبية الخضراء)، وانتشرت فروع المستشفى المتخصصة في معظم بؤر العالم الرئيسية، ونحن نثق بمختبراتهم، وتعاون معهم بما يخصنا من أبحاث وتجارب، ومعالجات لمشاكلنا الطبية. هذا التتبع الصيني الأصفر الداهية ينتشر في العالم بسهولة ويسر، إنهم لم يفشلوا كما فشل دكتاتوريو الاتحاد السوفييتي، الذين تحطموا على صخور الغرب التي لا ترحم. هؤلاء لهم سواعد فولاذية، ولكنها مغطاة بالحديد الصيني الناعم، والمشغول بدقة ومهارة!

^٦ التاريخ يا برهان مثل موج البحر، يرتطم بصخور الشاطئ، ثم يرتد، مدحوراً، ولكنه يلم شتات نفسه، ثم يهاجم الشاطئ من جديد^٧

سمكة كبيرة ١

يعود برهان لإتمام أوراق كتبه ان وإخراجه معنا، بينما تبقى أنت جالساً تنتظر الفرج، وتجتر ذكرياتك القديمة في اسكندرية، إذ كنت في الصباح الباكر تنزل لتدرس ماشياً على رصيف شاطئ البحر.. الرمال والمكعبات الإسمنتية والصخور والبحر على يمينك، والأبواب الخشبية الواسعة للشاليهات الصغيرة المتراسة تصطف على يسارك كحزام خشبي يُزَلِّد خصر الإسكندرية البحري. تلفتك سمكة كبيرة تتأرجح على سطح الماء، تراها تقترب من الشاطئ، يبدو أنها داحخة! قد تكون سكرانة من كثرة ما شربت هذه الليلة في بارات بحر اسكندرية وملاهيها، فلا تعرف بيتها بين الحوارى والأزقة البحرية! قد تكون مريضة، وقد تكون مضروبة بالطوربيد البحري الذي يُفَجِّر به بعض الصيادين البحر، فتنبثق منه بعض الأسماك المضروبة، وتطفو فوق سطح الماء. ما هو الطوربيد؟ فأنت لا تعرف. هذا ما قاله لك أبو جرجس وهو يلتهم السمكة على طاولة المطبخ..

تضع كتابك على رمل الشاطئ، وتمد يدك لتمسكها. أنت الذي ينطبق عليه مَثَل (من يمسك سمكاً في بحر)، شيء

مستحيل طبعاً أن تمسك سمكاً في بحر، ولكنك تحاول. ثم يدك، فتغطس قدمك، ويغرق حذاؤك في مياه البحر، ولكنك ما تزال مسيطراً على الوضع، فالسمكة تتجنى نحو الصخور، ثم تتخبط في الماء، وتحاول الابتعاد. وبعد مناورات لزجة، تمسكها بيديك، وتخرجها من البحر، فتشعر أن وزنها حوالي ثلاثة كيلوغرامات.. تحملها مندهشاً وتركض بها إلى الشقة، حيث يفاجأ بها أبو جرجس، وتتناولها منك أم جرجس ثقيلة بين يديها، ثم تمددها إلى جوار مجلسي المطبخ. ويستلمك أبو جرجس وهو يبخلق في وجهك باستفساراته، بينما أنت تراقب بقايا أذنه المقطوعة وهي تهتز.. وهات يا سؤال، وخذ يا جواب،

“من أين حصلت عليها؟ وكيف؟ ومتى؟ ولماذا؟ ومن كان معك؟”

أسئلة كثيرة، يتلوها فتح خيشوميهما، والنظر في عينيها، ثم تقلبيها من جانب إلى جانب.. والنتيجة أنها سمكة من نوع مياس معتبر، حسب تقرير الخبير (أبو جرجس). وتطمينه لك أنها بصحة جيدة، وأنها الآن في أيدي أمينة، ثم يبلغك أنك معزوم على غداء المياسة مع العائلة في هذا اليوم.

“كرم كبير والله يا (أبو جرجس). طيب ومحمد؟ فيُغلب الثرثار على أمره ضاحكاً: “ومحمد ومحمدين كمان لا أمرنا إلى الله”

تقعد معهم في المطبخ، لتتفرج على ما سوف يكون، بينما تقوم أم جرجس، فتنظفها وتبهرها، وتقطعها، ثم تغلفها بطبقة من دقيق الطحين، وتقليها بالزيت، فتخرج مُحَمَّرَة مُقَمَّرَة شهية الرائحة، فتأكل معهم أنت ورفيقك حتى تشبعون. إنها أول سمكة شهية تذوقها في حياتك!

ليس سراً أن (أبو جرجس) يغيب عن البيت غياب النسر، ولا أحد يعرف إلى أين يذهب، فمنذ أن أمموا وكالته التجارية الأمريكية، ومزرعته السعيدة، وهو (ملطوش نصف لمشة) رجل ثائه بلا رباط. يذهب ولا يعود، وفي بيته ينام فلا يقوم، وفي لياليه يشرب فلا يرتوي حتى يسكر، فيروح يهذي، ولكن الذي يعجبك فيه، أنه يضحك كثيراً!

تخرج أم جرجس مع صغيرتها نوسا وطفلها جرجس، ضجرة من عيشتها المرة، وترفض تيتي الذهاب معهم إلى عمته هيلين، بحجة أنها لا تحب عمته من جهة، ومن جهة أخرى بحجة دراستها، ولكن عندما يخلو لها الجو، تترك كتبها قائلة: (إياكش تولع!) فتنتلق وتدخل غرفتك مثل الكرة المقذوفة باتجاه الهدف، شغفاً للارتقاء في حضنك، وشم أنفاسك، وامتصاص رحيقك بقبالات ساخنة! ومع مضي الوقت تقعد معك على سريرك لتبلغك أحاديث ما أنزل الله بها من سلطان، اسكت، اكتشفت سراً عجباً! تقول لك وهي خجلة "سرّ مدهش!"

- يا ساتر! وما هو هذا السر المدهش ؟
- "هل تعرف أن أمي مسلمة، ومن فلاحين البحيرة؟" تخفض نظراتها خجلة وهي تتابع "إنها لا تذهب إلى دار أهلها، وهم يقاطعونها، فلا يدخلون بيتنا!"
- شيء غريب يا قيتي! وماذا أيضاً ؟
- "إنها تصوم شهر رمضان كله!" تلتصق بك وهي تكمل:
- "معنى ذلك أنها ما تزال مسلمة!"
- وكيف تأكدت من كونها..؟
- "شاهدت شهادة ميلادها." ثقبّل أنفك بأنفها، وتعيد فركهما مداعبة وهي تتنفس أنفاسك، ثم تُغرق شفطتها في شفطيك في انزلاقات لذيدة تأخذ وقتاً طويلاً، وبعدها تأخذ نفساً عميقاً ثم تقول:
- "مكتوب فيها: الاسم فاطمة محمد عزيز. الديانة (مسلمة)."
- ولكن لماذا تراقبينا؟
- "يا حبيبي أحاول أن أتعرف عليها، أليست أمي؟ أسرت إلي أنها تذهب إلى الشيخ عرفات، إمام جامع سيدي جابر! من يعرف؟ فقد تكون تعترف له، وقد تكون تبكي بين يديه! كنت أراقبها، فعندما يعلن المدفع عن عيد المسلمين، تقعد تبكي بصمت، لأنها محرومة من لقاء العيد مع أمها وأبيها وإخوانها، الذين لا أعرف عنهم شيئاً. أنا أحب أمي

يا مشهور، وأحبك مسلماً، كما أحبّ أبي أُمي المسلمة! ما رأيك أن أقلد أبي، فأزوجهك وأنت مسلم، فأخلف لك أطفالاً مسلمين، كما خلّفت أُمي له أطفالاً مسيحيين؟ ولكن قل لي: لماذا يولد أبناء المسيحيين مسيحيين، ويولد أبناء المسلمين مسلمين، فيتعصب كل منهم إلى دين أبيه، وتختلف توجهاتهم دون مبرر؟

لا تستطيع أن تجيبها، لأنك غارق في شبق لذتها، ومنتشي في راحة أنوثتها المتلفة لجسدك الغرير، ولا تذكر أن تقول لها: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ).^١ يبدو أن أبي قد تعرّف عليها هنا، في هذه الشقة، وكان له معها علاقات غرامية! وبعد تورطها معه، وحملها إياي منه، وعشقه لجمالها الأخاذ..! تعرّف يا مشهور، كانت أُمي ملكة جمال. ألا ترى أنها بيضاء وطويلة وجميلة جداً، حتى بعدما كبرت؟ قد يكون هذا هو سبب تورط أبي معها وهو الأسمر والقصير القامة.... ولهذا كثيراً ما نسمعه وهو يغني لها مداعباً: "البنت بيضاء، بيضاء بيضاء! البنت بيضاء وأنا اعمل أيسه؟"

ولكن حبه الشديد لها أيام صباها، وخوفها من القضيحة، ومن القتل الانتقامي لفلس العار، كما يقولون في فلاحين البحيرة، اضطره للزواج منها، واضطرت هي للهروب من بيت أهلها، والاختفاء عنهم نهائياً، والحياة معه في بيت

الخلوة هذا! وأنت تلاحظ أن أذنه مقطوعة، وهو يقول إنه
تقاتل مع الفلاحين الس... والحقيقة أن الذين يقول عنهم
حرامية، كانوا من أخوالي، وهم الذين اشتبكوا معه، فهجم
عليه أحدهم وأكل أذنه! كانوا سيجهزون عليه، لولا أنه فرّ
واختفى منهم، ولم يكونوا يعرفون مكان شقتنا هذه. كانوا
فقط يعرفون عزبته التي باعها بالرخيص، خوفاً من عودتهم
لانتقام!

وبعد تأمل طويل تسألها :

- ألهذا السبب تجديته يشتم الفلاحين، ويشنّ عليهم ؟
" الفلاحون يا (أونكل) شاروا على وضعهم المزري في
عزبته."

- ولكن لماذا تقولين لي، يا (أونكل) وأنت تصغريني بسنة
واحدة ؟

" أمي وأبي يجبراننا أنا وأخوتي نوسا على أن نقول
للساكين معنا :

(يا أونكل)، كي لا تقع غراميات بيننا وبينهم."

- أنت ممثلة بارعة يا تيتي!

" صحيح أنني أمثل في كلمة (أونكل)، ولكنني صادقة في
حبي لك دون تمثيل."

- هل كانت أمك فلاحا عاملة عنده في العزبة، ففرر بها
أو اعتدى عليها؟ أم إنها هي التي قدمت نفسها له، عاشقة
طاشة ؟

" لا أعرف الحقيقة. كل الذي قالته لي أنهم كانوا يحصدون القمح، ولكنهم كانوا ينامون جوعى، ممنوعين من (إردب) قمح هو كل طعامهم، وليس لهم إلا ما يسرقونه، فلما فسد له جاسوس كان يضعه بينهم، قامت الدنيا ولم تقعد، وهات يا جلد! واشتغلت كراييج الخديوي، ولكن الفلاحين يومها ثاروا وقال كبيرهم: لقد تحملنا الجوع، ولكن كرامتنا لا تقبل الضرب! وصاح بأعلى صوته: يا رجال رُدّوا له الصاع صاعين. الكرامة ولا المهانة! وهنا هجم الفلاحون عليه، وضربوه علقة، كاد يموت فيها. وحمي الوطيس، فعض أحدهم أذنه وشد عليها. كان الفلاح جائعاً، ومشتهياً اللحم، فقطعها ومضغها بأسنانه ثم..!"

- تقولين إن أخواتك هم الذين قطعوها، ثم تقولين إن أحد فلاحى العزبة قد أكلها بأسنانه!

"أنا لا أعرف الحقيقة". تجيبك متلعثمة: "كلّ يروي الحكاية حسب ما يتخيلها، فقد يكون أخواتي هم الذين فعلوها، وقد يكون الفلاحون، وقد يكون أخواتي هم الفلاحون الذين كانوا يشتغلون لديه، هم وابنتهم، أو هم وأختهم، التي هي أمي!"

- قد لا تكون معركة جوع وسرقة وضرب، بقدر ما هي معركة شرف! تضيف هذا التحليل من عندك.. وقد يكون الفلاح اكتشف سر العلاقة التي ورطت ابنته مع صاحب

المزرعة، فقرر هو وجماعته أن ينتقموا لشرفهم المهدورا وهذا ما يفسر سبب ضياع الخمسين فدانا التي استتبقتها الثورة لأبيك، فباعها للهروب من منطقة (أبو قير)، والتخلص من القتل. وقد يكون باعها لدفع مصاريف الشرب والقمار مع الخلان! على أية حال، العملية لم تتعد كونها صراعا بين فلاحين، ورجل إقطاع!

راهب الدير

تتقلب في مقعدك وأنت تنتظر بزوغ فجر كنعان بضارع الصبر. الحمد لله الذي خلقك يا حفيدي في أحسن تكوين. اصبر يا قلبي حين إطلالة الغصن الأخضر. تحاول أن تتصبر حين ملاقاتك أملك المنشود، وليس أمامك سوى الذكريات السكندرية الجميلة... فأثناء سكنك في بيت (أبو جرجس) كنت تذهب إلى دير هناك، قرب مسجد سيدي جابر، فتدرس فيه كل موادك. وكان راهب جليل القدر يستقبل الطلاب في مدخل الدير ببشاشة، فيعطيك غرفة خاصة، تتوسطها طاولة رسم خشبية محترمة، تتسع لمخططاتك المدنية، وعلى الجدار لوح واسع، وطباشير ملونة وممحاة، ويعرض عليك المساعدة، فيجلب لك بناءً على طلبك من مكتبة الدير، كل أدوات الرسم التي تطلبها. المريح في الأمر، أنه لا يسألك ما إذا كنت مسلماً أم مسيحياً، أم عفريراً أزرقي، ولا يطلب منك هوية. وأصلاً لا يسمح له الوقت بالتعرف على شخصيتك. كثير من طلاب الحي كانوا يأتون ليدرسوا في مكتبة الدير العامة، الغرف الخاصة لمن يأتون مبكرين، والقاعة العامة لبقاقي الطلبة. كان الدير يقدم خدماته مجاناً

للجميع دون رسوم، تماماً مثل الجامعات التي فتحتها عبد
الناصر لجميع الطلاب من أهالي المدن والفلاحين، صعايدة
وبحري وطلاب عرب على السواء. كلهم سواسية كأسنان
المشط! اليوم لا يوجد أسنان مشط، لأنهم يحلقون لهم على
الصفراء

يركض راهب الدير أربعيني قصير ممتلىء الجسم هنا
وهناك بملابسه الحليبية البياض، وهو يفكر طوال الوقت في
المزيد من الخدمة! يركض مُحضراً (ميكروسكوباً) لهذا
الطالب، ثم يعود ومعه قاموس لذاك، أو مسطرة رسم وأدوات
هندسية إلى الطالبة تلك. كبير القوم خادمهم. وبعد انتهاء
الدراسة تمرُّ على جامع سيدي جابر الأنصاري، فتصلي
فروض العشاء، ثم تسأل نفسك:

- لماذا لا يوجد في هذا الجامع العريق مكتبة عامة مثل
مكتبة الدير، تخدم قراء الحي، مع أن أول كلمة في كتابنا
الحكيم هي (اقرأ)، ولماذا يقرأ هذا الدير الحضاري، وهم لا
يقرأون؟

تعود في طريقك إلى بيت (أبو جرجس) الذي يقابلك وهو
يفتح لك باب الشقة: "أين كنت حتى الآن؟ فتجيبه رافعاً
رأسك:

- كنت أدرس في الدير.

"لو استمررت في سكنك معنا، فسَنُعَمِّدُكَ مسيحياً مثلنا!"
يقول هذا، وعيناه على راهبة جالسة تزورهم. ثم يوشوشك

في أذنك قائلاً باللهجة الشامية، (والحكي إلك يا جارة!) وبعد أن تخرج، تسأله،

- هل هذه الراهبة قريبتك؟ فيجيبك مشمئزاً، "الحمد لله! ليست قريبتنا ولا بعيدتنا، وإنما هي زائرة ثقيلة الدم!" ويتأفف قائلاً، "يا سم!" تستغرب قوله، فتسأله،

- كيف تقول عنها هكذا، وهي راهبة نموذج للطهارة والبراءة والتضحية والعطاء؟ فيزداد تأفّفه قائلاً، "لا تضحية ولا زهدة! إنها تزور لتستكشف الأخبار، فتتقلبها من بيت إلى بيت. إنها ثرثرة، منافقة، تفضح أسرار العائلات، وتنقلبها كالأمراض المعدية!" يضحك وهو يتابع، "ولكنني، أسكت، كحلتها! إذ أعطيتها أخبارنا كما أشتهي أنا، لا كما يشتهيها العوازل!" يتوقف عن الحديث، ويروح يرقص ويغني أغنية لفريد الأطرش،

"يا ما قال لي وقلت له،

يا عوازل فلفلوا!

ويا، عاوازل، فلفلوا!"

الرجل سكران وهو يرقص أمامك!

كانت أيام تواصل وتسامح ديني جميلة. صرت اليوم إذا ذهبت إلى المرحاض، يسجلون اسمك، ويحتجزون هويتك، لحين إخراج الصبي بالسلامة! وصار التمييز العرقي والديني

والمذهبي والعشاري والطائفي والقبلي واللوني... وأما

التباعد الطبقي يا حبيبي! فحدث ولا حرج!

كيف تحولت تلك الحوارى والأزقة الحاملة إلى مدينة

ترفيهية متوترة، تخطط وتخرط كل شيء! الزمن يُغيّر كل

شيء. وكما تقول أغنية أم كلثوم:

“الزمن حيدوقك في البعد ناري.

الزمن هو اللي حيخلص لي قاري.

الزمن.. يا ما بيغير حاجات!”

وها قد خلص الزمن شأره منا، فتغيرت أنتِ نفسك يا ستّ

الكل، وكبرنا وعجزنا وانتهينا نحن مرهقي الإسكندرية!

فطير مشلتت ١

كل دقيقة تمضي في انتظار كنعان كأنها دهر! أنت لا تعرف لماذا ضعفت مقاومتك، وعجز صبرك على احتمال انتهاء فحوصات أبلغك برهان بأنها قد نجحت، وأن الشمراخ الأخضر قادم يانعا فتعود لذكرياتك مع محمد محمد، حيث كان بائع الصحف في محطة الرمل ينادي بأعلى صوته :

♦ ناصر يفتتح مبنى الأهرام، أحدث تكنولوجيا صحفية في العالم.

♦ جريدة الأهرام تصدر أول عدد بكامل الألوان الطبيعية.

♦ هيكل يجري اجتماعاً إدارياً مع مدراء الأهرام بالهاتف، بينما هو منفرد داخل مكتبه.

تدعو محمد محمد لحضور فيلم الحرب والسلام عن رواية تولستوي، الذي يعرض لأول مرة، في نفس الليلة في موسكو وفي سينما ريسالتو بالإسكندرية، فتشدنا مشاهدة الفنان الكبير محمود مرسى والرسام العجوز سيف وايلي فنان بينالي اسكندرية بشعره الطويل، بصفتها ابنا بلد، وهما يدخلان مرافقين لقائد الأسطول السوفياتي الزائر لميناء اسكندرية

ويُتحدّثون ويضحكون مع شخص يبدو أنه محافظ
الإسكندرية المضيف.

ندخل بعدهم في العتمة، فيضيء طريقنا عامل الصلاة
بنور مصباحه اليدوي الضعيف، ليرينا مواقع أقدامنا، فتدفع
له تعريضة، إكرامية.

" ادفع له قرشاً وليس تعريضة " يُنبهك صديقك قائلاً
" والله لولا هذا القروش التي يدفعها الناس، لما دخلت أنا
وأمتالي الجامعة! فوالدي الذي يعمل جابي كهرباء في
المنصورة، براتب سبعة عشر ملطوشاً، يتقاضاها بعد هذا
العمر الطويل من مصلحة الكهرباء، فلا تكاد تكفيها أكل
عيش، ولكن الناس يعطونه على كل فاتورة قرشاً، وبعضهم
ممن أنعم الله عليهم، يدفع له قرشين إضافيين. من هذه
القروش يا مشهور، يجمع والدي مصروفي الجامعي، فتسراني
أخرج معك، وأحضر السينما، وأشرب كازوزة، لم يشربها أبي،
إلا إذا أكرمه أحد الزبائن المُرّشين بها مرة في السنة. كل
ذلك كي أشعر أنني أعيش مع أبناء جيلي، وأفهم الحياة كما
يفهمونها، ولا أتعرض للعقد النفسية وأنا أعيش وسطهم بلا
كازوزة مثلاً!"

بعد إجازة نصف السنة الدراسية، يعود محمد محمد من
المنصورة محملاً بالفطير المشلتت، وحمامتين محشيتين بالأرز،
وهو يقول :

٦ أمي نخللة أرسلتهم؛ واحدة لك، وواحدة لي. وهي تقول لك :

- هذه الهدايا بمناسبة سكننا في الشقة الجديدة، التي قدمتها لنا المساكن الشعبية. مثل هذه الشقق تعطى لعمال الشركات والمصانع الحكومية، على أن يدفع كل منهم ثمنها بالتقسيط؛ فتسأله مسروراً بالخبر:

- هل ستدفعون ثمنها دون فوائد بنكية ؟ فيقول: "لا فوائد، ولا حتى دفعة على الحساب" (دي إيه دي) فتعود لتسأله :

- هذا للعمال. وماذا عن إسكان الفلاحين؟ فيقول رافعاً رأسه بثقة: "كل فلاح استلم قطعة أرض من مشروع الإصلاح الزراعي، يستطيع أن يأخذ قرضاً من جمعية التسليف الزراعي، ويبني له فوقها بيتاً".

محمد يأكل وهو يضحك، ويحدثك عن ابن جيرانهم في المنصورة محمد عليان متولي، والذي كان زميله في التوجيهية، ولكنه رسب، ولم يحافظه الحظ لدخول الجامعة. وليلة سفر محمد محمد جاء جاره لوداعه، وبيتما هو يشرب الشاي، قال لأبي: "تصور يا عمي إن ابنك في اسكندرية يشرب (سبيروسباتس)!"

يتخلف محمد آخر حبة رز في الصحن وهو يقول: "والفضل عليان يتخيل أن أبي يجهل هذه المقالب. ولكن أبي يعرف أن السبيروسباتس هو مشروب مصري بديل

للكولا^٢. فقيل أبي الدعابة، ومثل الدور على الأهبل عليان،
فانفجر هي غاضباً: صحيح يا ابني؟ تشرب سبيروسباتس من
وراي؟ أنا أوفر القرش من هنا. واحرم اخوانك من هناك،
عشان أدبر لك قرشين للدراسة، تقوم تشرب بيهم سبيرو..
سبيرو إيه يا واد يا عليان؟ فأبتسم، وينظت أبي من تمثيله
بضحكة رأيتها تبرز أوداجه لأول مرّة، ويقول ساخراً من
عليان: " بدل مسخرة الناس، كنت فلاحيت في امتحان
التوجيهية يا عليان يا ابن متولي!" فيقوم ابن متولي مكفهر
الوجه، ويخرج مخذولاً، دون أن يودعني أو حتى يقول: سلام
عليكم!

ناكل الحمامتين فنشبع، وتتحلى بالقطير المشلتت، المحلى
بالعسل. تستفهم الوضع، وتعرف البشر وغطاءه، فتدفع
الإكراميات بالتي هي أحسن. فيزداد المبلغ، حتى يصل إلى
قرشين أحياناً، ويرتفع سعر تذكرة السينما من خمسة عشر
قرشاً، فيصل إلى خمسة وعشرين، فلا تعود تستمتع بالأفلام
بل صرت تفكر بالأسعار المرتفعة وغير المعقولة، فتضطران
للذهاب إلى سينما أقل درجة في كامب شيزار، أو في
الإبراهيمية، حيث التذكرة هناك في أغلى أحوالها، باثنى
عشر قرشاً.

تصطحب معك جارك الساكن في تسوية العمارة، محمد
يوسف الإسماعلاوي، الطالب في كلية الهندسة، وتجلسان مع
العائلات في صالة سينما أوديون، فتتقأ الأنوار، ويبتدئ

عرض فيلم فرنسي للممثلة الشهيرة، جان مورو. وعند بدء عروض أفلام كرتون (ميكي ماوس، وتوم أند جيري)، ودعايات الأفلام القادمة، تفاعاً بصوت جهوري صادر من أحد أفراد جمهور الصالة، يبدد الصمت المرافق للمناظر صارخاً: "أبوك يقعد على صفيحة الجاز، يعمل نفسه قمع!" فيضحك جمهور العائلات على قفاهة ذلك الصعلوك الظريف. ويرد عليه آخر بالصوت العالي: "أمك تلبس الكلوت باللبيسة!" فيضحك الجمهور. ويصبح ثالث، متجشناً عبارة سافلة:

"أمك تقوم من النوم تلاقى (...). مفقص! فيضحك الجمهور على تلك العبارة البذيئة!" ثم يصيح في العتمة مشاغب رابع قنادلاً: "مضيش فيكم واحد (...) يشتمني؟" فيرد عليه واحد من الزاوية البعيدة صائحاً بشتيمة تهتك الست: "(..) امك (..) امك (..) امك!" (٥)

وهنا يدخل موظف السيئما الأمني، فيضيء بمصباحه الكهربائي هنا وهناك، ولا تعرف كيف تنتهي تعليقات الولدنة، وقلبة الأدب، فيصمت الجمهور من ذكور وإناث ويتابعون أحداث الفيلم الدرامية الرهيبة، التي تبدأ بيد تمتد إلى بيض عش عصفير، عليه نُقط سوداء تؤكد قرب فقس

(٥) نحن الذين وضعنا نقاطاً بين قوسين مكان كلمات بذيئة، كان المرجح قد نطقها، ولكن الرقابة لا تسمح بها للأسف! (شركة المخابرات الخاصة)

الببيض، لتخرج منها صفار العصافير، فإذا باليد تتمدد لتحتضن البيض داخلها، وتتحسس دفاًء.. تفكر اليد لحظة، ثم تقبض أطراف أصابعها الجانية، ويضغطة مفاجئة، تُكسره كله مرة واحدة. هكذا (كراش!) ثم تفتح يدها، فإذا بها مغمسة بالدماء اللزجة المنسابة!

والفيلم يعرض قصة معلمة مدرسة أطفال قرية، في نهاية الثلاثينات من عمرها، تعاني من كبت جنسي بصفتها غير متزوجة، فتفريق وحيدة قلقة متوترة في الليل البهيم، وتخرج إلى مزارع القرية، وفي كل مرة (تفشّ خلقها) بتنفيذ جريمة خفية، فذات ليلة تسمم حوض ماء البئر الذي تشرب منه أبقار القرية، فتموت الأبقار الواردة إلى هناك بالجملة. وفي ليلة أخرى تشعل النار في بيادر الفلاحين. وفي كل مرة يعتقد الفلاحون أن الفاعل هو رجل غريب يعرفونه في الأربعينات من العمر، يعمل خشاباً في غابة القرية، وهو قوي الشكيمة وأرمل، وفي كل مرة يهجم للمشاركة في إطفاء النيران المشتعلة، أو يقف معهم في أية مشكلة عامة تواجههم، ولكن أحدهم يقول: "المجرم يحب أن يعود إلى جريمته ليتلذذ بنتائجها أمام أهل المصيبة. ولذلك فقد يكون (الغريب) هو الفاعل!"

وذات ليلة تخرج المعلمة العانس إلى الغابة، فتلتقي (الغريب)، والذي يعمل بمهنة قطع الأشجار، فتلتقي الأيدي ثم الأذرع بالأحضان، ثم ينمان على الأرض، ويمارسان

الجنس بقسوة المحرومين، ويتسحرجان على العشب والأشواك، فلا تعود من غابته إلا عند مطلع الفجر، بينما رجال القرية يبحثون عنها خائفين أن يكون قد جرى لها مكروه، أو أن الغريب قد اعتدى عليها، وعندما يلاقونها عائدة من هناك، ويشاهدون ملابسها الممزقة، والدماء تنزف من جسمها الذي ارتاح، وتحدّر باللذة المسكرة. يسألونها: "هو أيضاً الذي..؟" فتجيب مستهترة: "نعم هو الذي..؟"

وبينما تعود النشوانة إلى بيتها لتنام قريرة العين، يتقدم رجال القرية مجتمعين في الغابة باتجاه الخشاب المستقل، ودون سؤال أو انتظار جواب، يهاجمونه بضؤوسهم وبلطاتهم، فيقطعونه إرباً...! تلك الأفلام الفرنسية الفكرية الثقافية العظيمة، لم نعد نشاهدها اليوم، ولم يبق أمامنا سوى الأفلام الأمريكية (طاخ طيخ، طاخ طيخ) والتي عممت ثقافتها الإرهاب والرعب في العالم!

ورداً على دعوتك لمحمد يوسف الإسماعلاوي لحضور فيلم السينما، يدعوك بدوره لزيارتهم في شقتهم الأرضية، فتشكره مُتمذناً، فيحتج بلطف: - أيوه يا عم، إنتو الناس اللي فوق، ما بتكلشوش نفسكو بزيارة الناس اللي تحت! فتجيبه مُحرجاً: "تعرف يا محمد يا يوسف أنني أتمنى زيارتكم، ولكن نظام سكني العائلي لا يسمح لي باستضافة زملائي في شقة الأسرة."

"يا عمي أنتت تعال وزرني، ولا داعي لأن أزورك في

شقتك. يكفي أن نتقابل في الكلية، وأحياناً نذهب إلى
السينما^٢

لا ترفض له طلباً، بل تقوم بزيارته بعد أسبوع من تلك
الحفلة السينمائية، فيستقبلك معه زميله محمد إبراهيم.
نجلس فنتعارف ونتضحك على (اللي يسوى، واللي ما
يسواش) فيحكى لك نكتة يقول فيها: "صياد سمك، دُور
ملقاش طعم صنارة، قام حط ورقة مكتوب عليها (طعم)
وشبكها برصاصة خيط الصنارة، ورمها في البحر، وبعد
نصف ساعة رفع خيط الصنارة، طلع مصطاد ورقة مكتوب
عليها (سمكة)"^٣ نضحك على النكتة البريئة، وقبل أن يحضر
محمد يوسف الشاي من المطبخ، يرن جرس الباب، فيفتح
زميله محمد إبراهيم، فتُطلّ صبية نحيلة تحمل على ذراعها
بعض الملابس.

يرحب محمد بها وهي داخلة. تطل علينا بعينيها
الزرقاوين، فتسلم من بعيد، وتدخل إلى المطبخ، ثم تعود وقد
جهزت الشاي بدل محمد يوسف، وتحنني وهي تقدمه لنا..
تراقبُ الصبيةُ البيضاء التي تلبس ثوباً بلدياً فلاحياً ملوناً
المرأة مستورة والحمد لله. تطمنن على الوضع.

"العاهرات هن صور مختلفة للشيطان". تقول لنفسك،
"لو حكّموك فيهن لحرقتن حرقاً، وأرحت الناس من
شروهن. أعوذ بالله، فكيف تبيع المرأة عرضها وكيف تنام
مع هذا وذاك وكيف تلوّث هذا وذاك، وتنقل الجراثيم

وأمرض الزهري والسفلس والسيلان والسل من هذا إلى ذلك، ثم تنقل كل ذلك إلى زوجها، هذا إذا كان لها زوج - ثم تكن أيامها أمراض الإيدز وغيرها معروفة - وكيف تقبض ثمن لحمها المملوك تحت عجلات الرجال التي لا ترحم؟ هؤلاء النساء يشبهن فئران المدينة، يتحركن في كل اتجاه، ويدخلن هنا وهناك، فينقلن الأمراض من هذا إلى ذاك^١

تجول بخاطرك كل هذه الترهات، وأنت تراقب هذه المرأة الغريبة، وتعرف أن الطالبين محمد يوسف ومحمد إبراهيم غريبان عن الإسكندرية، وأنهما قادمان من الإسماعيلية، ليدرس الأول الهندسة، ويدرس الآخر الحقوق، وأن ليس لهما أقارب أو عائلات مرتبطة بهما في هذه الشقة، ولهذا يلعب الضار في (عَبْكَ) فتسأل محمد يوسف: "من تكون هذه المرأة؟" إنها أم فطوممة^٢ يجيبك وهو يضحك "زوجة المكوجي (أبو فطوممة) يا راجل!"

"ولكن الوقت ليل، فهل تعمل أم فطوممة في الليل لاستلام وتسليم ملابس الكوي، وهي أم وزوجة وربة بيت؟" فيحاول مداراة نفسه أمام التحقيق: "هي تزورنا في أي وقت، وبلا مواعيد. يعني. مش غريبة عننا!"

"المرأة حلوة" يضيف محمد إبراهيم: "قل لنا، هل أعجبتك؟"

"تقول إنها زوجة أبو فطوممة! فحتى لو أعجبتني! لا شك

إنها جميلة الشكل، تنحني وهي تصب لنا الشاي مثل ظبيبة
تشرب من رأس النبع. وكما تقول، فهي مازة من هنا مرور
الكرام! فيضحك محمد يوسف قائلاً: "إذا كنت معجباً
بها، ما رأيك ألّفها لك بورق (سولفان)؟ وإذا لم يعجبك
السولفان، ألّفها لك في حبر! (اتبسط يا عم)"

"ماذا تقصد، لّفها لي؟"

"أقصد إذا رغبت بها، فهي جاهزة، وهذه غرفة النوم.
تعال..!"

"أعوذ بالله لا هل هذه المرأة من أولئك الـ...؟"

"ليست من أولئك الـ... يبرّر محمد إبراهيم مهمتها: "إنها
امرأة محترمة، ولكنها تحبنا يا أخي. ولله في خلقه شؤون!"

"تحبكم، وتنام معكم، فكيف تنام معي، وهي لم تعرفني
من قبل؟"

"يا أخي هذه امرأة غسالة، ولكنها غسالة فل أوتوماتيك.
يعني مثل الفل!"

"فل أوتوماتيك، تجمع الغسيل من أهل الحارة، وتنام
مع..! ما هذه المهنة؟"

يحاول محمد يوسف تليين تياستك، وتبسيط الموضوع
بقوله: "تقدر تقول: مهنة غسيل وكوي! كلّ!"

لا تستطيع صبراً، بل تنتفخ أوداجك، وتتشجع مثل
(ببّاي) الذي يأكل السبانخ، فتتضخم عضلاته، وتتعاظم

طاقاته، فينفجر في عمل عظيم! ولا تمالك أعصابك، فتفكر
أن تخلص هذين الشابين البريئين من شر هذه المرأة
الساقطة. تفكر كثيراً في عملية الإنقاذ، ثم تقرر من طرف
واحد.. ودون استشارتهما، تجد نفسك تقول لهما بالضم
الآن: "اخرجي من هنا بسرعة!"

يدهش الشابان، ويسقط في يد المرأة ولكنها تنظر إليك
صامتة باسمه كسيرة، ولا تجيب بشيء، ولا يتكلم الجاران،
بل يظنان يحترمان ضيافتك.

يتبادل الجميع النظرات، ويشعرون بمدى وقاحة هذا
الضيف، ومدى فداحة الخسارة! ولكن الضيف ضيف، ويجب
أن يُحترم! وهما طبعاً لا ينسيان أن هذا الثقيل الظل هو
غريب بلاد، وهو يزورهما لأول مرة، فلا ينبسان بحرف
واحد. تستفهم المرأة الموقف، فتخرج مدحورة، مكسورة
الخطير. ولكنها ومع ذلك، تبتسم ابتسامة صفراء وهي
خارجة.

تستغرب تصرف هذه المرأة، وتعتقد أنها بلا كرامة، وبلا
دم، إذ تبتسم بعد كل هذه المعاملة القاسية، فتشرب الشاي
على عجل، وتستأذن قبل أن تبدأ السهرة.

لا يرفض الشابان استئذانك قبل بدء السهرة، بل يقومان
فيودعانك عند باب الشقة، ولا يقول لك أحدهما على
الأقل: "أعد الزيارة."

تشعر براحة ضمير، إذ خلّصت هذين البريئين من مخاطر التهلكة! وكأنك تقول لجدتك أنيسة: "هل شاهدت نبأه حفيدك؟ إنني أنفذ تعاليمك بدقة" (من رأى منك منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه).

في اليوم التالي تلتقي مع محمد يوسف تحت الأعمدة الرخامية العملاقة التي ترفع عالياً أبهة مبنى كلية الهندسة، الذي يشبه قصر الفرعون حتشبسوت في زمانها.

"صباح الخير يا محمد."

- وعليكم السلام يا مشهور.

"ها، طمّني، كيف الأحوال؟" فيجيبك باقتضاب متجهماً:

- بخير.

"أنا أسف لما حصل بالأمس، ولكن كان لا بد أن أتصرف، وأن أغير ولو بلساني." فيجيب ساخراً:

- بلسانك ليه يا مشهور؟ هو انت لسه بلسانك؟

"ماذا حصل مع الولية أم قطومة؟ هل عادت بعدي؟"

- في الحقيقة، عادت فور خروجك! تتجاهل الصدمة، وتسأله:

"وهل..؟" فيجيبك مُحرجاً وهو ينظر إلى عمود الرخام، - نعم. هل...؟

"ماذا قالت عني؟ سألتك بالله أن تقول الحق!"

- ما دمت تسألني بالله، فهي قالت: يبدو أن الزبون

محدث، وواقع في محنة، وزائرهم في طلب.. وخاف مني أن

أخذ نصيبه!

"أعوذ بالله من شر هذه الشر...! تجيب مندهشاً: هي

التي قالت ذلك؟"

يبدو أن الأمور ليست بالبساطة التي تتصورها يا مشهور،

ويبدو أن اللسان لا ينفع في مثل هذه المواقع!

فسيخ رشيدى ١

هل هما القادمان من آخر ممر المستشفى؟ يبدو أن نظرك الضعيف لم يعد يميز كنهان من شعبان أو رمضان! "الصبر طيب يا صاحبي، وكلام الناس بيس...." خليك في كلام الناس القدامى أيها العجوز! خليك مع صديقك محمد محمد وأنتما تعودان إلى محطة الرمل، في حوالي الساعة الثانية عشرة ليلاً، بعد خروجكما من فيلم سينمائي، وبائع جريدة المساء يصيح بأعلى صوته:

❖ خطة لتنفيذ مشروع مدينة سياحية حول بحيرة منخفض القطارة.
❖ بحيرة القطارة ستصلها مياه المتوسط، فتولد كهرباء تنير مصر.

❖ مدينة القطارة المقترحة، ستنافس الإسكندرية في نشاطاتها السياحية.

تعودان متأخرين، غير آبهين بتعليمات (أيو جرجس) الذي كان قد أكد لكما أنه ممنوع التأخر بعد العاشرة مساءً خارج البيت، ومن يتأخر، فليتم حيث.."

تركيبان الترام الأخير، الذي يتحرك قبل الثانية عشرة ليلاً، والذي بعده يضطر العاشدون إلى بيوتهم أن يركبوا سيارة أجرة بالشيء الفلاني، وأنتما الإثنان لا تملكان قرشاً فوق بطاقة الاشتراك الطلابية. وفي الطريق يجذبكما صوت السائق محمد الميرغني المشهور في كل خط هكتوريا بفنائه الشجي وهو يقف سائقاً قاطرة، ويخبط برجله فتجلجل رنات الترام وكأنها تقول للمشاة: " وسع يا جدع! " وفي هذه الليلة يمتعنا معه بأغنية للضنان محمد قنديل: (بين شطين ومية، عشقتكم عيني ...

يا غاليين علي، يا هبل اسكندرية، يا هلي اسكينديريا!)

يتجمع كثير من الركاب حول السائق المطرب، وبعضهم ينزل من الطابق الثاني للقاطرة، فقط ليشنف أذنيه بمغنى عزيز على القلب، والكل يردد وراءه ما يقول..!

وعند الوصول، ننزل في محطة كليوبترا حمامات. وقبل أن يتحرك الترام مواصلاً سيره، يفاجئنا شاب أشعث الشكل قافراً خلف القاطرة، يبدو أنه صعلوك سكران طينة، فيقوم بحركة قرعاء، وذلك بسحب حبل كهرباء الترام، الذي يلامس طرفه الأسلاك الكهربائية الجوية، فيتعطل الترام عن الحركة. ينزل معاون السائق، محاولاً معرفة سبب العطل فتشير له باتجاه الولد الراكض وهو يضحك ويشتم ويتعثر في

ركضه، فيعيد المعاون وصل بكثرة الحبيل بالسلك الجوي، وهو
يرد على شتيمة الولد الشقي بشتيمة أوسخ، بينما نحن
نتستغرب شقاوة العيال هذه !



بعد ظهر كل يوم، تعود من الكلية، فتصل إلى مطعم
محترم يدعى (حاتي الابراهيمية)، وهناك يستقبلك النادل
محمد مراد، مرحباً وهو يعرض عليك طبق اليوم، مخالفاً
أغنية ثلاثي أضواء المسرح الذين يقولون فيها: " ودا طبق
اليوم.. آآه .. شوكلاتة بالثوم!" فتأكل طبق اليوم وهو
عبارة عن خضار ورز ولحم عجل يتلّو ويرتقالة أو موزة،
وتدفع ثمنه ثمانية عشر قرشاً، بالإضافة إلى قرشين
إكرامية، وتخرج لتصل إلى غرفتك فتنام قيلولتك. وقبل
غروب الشمس تخرج من العمارة وتنزل لتتمشى قارناً على
رصيف الشاطئ، ومتفرجاً على خلق الله .



في شهر مايو يسخن الجو، ويبدأ دبيب الحر فوق الرمال،
وتبدأ المظلات بالانغراس هنا وهناك، وتزداد كثافة
المصطافين، ويزداد التعري من الملابس الساخنة، لإبراز
مايوهات البيكيني، وينشط لعب كرة المضرب، وتوزع كؤوس

الشاي والكازوز بين العائلات، وبعض البنات يغطسن في الماء بأثوابهن أو بنطالاتهن الساترة، وعائلة مكونة من أم وبناتها الأربع وطفل صغير يأكلون الفسيخ الرشيدي المملح والجبن الدمياطي وينطحون البصل الطنطاوي مع خبز البحيرة الإسكندراني، فتشم رائحة الفسيخ والبصل واصله إلى (نخاشيش) أنفك. اليوم لم يبق فسيخ رشيدي، ولا حتى مدينة رشيد ذات نفسها، التي ابتلعها البحر الساخن، هي ودلتها بفعل تلوث البيئة الذي قتل الأرض.

وفي الشاليهات المردودة أبوابها، والمقلقة بستاثر قماش - حيث يمنع القناون إغلاقها، إلا وهي خالية تماماً - تسمع أحاديث ثنائية، وأحياناً تثيرك أصوات غير مستورة! ويمر من هنا بائع بسلته الكبيرة، وهو يصيح بأعلى صوته: "سميط وبيض وجبنة رومي.. بيض وسميط وجبنة قريش..". وفتاة تتخاطق مع ثلاثة شبان بدعوى أنهم يعاكسونها، وشاب وسيم يشبه عبد الحليم حافظ يغازل صبية سمراء، ولكن يبدو عليها تمعُّع أم عين بيضاء الراغبة، وأولاد يخبطون أخطبوطاً على صخور الشاطئ كي... وقارب صيد يقترب من الشاطئ بصياديه اللابس صديرات وطاقيات اسكندرانية.. وشاب يمشي متميلاً وهو يمزح مع رفيقه ساخراً بصوت مائع أنثوي مغناج: "فك ديئتي، إلهي ما يحطك في دينة!"

المصيبة أنك لا ترى واحداً من هؤلاء يقرأ كتاباً أو يتصفح جريدة، مخالفين ما يفعله مصطافو الغرب الذين

يقرأون في أوقات الفراغ، حتى ولو كانوا مستقلقين على شاطئ العراة!

تنظر إلى الأمام، فترى درجاً يصعد من رصيف الشاطئ إلى شارع الكورنيش. تصعد مسرعاً، وتقطع الطريق السريع عائداً إلى البيت، فتلتقي (أبو جرجس)، فتسأله لماذا تجده دائماً مستلماً في المطبخ، ولا يسترخي في غرفة الجلوس؟ فيقول لك إنه يفضل جلسة المطبخ على غرفة الجلوس الضيقة عند المدخل، والموزعة لكل الغرف، إذ تجد كل من يدخل أو يخرج، وكل من يريد المرور إلى المرحاض، يمر من غرفة الجلوس، فيقول لك: السلام عليكم، هذا إذا كان مسلماً مثل محمد محمد، وإذا كان مسيحياً مثل الدكتور رضا، الساكن في الزاوية هناك، فيقول لك: صباح الخير، أو مساء الخير.. وفي كل الأحوال تجد كلاً منهم يربك خصوصية الجالس هناك! يشرب رشقة من كأسه ثم يتابع قوله: ولذلك تجدني أفضل الخلوة في المطبخ، وهنا أشرب لي كأسين من البراندي، فأسلطن! وفعلاً قد دخل أحياناً إلى المطبخ، فتجده قاعداً يغني، ويحكي حكايات من الشرق، فيرسلها إلى الغرب، ومن الشمال إلى.. " أنا جدع! يقول لك وهو يؤشر بسبابته: " أنا كنت يا ابني وكيل سيارات (سي أم سي) الأمريكية. ولكنهم أولاد الكلب... أموها، وتوت حكومة (الـ...) استيرادها، أو على الأقل، استيراد قطع الغيار الضرورية. ويا عالم! فقد يكون الاستيراد متوقفاً

من أصله، إلا من رحمه ربه بسيارة، يجلبها معه شخصياً من بيت النار، من أمريكا ذات نفسها." ثم يقف متمائلاً وهو يغني:

" ضيعت مستقبل حياتي، في هواك "

تنتبه إلى أنه يبكي هذه المرة وهو يقول: " دخلت جامعة (فاروق الأول) سنة ١٩٤٤، ولكنهم على حظي غيروا اسمها، فتخرجت من (جامعة اسكندرية) سنة ١٩٤٨، عام النكبة الفلسطينية. وتزوجت سنة ١٩٥٠، فقامت الثورة على حظي سنة ٥٢، وخلفت نوسا سنة ٥٦، فقامت حرب السويس على حظها، وجاءني جرجس سنة ٦٢، فأموأ لي وكالة (سيمس) في نفس السنة على حظ جرجس، ولما صارت بنتي قيتي قمر بنت أربعة عشر، سنة ٦٤، أمموأ مزرعتي، بصفتي إقطاعي، يعني تستطيع أن تقول: كلها مناسبات تكسات في تكسات! فقعدت على الحصيرة! "

يواصل السكران بكاءه وهو يقول: " ولكني لم أترك باباً يا خويا يا مشهور، إلا وطرقته، ولا ولياً من أولياء الله الصالحين إلا وزرته، من المرسي أبو العباس لغاية السيد البدوي، طالباً الشفاعة ومد يد العون. أقول له: مدد يا سيدنا البدوي، ماذا ادا! ولكنهم قصروا المدد أولاد الكل... وتبحرت النعمة التي كنت أغرق فيها، والتي لم أقدر قيمتها، إلا بعد أن طارت من يدي.. صحيح أن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى، وأنا الآن مريض، أفرح بالقرش، وكنت أشعل السيجارة للعاهرة-

وحياة شرفك - بجنه إنجليزي، وليس مصري^٢ تضحك عليه وهو يحلف بشرفك.

^٣ بص، وشوف حالي بقى ازاي^٤ يسمح دموعه بكفّيه، ثم يقول باسمًا:

^٥ أنا كنت حبيب نسوان آخر (الأطمة). مرّة كنت ماشي وراء واحدة، باين عليها حلوة من وراء، فقلت لها متغزلاً:

- يا جمال النبي محمد^٦ لم تلتفت المرأة. فاقتربت وراءها قائلاً:

- يا جمال عيسى^٧ فلم تلتفت. فاقتربت منها أكثر وقلت:

- يا جمال موسى^٨ فالتفتت إليّ بوجه فوجئت أنه بشع (ومبعجر كده) لا فصرخت بالصوت: يا جمال عبد الناصر^٩ لا تضحك على النكتة السخيفة. فيتابع السكران سرد سيرته الذاتية:

^{١٠} انتظرت سنة، وستين، وثلاث، فقد يغير الله من حال إلى حال، ولكنه لم يغير^{١١} يدلق كأسه الحادية عشرة في رأسه ويقول:

^{١٢} تردت الأحوال، وتمت مصادرة عزيتي في أبو قير. قالوا إن مساحتها مائة هــدان. فأخذوا نصفها، وسلّموها للفلاحين اولاد الـ... ونحن الذين نعرف أن ندهن الهواء بُوهية، رحنا بلاش! شوية بهاييم ما يعرفوش الطريق مسنين،

صاروا مُلّاك أراضٍ! قال والله وليست الرّعطلون يا ولدي،
وحتشخ متين! صار في بيوت الجِزَم تلفونات! قال له: يا
ابوي! قال له: ايود! قال له: لو واحد تكلم باللفظون،
وانقطع السلك، يجرى إيه يا ابوي؟

قال له: يا وله! دا الكلام يوقع م السلك!^١
تضحك على تكاته السخيفة، واليوم في منتصف القرن
الواحد والعشرين لا سلك ولا حتى تلفون، إذ يقوم المحمول
على خاتم إصبعك بكل الاتصالات التي تريد..

ويتابع أبو جرجس قائلاً،
"كأنت عندي فلة، تقول عروس البحر، وقاعدة هناك
عاشط، تجنن يا وله يا مشهور. كانت دورين وعلية. الدور
الأرضي قاعة جلوس وقاعة ضيوف، ومطبخ فرنسي واسع،
والدور الثاني أربع غرف نوم، والعلية عبارة عن غرفة مكتب
مُعتبر لمُحسوبك، و(سناك بار)، ومطبخ صغير، والذي مثله..
ومحسوبك لا يعرف أن يقعد إلا في العلية. كنت مثل مسلمي
الجنة (بتوعكم)، ساكن في عليين! من هناك تشوف البحر،
(تأذن) في مالط! كنت أشرب صندوق بيرة وأنا قاعد في
العلية، والفلاحين والبهايم يحرقوا ويزرعوا ويقطفوا،
وياكلوا نص الفلة!" يرفع يديه مبتهلاً وهو يقول: "بالستم
الهاري إن شاء الله! ولا من شاف ولا من درى.

كان اللبن والجبنة والزبدة والسمن البلدي مغرقنا يا
مشهور يا حببيبي! ولا البيض والضراخ البلدي، والديوك

الرومي والبطل والوزل! كان عندي برجين حمام، كل يوم تظفر لك زوجين زغاليل مشويين بالسفود، أو مقلبين بالسمنة البلدي إنما إيه؟ يستاهلوا بقلك.. أي وحياة النعمة دي! يحلف وهو يرفع كأس البراندي التي في يده، فتضحك على نعمته!

يسحب المتهالك دخان سيجارته المتلفة، سحبة طويلة ليعبىء رنتيه بالنعمة القاتلة، ثم ينفث دخان قطار قديم قائم للتو، ويتحشرج صوته وهو يغني، مشوهاً الفن الأصيل وهو يجوح :

(كل اللي حبّ انطحن،

وانا اللي وحدي بكيــــــــــــست!) ثم يردف وهو يبكي :

" طحنونا اولاد الكــــــــــــ...! اعتقلوا الفلّة وحياتك، وأدخلوها التجنيد الإجباري! ومع البكاء تجده يضحك ودموعه تسج على وجهه وهو يقول :

" قال أموها قال، فصارت فلّتي للأمة! وماذا (ستفعل فيها) الأمة؟ هي هي هي! قررروا أن (يفعلوا فيها)، وذلك بتقديدها لتكون مقراً لضرع الاتحاد الاشتراكي في أبو قير! ولهفوا من أرضي خمسين فدان، ووزعوهم على الفلاحين اللي كانوا عندي خدامين! صار الخدم جيран، وزملاء في المهنة! طيب، ومن منهم سيشتغل عندي بعد هذا الحال؟ تصور يا وله يا مشهور، في واحد من البهايم اللي تقاسموا

يشربونه! هي هي هي! يعني نوع من التعاون بين الأديان!
يقول ذلك ويضحك كثيراً، فتظهر بقايا أسنانه السوداء التي
ينخرها السوس. ولكنه مبسوط آخر انبساط! الرجل ليس
مبسوطاً على الآخر، بل مفعوع على الآخر، ذلك لأنهم
أخرجوه من عليين!

من هالشتب يا رئيس !

عشية ثبوت الهزيمة المُرة التي كبدها إياها مزاجية قيادته العسكرية، يعلن الرئيس جمال عبد الناصر تنحيه عن الحكم، وذلك في نشرة أخبار الثامنة مساءً. وخلال خمس دقائق من انتهاء خطاب التنحي رحت تسمع أصوات الجماهير تهدير في الشارع.. العمارات تنطبق على بعضها البعض، والجماهير تهتف.

تنزل إلى الشارع، فتشاهد فيضان النيل الذي قرأت عنه في أيام الغلال الفرعونية القديمة لا تعرف من أين جاء هؤلاء الناس. مئات الآلاف من الرجال والنساء المتظاهرين، القادمين من فكتوريا ومن جهة باكوس مكان ولادته^{*}، مروراً بسيدي جابر، ومن كل الجهات، يسيرون جماعات متراسة، كالسيل الهادر، وما يزال السيل يتجمع، وكرات القطن تتضخم، والأعداد تتكاثر سيراً على الأقدام، وصولاً إلى منطقة كليوبترا والإبراهيمية.

^{*} دققنا في مذكرات المرحوم، فسجلنا منها ما كتبه: ولد جمال عبد الناصر في ١٥ يناير ١٩١٨ في ١٨ شارع قنصوات في حي باكوس الشعبي بالإسكندرية. (المخابرات الخاصة)

تسير معهم، وتهتف هتافاتهم :

"مين حرر القتال، غيرك إنت يا جمال!"

"السد العالي يا جمال... العمال يا جمال."

"التعليم يا جمال... الكرامة يا جمال."

"الفلاحين يا جمال... المصانع يا جمال."

"الزراعة يا جمال.. رغيف العيش يا جمال."

تلتقي الجماهير الهادرة في محطة الرمل ويتجمعون في المنشية. قرابة المليون رجل وامرأة، يهتفون برفض تنحي الرئيس عن الحكم! أبو جرجس يراقب ويتفرج على المظاهرات الهائفة بالغضب :

"لا نريد إلا جمال. لا نريد إلا جمال!"

تستمر المظاهرات بهتافات من هذا النوع عدة أيام متوالية، وينام الناس في الشوارع. تجتمع واحد لرفض الهزيمة يمتد من ميدان المنشية إلى محطة الرمل. تجدهم يفترشون الأرض حول جامع المرسى أبو العباس، وعند صرح الجندي المجهول، ويقعدون في الساحات العامة، وأكثر من ذلك بكثير حصل في ميدان التحرير في القاهرة وباقي المدن، حتى خضع الرئيس لمشيئة شعبه، وعاد إلى تحمل مسؤولياته. وهنا يفاجنك أبو جرجس وهو يقف في مطبخه العتيق، ويقول لك ضاحكاً :

"سمعت إيه اللي حصل امبارح بعد نص الليل؟"

"ما الذي سيحصل أسوأ مما سمعناه وشاهدناه؟"

٦ " اللي جرى يا سيدي، لا يكتب، ولا ينقرأ! يقول ذلك وهو يضحك، فاتحاً فم سيد قشطة على الآخر، " اللي جرى إن نسوان ملاهي وكباريهات اسكندرية، خرجن بمظاهرة عارمة، رادحات بصوت واحد: (أحّة! أحّة! لا تتنحى!) واستجابةً لنداءات الولايا، قرر السيد الرئيس العودة ليحكم مصر أم الدنيا! "

يدخل محمد محمد وهو يسمع هذه الترهات فيفتافد، ويسحبك وهو يقول لك: " الرجل مجنون وسكران طينة ومفقوع طبعاً، لأن الحكومة أمت وكالة سياراته، فتعد على الحديد، وهو يعتقد أن الأوان قد أن للانتقام، وشماتة الأعداء! لكن لأ، سنحارب مرة أخرى، وأخرى وأخرى، وسنلتحق بالمقاومة يا مشهور، ونهاية المحتلين معروفة! "

في مقصف الكلية يقف شاب سوداني، يبدو أنه قيادي طلابي، وفاهم درسه، ويتحدث بهدوء في حشد الطلاب الذين يتجمعون، ليفهموا ماذا حصل، وماذا سيحصل. نحن في منتصف شهر حزيران ١٩٦٧، وامتحانات الطلبة قد أنهيت بسرعة، ولكن كليات الجامعة لا تغلق أبوابها عادة،

٧ " لو كان بداخل كل منا جمال عبد الناصر، لكانت الأمة بألف خير. " يقول الشاب الكبير نسبياً مقارنة بعمر الطلاب " صحيح أن الرجل تسرع في حربه الأخيرة، وفي العجلة الندامة! وقد تكون خدعته مراكز القوى التي تدير السفينة بعكس ما يشتهي القائد. وهذه الجهود العظيمة في الوحدة مع

سورية وحرب اليمن وحرب تحرير فلسطين، لو استبدلها بتوحيد مصر والسودان - وقد استلمها من ملك مصر والسودان موحدة - لكان حقق دولة عظمى مثل إيران، أو الهند أو تركيا. ومن دولة وادي النيل، يستطيع أن ينطلق لتحقيق الوحدة العربية، ويتم ذلك بالتعليم، وبالتفهم، وبالتدريج. لو ابتدأت جامعة الدول العربية بتوحيد الاقتصاد والعملية العربية، وفتحت الأبواب للعمالة وللتجارة البينية داخل الأسواق العربية، دون حدود، ومن ثم مجلس نواب عربي موحد، يقرر مساراً موحداً للعرب، وهذا لا يتعارض مع بقاء الحكام، كل في موقعه. كل رئيس أو ملك عربي، يظل كما هو، في سدة الحكم، دون انقلابات أو مذابح على كراسي الحكم. على أن تتم انتخابات ديمقراطية فعلية للنواب ورئيس الوزراء الحاكم، وتحدد أعداد وألوان الوزراء حسب أوزان أحزابهم، أو قوة اتحاداتهم في الانتخابات النيابية، ومجالس البلديات والاتحادات المهنية والطلابية. ولا داعي لاعتماد عبارة (من هالشنب يا ريس!) لتقود معركة.^٦

يصغي الحضور للرجل بكل انتباه، بينما يضيف السوداني قائلاً:

^٦ لو اعتمدت هذه التجربة الثورية الفتية، للتحفيز من التعقيد والترهل الإداري العام، وعدم ملاحقة المفكرين، حتى ولو كانوا حزبيين معارضين، وتم التخطيط لتوفير الأمن الغذائي العربي.. السودان وحده أيها الإخوة يطعم بخيراته

ويروي بمياهه كل شعوب الوطن العربي، فالحروب القادمة هي حروب مياه. وأما عن معارك التحرير، فالحقوق العربية لا تتحقق بأفضل من أسلوب المقاومة الشعبية الفيتنامية. وليست بقوة العسكر، نظراً للتقنية المتقدمة التي يستخدمها الأعداء المحيطون بنا من بقاع لا حصر لها في العالم، ولا قدرة لنا على مجابهتها عسكرياً!

لم يكمل السوداني حديثه، فلقد جاء ثلاثة رجال آمن، وساقوه إلى جهة غير معلومة.

ولدى استفسارنا في اليوم التالي، قالوا إنهم سفروا، وأُخرج ولم يعد!



تسرب لك تيتي أسرار العائلة كلها، وهي لا تعرف أن الأسرار يجب أن لا تُفصح خارج الأسرة. فهذه المرة تزورك وهي تُصرّح لك بمعلومة جديدة، عبارة عن فضيحة مخجلة: "أريد أن أقول لك سرّاً"

وأنت لا تمنع سماع الأسرار: - قولي! فتقول: "أبي ينام مع أُمي كل ليلة ثلاثاء!" تخجل من الخبر، ولكنك تسمع!

- يا ملعونة! وكيف عرفت ذلك؟

"عندما كنا صغيرتين أنا وأختي نوسا، كان أبي يؤجر ثلاث غرف للطلاب، والغرفة الرابعة ننام كلنا فيها."

- وهل كان والدك يملك هذه الشقة، في الوقت الذي يملك فيه قلة شاطئء أبو قير؟

" كان قد اشتراها وفرشها بنفسه، كي تكون خلوة له،
يقعد فيها مع أصحابه وصاحباته. هذا ما سمعته من أمي
ذات يوم، وهي غاضبة منه، إذ قالت له: كان قدر ومكتوب
عليّ أن أتورط معك في هذه الشقة المتعوسة! ولولا ورطتي، لما
قبلت الزواج من رجل (دون) مثلك! فقلت لأمي: ما هي
ورطتك يا أمي؟ فزجرتني قائلة: أنت تخرسي! فخرست.
ولكنني بعد ذلك، فهمت كل شيء. ولكن كشف تيتي للمستور،
يدفعك للفضول، فتسألها:

- وكيف تعرفين أنهما ينامان كل ثلاثاء، وليس كل
خميس مثلاً، حسب أغنية شادية (تعرف إنني كل
خميس...)؟ فتبتسم خجلى وهي تقول: "بصفتي البنت
الكبرى، كنت أتجسس عليهما، فأفهم ما يدور تحت الأغشية."
تدير عنقها بخجل وتضغط بأسنانها على شفتها السفلى
الملتئة ثم تقول: " ذات ليلة صحوت على أصوات غريبة!
انتبهت، فسمعتة يلهث ويتأوه بصوت مرتفع. فكّرت في
البداية أنهما يتخانقان في السرير، ولكن أمي كانت تطلب
المزيد! صحوت من نومي، ولكنني بقيت أتنصت عليهما،
متصنعة النوم! لم أفهم تفاصيل ما يدور ليلتها، ولكنني في
اليوم التالي ذكرت ذلك لصديقتي نهى، فقالت: دعينا نسأل
ابنة خالتي الكبيرة سوسو، فهي في التوجيهية، وتعرف كل

شيء... سألتها، فضحكت، وشرحت لنا كل شيء. وذكرت لنا
 نكتة رذيلة قاتلة: سألتُ أمي ذات ليلة: كيف أتيتُم بي إلى
 الدنيا؟ فقالت أمي: اشترينا بطيخة، وقطعناها، فوجدناك
 داخلها، فأخرجناك، وأرضعتك، وربيتك حتى كبرت، وها أنت
 كما ترين! فسألتُ أمي بسخرية ضاحكة: لماذا كل هذا
 التعب؟ ألم يكن (الـ...) معروفاً لديكم في تلك الأيام؟
 فحجبت أمي، وطردتني من جوارها، حاملة مكنسة المطبخ
 لتضربني بها! " تضحك تيتي وتتابع قولها: " ومنذ ذلك
 الوقت، صرت لا أنام كل ليلة ثلاثاء، بل أبقي متصنعة النوم
 ولكن كلي انتباه لأية حركة تصدر منهما. وفي حوالي
 منتصف الليل، تبدأ الهمسات والتأوهات، والـ (خُذ، وهات) يا
 حبيبي، فتصحو كل شعيرات جلدي، وتمطد عنقها تتنصت، كي
 تسمع ما يدور هناك! كنت أعتبر أمي مثلاً للبراءة والخجل،
 ولكنني صدمت بكونها بهذه الروح المحبة للـ...! وهذا جعلني
 أنضج جنسياً قبل زميلاتي الأخريات. صرت أبحث عن
 معلومات جنسية، وأحاول قراءة مجلات الطب في البداية،
 ثم أتناقش مع الطالبات الأكبر مني في المدرسة، ثم أسأل
 نساء كبيرات في السن. ولدى استفساراتي ذات مرة، حاولت
 واحدة منهن إغرائني لمشاهدة عملية مكشوفة من هذا النوع،
 فحُفّت عندما عرفت أنها ابنة سوق، وتريد أن تورطني معها،
 فرفضت، وعدت إلى بيتنا راكضة! "

يجول بخاطرك كل هذا، فتقول لنفسك هازلًا ،

- لو اتبع برهان وأبيثنا طريقة البطيخة في إنتاج
ولدهما الأخضر كنعان، لكأنت طريقتهما أطف من خروجه
من أنبوب اختبار لا يرحم!

الأسكندرية
الأسكندرية

بنات بحري!

كانت اللجنة الثقافية لطلبة الكلية قد دعت الشاعر أحمد هؤاد نجم والفنان الشيخ إمام إلى حفل غنائي في مسرح الكلية، الذي يسمى في النهار "مدرج رقم واحد"، ولكن الحفل تم منعه قبل لحظات من بدئه. ويومها قالوا إن المنع جاء لدواعٍ أمنية. ورداً على المنع، نقلت الناشطة سهير المحلاوي قول الشاعر أحمد هؤاد نجم:

"ما هذه الحكومة والأمن الذي يخاف من رجل أعمى، يسير متكناً على من يسنده على قارعة الطريق؟ إلى هذه الدرجة تخاف الحكومة المدججة بالـ... من هؤلاء البسطاء الذين لا يجدون قوت يومهم؟ إلى هذه الدرجة حكومتنا ضعيفة، يقلبها ويطيح بها رجل مصاب بفقر الدم، ويقعد على الرصيف، ليشم نفسه؟"

وعناداً من اللجنة الثقافية، رتبت سهير المحلاوي، وفائزة رشيد، وعبد المسيح عطا الله، ونهى.. لا أعرف نهى ماذا، فأنا نسيت! رتبوا الحفل الغنائي ليكون في مقهى مصر، المقابل لمحطة القطارات. وذهبنا إلى هناك، أنا ومحمد محمد مع الشَّلَّة طبعاً، فتجمع في المقهى الذي كانت معظم

كراسيه على الرصيف، خلق كثير لم يتسع المكان لهم، حيث
وقف الشاعر أحمد فؤاد نجم يلقي قصيدة اسكندرية
جميلة:

إسكندرية المحروسة.. الصيادين وسمك مرسى

متين ما تمشي، تصادف ناس..

شيلاه يا مرسى، يابو العباس،

ناس من الصعايدة، وناس بحري..

والقلب مفتوح عالبحري،

دايب في سحر بنات بحري.. والحب تحت الشموسة.

الله عليكى يا اسكندرية ..

من البحر رايحة.. من البحر جاية.

في اسكندرية يابو اسكندر .. بدع الضواحي والبندر،

فيها الحواري بالمساكين.. وفيها جنة راس التين.

الظَّهر سمكة بلطية. والعصر ناعمة ولعبية،

والليل عريسك يا عروسة.

وهكذا وهكذا ... الدنيا غاية ومنتزه!

ولدى انتهاء القصيدة الرائعة هاج الجمهور وماج، وهم

يصفرون ويهللون وصاح أحدهم قائلاً: يا أحمد يا عظمة!

فتشجع الجمع الغفير وصاحوا معاً قائلين:

بص، شوف، النجم بيعمل إيه!

بص، شوف، النجم بيعمل إيه!

وقبل انتهاء القصيدة الإسكندرانية المدهشة، كانوا قد

أتوا بالرجل "البصير"، الذي كانت فيه ملامح من عميد الأدب

العربي، يسير متكناً بيده الرهيضة على كتف أحد شباب
اللجنة، يرافقه عازف ناي نحيل الجسم بملابس بلدي،
وضارب طبيل بحجم البغل، وولد بريء يبدو أنه عازف
كمنجة، فأجلسوا الشيخ إمام على كرسي خيزران، مثل كرسي
أم كلثوم، وبعد أن هدأت الدوشة، وقف الفنان مع رفاقه،
وغنى أغنية جيفارا، والتي صدح فيها، بينما الجمهور يصفق
بنغم جماعي، ويكرر من بعده على شكل كورس جماهيري:
"جيفارا مات. جيفارا مات!"

آخر خبر في الراديوهات!

وفي الكنائس والشوارع والبارات ! جيفارا مات.

وامتد حبل الدردشة والتعليقات...!

مات المناضل المثال ! يا ميت خسارة عالرجال !

مات البطل فوق مدفعه جوة الغابات!

لا طبالين يفرقعوا، ولا إعلانات!

جيفارا مات موتة رجال !

يا محفلطين يا ملمعين يا أنتيكات !^٦

ولم يكمل فنان الشعب أغنيته، إذ تقدمت ثلة من حرس
الشرف. أسف! أقصد من رجال الأمن، واقتادوا الرجل، هو
ورجال فرقته وشاعرهم معهم إلى جهة غير معلومة! وافرقع
الجمع بشعور متصادم.

وفي اليوم التالي تتوقف عند عدد من الطلاب والطالبات
الذين هم نواة مظاهرات ٦٨، المستجمعين حول الطالبة

الناشطة سهير المحلاوي، فيسألها هذا، ويعلق ذاك، وهي تجيب: "لقد أودعوا في المعتقل." ويسأل آخر: "لماذا اعتقلوا؟" فتسمع الإجابة: "الأمر لا تسير ببراءة!" ويصيح ثالث:

"يبدو أن شيئاً ما يُطبخ خلف الكواليس؟" وينفعل عاشر صائحاً: "نحن لا نعرف ما هو الجرم الذي جنوه!"

لم تتوقف هذه اللجنة المكونة من عشر طالبات وطلاب عن النشاط الاجتماعي الوطني، ففي بداية الفصل الدراسي الأول بعد النكسة، وقضت الطالبة فائزة رشيد أمام المتجمهرين من الطالبات والطلاب أمام باب المدرج واحد، وخلعت قلادة ذهبية بسيطة كانت بصدرها، وقالت: "لا حلي لنا بعد اليوم، إلا بعد عودة كرامتنا منصوره." وقال الجميع بصوت واحد: "حنحارب.. حنحارب.. حنحارب!"

وأكملت فائزة رشيد خطابها بمطالبة جميع البنات المحبات لوطنهن بخلع خواتمهن وأساورهن وقلانسدهن الذهبية، وضبطها وتسجيلها بدقة وبشهود عدول من اللجنة الطلابية الوطنية، والتبرع بثمنها إلى الجرحى والمصابين في معارك يونيو ٦٧. وطالبت سهير المحلاوي بخروج اللجنة إلى الأسواق والمحلات والمساجد والكنائس وكل مكان واعد، لجمع التبرعات بمعرفة اللجنة، وتدقيق الرقابة عليها،

وتقديمها إلى رجال المقاومة المصرية، الذين يديرون حرب الاستنزاف.

تلاحظ أن بنات الكلية أصلب عوداً من الرجال في الحشد والتعبئة المدنية، إبان هذه النكسة، حيث يتقدمن فئات الطلاب لدعم حرب الاستنزاف، والتحفيز والشحن لمعركة أخرى قادمة لا محالة. فتراهن يقطن بالمئات على رأس مظاهرات ٦٨، التي كانت صرخاتها داخل حرم الكلية وفي الشوارع: "حنحارب. حنحارب. حنحارب. حنحارب!"

يتجمع ثلاثة طلاب فلسطينيين وطالب شرق أردني في مقصف كلية الهندسة، ويقررون العودة معاً إلى الأغوار الأردنية الفلسطينية، للالتحاق بالمقاومة. وبعد سنة من غيابهم، تسمع أنهم قد قادوا المقاومة الفدائية بالتكاتف مع الجيش الأردني الباسل، فاكتمسحوا العدو، وانتصروا في معركة الكرامة.

تبحث مع محمد محمد مسألة التطوع في المقاومة، فيقول لك: "لا يكون التطوع في المعركة اعتباطياً، فكل شيء بأوان، وأوان المعركة بعد تخرجنا. اليوم دراسة، وغداً حرب!" وبالفعل، وبأحسرة أمه، فلقد استشهد البطل محمد محمد في معركة التحرير الذي لم يكتمل!

العرب مصريون ١

قضيت أيها الأهبل خمس سنوات جامعية، لم تدخل فيها باراً أو ملهى! وبعد كل هذا العمر الجامعي تسأل أبو جرجس:

- كيف يكون الملهى من الداخل؟ وماذا يعملون هناك؟ فيقول لك القصير المربع مثل برميل الفسيخ الخشبي المستورد، وهو يضع يديه في جيبي قميص بيجامته القطنية البيضاء المخططة طويلاً بالأزرق، والتي لا يغيرها داخل البيت، قد يكون ليشعرك بأنه طويل القامة؛
"لا أعتقد أنك في هذا السن، ولا تزال مغضلاً، ولم تدخل ملهى أو باراً! اذهب يا أخويا إلى الملهى، واقعد هناك، فستشاهد كل ما فيه. انتهت القصة!"

تخجل من نفسك لهذه الجهالة، فتجيبه متضاداً؛
- ولكنني لا أشرب المسكرات يا (أبو جرجس)، فماذا سأقول له إذا جاء النادل يسألني؟ فيضحك المرحوم وهو يقول ساخراً: "ماذا أقول له، لو جاء يسألني؟ والله يا أخي افكرتك نجاة الصغيرة! قل له: أريد كازوزة. وهو يحضر لك كازوزة! تشربها بالصحة، وتتفرج بالسعادة، وتروح بالسلامة! انتهت القصة!"

وأبو جرجس مزاجي، وكثير الشرب، فضي إحدى الليالي
سمعنا أنا ومحمد صوتاً مشاعباً يصدر من المطبخ، فدخلنا
عليه، فإذا على طاولته زجاجة فارغة مكتوب عليها كونيّاك،
وهو جالس يغني لها :

"جيب القزازه ،

واقعد لا عيني،

دا المرّة طازة ،

والحال عا جيني!

ما تجيب القزازه يا ابن الكلّ.!"

كان المرحوم فكاهياً مضحكاً، ومُهرّجاً بصوته المرتفع،
ليغطي على قصر قامته المربوعة!

نجلس معه في المطبخ، فنشعر أن الرجل قد سكر وهو
يستمع إلى نشرة أخبار صوت العرب، الذي أعلن ساعتها
انتحار المشير بطريقة غامضة! يشاهدنا فيضحك كثيراً، ثم
يفقعنا نكتة:

"عندما وصلت جنازة المشير إلى المقابر" يقطعها بضحكة
مدوية - لا يقطع الجنازة، بل يقطع النكتة السخيفة
بضحكة سيد قشطة المعهودة - ثم يعيد قانلاً: "عندما
وصلت جنازة المشير إلى المقابر، قام الموتى من قبورهم، تحية
واحتفاءً بالزعيم، وهتفوا كلهم مهللين مرحبين:

لا نريد إلا جمال!

لا نريد إلا جمال!"

نفاجا بهذه النكتة الحاقدة، فلا نضحك، بل نشعر بإهانة وتقرززا وينفلت الرجل من عقائه، يُضَوِّرُ بوجهة نظره المعهودة! تقعد متفرجاً، فأنت في عمر المتلقي وليس المُنْظَر، ولست في موقف الموافقة ولا المعارضة، وكذلك فأنت تسكن في بيت الرجل، ولا تستطيع أن تعارضه علناً. وكما أن الحاكم العربي دكتاتور، فالمواطن العربي دكتاتور أيضاً، وأبو جرجس دكتاتور، وكما يقولون عندنا في الكلية (الدكتور دكتاتور!) ولكن محمد محمد لا يأبه لكل هذا وذاك، بل يتفرغ المحترم لمناقشته ومعارضته بقوة قائلاً له :

- لو كان عبد الناصر يعيش لنفسه، لتصرف بشكل مغاير في نهاية الخمسينيات، عندما دفعت له الإدارة الأمريكية ثلاثة ملايين دولار ليصرفها سراً لحماية أمنه، فوضع المبلغ بين يدي مجلس الشعب كما هو، واقترح عليهم بناء برج القاهرة، كرمز للكرامة الوطنية. ترتفع نبرة صوته وهو يهاجم صاحب البيت:

- إن إنجازاً واحداً من إنجازات الرجل مثل تأميم قناة السويس، يحقق المركز الاستراتيجي لمصر، ويحقق مليارات الدولارات سنوياً لصالح الخزينة، ومليارات الجنيهات إيرادات العمالة والتجارة المصرية المرتبطة بالقناة. فيخبط أبو جرجس الزجاجاة الفارغة على الطاولة قائلاً :

” قرار تأميم القناة كان نوع من الحركات القرعاء اللي احنا عارفينها!“

- ولكن كيف نحرر قناتنا من مخالف الاستعمار المتحكم بقلب مصر؟ يسأله محمد. فيجيب الرجل مؤكداً،

"مجلس الأمن، والشرعية الدولية، وقرارات الأمم المتحدة، هي الطريق الوحيد".

- الآن فهمت معنى مقولة الممثل توفيق الدقن: (ألو يا أمم!) وأنه يقصد الأمم المتحدة؟! لقد احتلت فلسطين منذ سنة ١٩٤٨، ولم تنفع قرارات الأمم المتحدة بشيء، لا بل إن قرارات الأمم المتحدة هي التي أنشأت الكيان الصهيوني واعترفت به كدولة، وكلما توسع الاحتلال، يتوسع دعم الأمم المتحدة للمحتلين! أنت بصراحة يا (أبو جرجس) تدافع عن العصر البائد!

"أنا لا أدافع عن عصر الخديوي سعيد ولا عن الخديوي اسماعيل"، يضحك أبو جرجس بينما يدها محشورتان داخل منامته البيضاء المخططة، وهو يقول ساخراً:

"ولا أقصد التحامل علي الخديوي جمال عبد الناصر أبداً. وإنما أقول: كلهم خديوي. والفرق هو أن ذاك خديوي مدني، وهذا خديوي عسكري، ولكن الخديوي المدني أقل ضرراً من العسكري! يقول لك عبد الناصر: العروبة وما أدراك ما العروبة! واحنا مالنا وما العروبة؟ نحن فراعنة ولستنا عرباً!"

- يا (أبو جرجس) إذا كانت أمننا هاجر التي سعت بين الصفا والمروة، ولا نزال نسعى مثلها في الحج، هي

مصرية، وإسماعيل ابن المصرية هو أبو العرب، معنى ذلك أن العرب كلهم أولاد المصرية هم بالضرورة مصريون، وبعبارة أصح فلنقل: إن المصريين كلهم عرب. قلها كما تشاء!

يفاجأ أبو جرجس بهذه المعلومة، فيصمت مغلوباً على أمره، بينما يشدك محمد قائلاً:

- يبدو أن الرجل لم يؤجر غرفتيه فقط، بل يؤجر عقله للشيطان. يدخل بك إلى غرفتنا وهو يقول:

- الرجل يهذي، فإذا بنى عبد الناصر مساكن شعبية للفلاحين، قالوا: اعثدي على الأراضي الزراعية، وإذا بنى المصانع، قالوا: لقد دمر البيئة. وها هو الغرب يدمر الكون كله بدخان ومخلفات كيماويات مصانعه المخيفة، ولا يستطيع أن يعترضه أحد! القطن والصوف المصري يا مشهور كان يذهب إلى بريطانيا شبه مجاني، مقابل حماية بريطانيا لأمن مصر، وكأننا لا نستطيع حماية وطننا، علماً بأن حاميتها حراميتها والحماية ليست سوى لعدد محدود من الإقطاعيين، الذين ينشطون لخدمة المستعمر في نهب ثروات الوطن.

واليوم تقوم مصانعنا العملاقة بتصنيع منتجاتنا المصرية وتصديرها. صار دينتنا في جامعة الأزهر بتوجيهات عبد الناصر- الذي أطلقوا عليه النار في المنشية - دين علم وعمل وآداب وفنون، يتعلم فيها طلاب العالم من أندونيسيا وماليزيا والفلبيين أصول الدين وكافة العلوم الحديثة، وولد

السد العالي الكهرباء، فأوصلناها إلى كل مصانع وقرى مصر، التي كانت تسهر على سراج علاء الدين، فصار المصري اليوم يقول للمصري: (عليك نوراً) ولم يعد في الريف ظلام للحرامية وقطاع الطرق! وأما عن الفساد والمحسوبية التي تتمدد في الخفاء، فكل دولة فيها حرامية، وعبد الناصر وحده لن يستطيع تعقيم البلاد!

يقول محمد هذا، ثم يسحب جريدة الأهرام من بين كتبه، ويعود إلى المطبخ، فتلاحقه إلى هناك لتمنع حدوث معركة شخصية، فتراه يقول ل(أبو جرجس): "اقرأ ما تنشره وسائل الإعلام عن تأثير عبد الناصر الذي لا يعجبك." ويقرأ هو، عندما لا يقرأ ذاك :

❖ بسبب حرب الاستنزاف، عمال ميناء نيويورك يرفضون تفريغ الباخرة المصرية كليوباترا، بتأثير من اللوبي الصهيوني .

❖ رداً على المقاطعة، عبد الناصر يطالب العمال العرب بعدم تفريغ أي باخرة أمريكية في موانئ العرب.

❖ عمال الموانئ العرب يستجيبون للرئيس، فيضطر (الجيش الأمريكي) إلى القيام فوراً بتفريغ شحنة الباخرة كليوباترا في ميناء نيويورك !

- هذا هو القائد الذي يهز الدنيا بخطابه! يصبح محمد غاضباً، وليست مظاهرات الموتى التي تحلم بها وحدك! " تعال يا محمد." تسحبه من المطبخ: " الرجل سكران، وأنت دمك يفر في دفاعك المستميت هذا!"

" هذه مصالح يا صديقي،^٢ يجيبك بنبرة الواثق من نفسه،
 " أنا ابن عامل كهرباء، أدافع عن مصالحى العمالية، و(لأبو
 جرجس) مصالحه في عودة الإقطاع والمستعمر، ووكالاته
 التجارية، كي تعود مبيعاتهم تمتص عروق الشعب المصري،
 فنستدين بمليارات الدولارات مشروبات الكولا ولحوم
 البورغر، وننسى عصير المانجا الشهي وقصب السكر اللذيذ،
 ولحم البتلو الزهري! يريدون أن يفرقونا في مأكولاتهم
 ومشروباتهم المدمرة للصحة ولميزانية الدولة!^٣

ها قد جاءكم اليوم أيها الإسكندرانيون جيل كنعان
 الأخضر، الطيب المسالم، والذي لا يشرب الكولا ولا يأكل
 البورغر ولا حتى البتلو الزهري أيضاً! فلو نجحت تجربة
 هذا الجيل، فسوف يتهاوى الاستعمار في العالم كله، ويتوقف
 نهب الثروات من أساسه! فكرة التحضير هذه مبهرة! أنا
 منذهل من فكرة الحيوان الأخضر هذه!



في اليوم التالي لمعركة المصالح، تأتيك تينتي منتهزة
 فرصة عدم وجود أحد في البيت، وأنت الوحيد المواقف على
 رسوماتك الهندسية. حتى محمد سارح، أو مداوم في
 مطعم الدمثوري. تقطع عليك خلوتك، فتجدك سلبياً غير
 مبالي بالحب، ولا بالولادة! ولكنك أيها اللئيم تشتهي

حضورها، فتتهياً لاستقبالها. تقترب منك، فتلتقي معها بالأحضان، وتتدشق أنفاسها الأثوية الشبقة اللاهبة، فتخرج من عالم الدنيا، إلى عالم الخدر. تمتص رحيق أزهارها، فلا تستطيع وصف تلك اللذة التي تسري في جسدك، لا بالشهد، ولا بكل ما أنعم الله على الإنسان من متع الدنيا! ها هي تيتي ملاك تزورك في أحلام صحوك، وتمتزج معك، فتذيب في أحضانك جسدها الطري، بنشوته الغامرة، وتمتص منك ما يخرجك من كل أطوارك. وتعري كل مفاصلها وكنوزها لك وهي تحتضنك، فتتخيل جدتك أنيسة تقعد أمامك مكررة مقولاتها (درب البنات...) تبتعد قليلاً، فتشددك تسيتي بأظافرهما وهي تصرخ فيك قائلة،

”اقترب يا جبان، اقترب يا نذل!“

تعرف أنك لست جباناً، ولا نذلاً، بل رجل مبادئ! يبدو أن جدتك أنيسة استطاعت أن تنزع منك دسم اللذة الجنسية، فطلعت رجلاً مضغوطاً بالجنس، مع وقف التنفيذ! ولكن قيتي لا تترك لك فرصة التفكير، فتنسبك جدتك وكل أهلها. فيتحول جسداكما إلى شكلين من أشكال الطاقية، وتختفيان عن الوجود..

عيش وملح !

خروجك من الإسكندرية لا يختلف عن خروج آدم من الجنة، بعد حدث لآدم لوثة دماغية، أو فوضى حواس، أو غموض في الرؤيا، أو عُقد نفسية . وهذا ما حصل معك، فلم تعد تستطيع للمة شؤونك.

أول أهدافك بعد النكسة هو عودتك إلى أهلِكَ في فلسطين، التي صارت كلها محتلة، ولكن العودة إليها صارت ممنوعة بقوة السلاح !

كان " شعب الله المختار " يسمح للفلسطينيين بالخروج من الجنة، ولكن العودة إليها ممنوعة ! فصار همك المؤقت هو إيجاد فرصة عمل تعتاش منها، بينما دخل محمد محمد التجنيد، وحرب الاستنزاف الناصرية، وانخرط مع رفاقه في الاستعداد لاختراق خط بارليف.

توفي جمال عبد الناصر بطريقة غامضة، فهاجم الشامتون بموته، يبحثون عن مكتنزاته، فلم يجدوا في ذلابة بيته سوى كيلو واحداً من لحم البتلو..

لم يكن جيل كنعان الأخضر الذي يعارض استهلاك البتلو وغير البتلو قد هلّ، ولو عممت فكرة كنعان آنذاك، فلن تجد

أرملته (السيدة تحية كاظم)، كيلو لحم البتلو في ثلاثة بييتها المكلوم..

فتشوا في كل البنوك المصرية والعربية والدولية ، فلم يجدوا له حساباً في بنك. كانت حساباته في جيوب الغلابي والمستضعفين المصريين. وهؤلاء الغلابي بأدوارهم اللانهائية وهبوا كل حساباته وحسناته إلى الآخرة.. (يَوْمَ لَّا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِنَّمَا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) بكاء كل المستضعفين في الوطن العربي، وأمر نيكسون بوقف تدريبات الأسطول السادس في البحر المتوسط، قائلاً إنه لا حاجة للتدريبات بعد وفاة ناصر.

عمل لك أخوك هالب تأشيرة دخول إلى دبي، فدخلتها، وعملت مهندساً في بلديتها، ومن هناك اتفقت مع أحد المواطنين على فتح مكتب هندسي مشترك للاستشارات الإنشائية، وبدأتما العمل؛ هو في الإدارة والعلاقات العامة، وأنت في التخطيط والتنفيذ الفني. والكريم قال، خذ .

ونظراً للعيش والملح والقطير المشلتت، ولكونك قد صرت صاحب عمل، تقرر إشراك المهندس محمد محمد في مشاريعك المدنية، فبعد انتشاع غبار حرب ١٩٧٣ الذي حجب الرؤيا أمام الأنظار، تلاحظ أن أخباره قد انقطعت عنك، فتحاول الاتصال به، فتفاجأ باستشهاده في معركة العبور! تذهل للخبر، فتقطع علاقتك بالإسكندرية والمنصورة ومن فيهما!

رحلت تستقطب منات المهنسيين المصريين الكفؤين في مشاريعك الإنشائية، وتعطيهم فرص العمل، وتعاطف معهم. ويبدو أن الحلاوة الطحينية قد أثمرت فيك، وبقيت تحت أسنانك!

وبعد عشر سنوات من القطيعة، لا تياس من التفكير برد الجميل إليهم، فيخطر في بالك الاتصال ببيت (أبو جرجس). كذت قد نسيت رقم هاتفهم، فتطلب من استعلامات اسكندرية رقم هاتف مرقس جرجس متري، الساكن في كليوبترا الحمامات، وتتصل بالرقم، فيطلع لك صوت أم جرجس، التي تفاجأ بهاتفك. وبعد السلام والتحية والأشواق، وتعريضها على أحوالك، تسألها عن حالها وأحوالها وما هي أخبار (أبو جرجس) وجرجس وتيتي ونوسا؟

حالتا لا يسر صديقاً^١. تبكي على الهاتف وهي تقول لك: "أبو جرجس توفي قبل خمس سنوات! وتحملت أنا المسؤولية بعد وفاته، فأجرنا الغرف الثلاث، كي نعيش من إيراداتها، وتيتي قضت خمس سنوات في فرنسا. كانت تعمل هناك، وعادت منذ سنة. ونوسا تعمل مُدرسة موسيقا. وجرجس يدرس في كلية الهندسة. والحالة على ما (قُسُ)!"^٢ تُصدم بخبر الرجل فتعزيها بوفاته، ولو متأخراً:

- عليه رحمة الله، البقية في حياتك. من الذي عندك في هذه اللحظة، كي أتحدث معه؟ فتقول: "عندي تيتي، تفضل، تكلم معها."^٣

تتحدث مع تيتي، فتثير شجون ذكرياتك وهي تقول لك:
 "كيف خطرنا على بالك يا مشهور، بعد هذا العمر
 الطويل؟ فتجيبها ملهوها لسماع صوتها:

- أنت لم تغيبني من بالي يا تيتي، كي تخطري عليه مرة
 أخرى. تحدثها عن أعمالك في دبي. ولا تسألها عن زوجها،
 فلو تزوجت لذكرت ذلك لك، أو لتحديث عن زوجها وأولادها،
 ولكن يبدو أنها ما تزال.. فتسألها:

- هل تعملين يا تيتي؟ أو دعيني أسألك: كيف تقضين
 وقتك هذه الأيام؟ فتجيبك محبطة:
 "أعمل سكرتيرة في مكتب فرنسي."

أنت لم تستطع تجاوز كونك متزوجاً في الحديث معها،
 ولكنك تسألها عن تخصص جرجس في الهندسة، محور
 حديثك الهاتفي، فتجيب بتلهف الباحثة له عن فرصة عمل:
 "تخصص جرجس مثلك في الهندسة المدنية، وسيخرج
 هذا الصيف. وهو مؤدب وخلق وطيب، ويستحق منك كل
 رعاية! أنا أعرف شخصيتك يا مشهور. أقصد يا باشمهندس
 مشهور."

يبدو أن أمها الواقضة إلى جوارها قد زجرتها على
 مناداتك باسمك دون عبارة "باشمهندس"، فتصحح وتواصل
 حديثها "سيكون جرجس لك خير معين إذا دبرت له عقد
 عمل معك في الإمارات."

- هذا عظيم! ما رأيك أن تبحثي معه ومع والدتك،

مدى رغبته في الهجرة إلى دبي، كي يشتغل معي في مشاريع الهندسة المدنية؟ فتفزع مندفعة بقولها: " صرت مقاولاً قد الدنيا يا باشمهندس! ربنا يخليك."

- شخصيتي تغيرت يا تيتي فلقد صرت رجلاً مهنيًا، تقول لها ضاحكاً: - لكنني كما عهدتني، ما زلت ساذجاً في أمور الحب!

وبالفضل ترتب له تأشيرة عمل، فتستقبله بالأحضان في مطار دبي.

- والله وكبرت يا جرجس الحبيب، وصرت مهندساً، وسيد المهندسين!

" البركة فيك يا باشمهندس مشهور". يجيبك بمنتهى الأدب.

- أرجو أن تناديني بمهنتي! مهندس مشهور، دون هذه (البشاشة)، فأنا لست باشا، وعبد الناصر رحمه الله أنهى عصر الباشاوات!

" ولكن الباشاوية الآن رجعت ألحن مما كانت على زمن الملك فاروق!" يجيب جرجس ضاحكاً، "فبعد أن كانت مقصورة على الباشاوات، صار شرطي الأمن باشا، والسباك باشا، وبائع عصير القصب باشا؟ صارت الباشاوية على قضى من يشيل! على كل حال، أنت تأمر يا مهندس مشهور."

تأخذه إلى بيتك، وفوراً تدبر له سكناً ملحقاً ببيت هاديء بعيد، عبارة عن غرفة مع صالة وملحقاتها، منعزلة عن

الجيران، حيث يفتح بابها من الخارج. وقدخله ملاك عملك،
وتدربه، وتراقبه، وتعطيه فرصة الرسم والعمل والمتابعة.
وبالفعل، يصير جرجس مهندساً مناسباً في المكان المناسب،
ويستطيع أن يكون مساعدك، وذراعك اليمنى في العمل،
فينتقل إلى سكن أفضل، لاستقبال عروسه الجميلة.

وبعد عدة سنوات، لا يخفي عليك المحترم أنه قد استعاد
بالشراء الخمسين فداناً التي باعها أبوه، وأنه قد رفع دعوى
قضائية، يطالب فيها باستعادة الخمسين فداناً التي أممتها
الدولة وسلمتها للفلاحين، فحصل عليها، وذكر لك أنه في
المراحل القضائية الأخيرة من استعادة الفلة المصادرة في (أبو
قير). تفاجأ بأنه قد استعاد كل ما فقدته أبوه.

وبعد ما خلّفت له زوجته ولدين وابنتين، تركك وعاد إلى
حيث أتى، ذاكراً لك إنه سيستعيد وكالة السيارات
الأمريكية، التي كانت قد أممت، وصودرت من والده.

(طاسة، طرن طاسة) !

ها هو كنعان قادم مع والده من دهليز المستشفى.. يهجم عليك الأخضر بالأحضان مُقبلاً وجهك وهو فرح بنجاحاته، ويبشرك برهان بنجاح الفحوصات، فنحتضن كنعان بيننا، ونصرخ مبتهجين بالنتيجة التي توقعها برهان.

ومما يزيد دهشتك، مشاهدة فتاة خضراء بملابسها الشفافة مثل كنعان تحتضن قطعة جميلة، خضراء الفراء والعينين، يبدو أنها خارجة من مختبراتهم الوراثية، تقف إلى جوار امرأة جادة أوروبية المظهر. ينتبه برهان، فيقول: - أعرّفك على السيدة الألمانية (إلزا)، وعلى ابنتها الجميلة (مونيكا)، القادمتين ضمن مجموعة الخضر المُخضّعين لإجراء فحوصات طبية في مستشفى شنغهاي هذا، مشابه لما جرى مع كنعان.

تلاحظ احتفاء كنعان بصديقتيه مونيكا، ذات الشعر العشبي الأخضر، المنسدل كذيل حصان أخضر على ظهرها شبه العاري. ويُسرُّ لك برهان أن مجموعة كبيرة من الشباب والصبايا الخضراء قد أحضروا معاً، بغرض فحصهم في هذا المستشفى الدولي، ومن ثم التّفسّح في ربوع الإسكندرية

الجميلة، وكلهم ينزلون الآن في فندق (جوانج تشو) حيث
نزل، وبذلك يكون له أصدقاء ورفاق في الإسكندرية ، يقضي
وقته معهم في المرح والثقافة .

نخرج معاً من المستشفى، وأنت تفكر بترتيب احتفال
بنتائج الصحة المبهجة، فيستأذنك كنهان بدعوة صديقه
مونيكاً وأمه لحضور الحفل، فترحب بذلك. وأنت تعرف أن
الأوروبيين مسحورون بمعالم الشرق، فتقول لنفسك: " إنها
فرصة لزيارة مدينة كليوبترا السياحية التي ابتلعها البحر،
فينزل السياح يبحثون عنها في القاع". تلاحظ أن الوقت
مساء فتقول: " ما رأيكم أن نقوم صباح الغد بزيارة سياحية
مدهشة؟" فيضرحون موافقين.

في هذا المساء الفندق السعيد، الذي تتوهج فيه جدران
العمارات الناطحة للسحاب بنورها الوضاء، الذي اختزلته
ألواحها الورقية المقواة من الشمس طوال النهار، ثم باحت
به للمدينة طوال الليل، فحولت ليل الإسكندرية إلى نهار،
ولم تبق للعمة مكاناً تسكنه، فترحل مدحورة إلى حواري
وأزقة المناطق الفقيرة، التي ما تزال بيوتها التقليدية مُمعّاة
بلا نور، ولا عيون، حتى في عز النهار، تكبس زر المحمول على
رقم ٢، فيجيبك مدير المطعم بأن عشاء اليوم هو مأكولات
بحرية. تبلغ برهان بذلك، ثم تصحبه هو والألمانية إلزا
معه إلى العشاء، بينما يبقى الصغيران كنهان وصديقه
مونيكاً يلهوان ويلعبان معاً، في غرفة الألمانيةتين.

هذا المطعم يغطي طابقاً كاملاً من الفندق، تستطيع أن تقول إنها مدينة من المأكولات البحرية، وليست مثل سمكة (أبو جرجس) المياسة اليتيمة. هنا تشاهد كل ما تشتهيهِ الأنفس، وأمام هذه المرأة الألمانية الشهية، لا نفس لك لتأكل، فالإنسان حتى ولو كبير، فإن الجنس الآخر يبقى محركه الثالث نحو الإبداع والنشاط والتفكير السليم.

يأخذكم المضيف إلى البحريات المعروضة، فيقول لكم: " هذا كافيار جيد لل...، وهذا سالمون مصدر الأوميغا ٣ المانعة للتأكسد، وهذا. وهذا. أمامكم ألف صنف وصنف من المأكولات البحرية، هذا مدخن، وهذا مشوي، وهذا مقلي، وهذا مطبوخ، وهذا مسلوق، وهذا فسيخ متنوع في أصنافه وبهاراته وزيوته، وهذا يؤكل نيئاً دون طبخ، فاختاروا ما تشاؤون. " يتناولان بطبقيهما.. وأنت ليس لك نفس للأكل. نفسك مسدودة، بعكس شهيتك التي كانت مفتوحة على الآخر أمام السمكة المياسة المقلية في مطبخ أم جرجس .

تفكر بكونك مقطوعاً من شجرة، لا زوجة معك تؤنس وحدتك! تشعر وأنت في هذا العمر وكأنك في حكم الممنوع من الصرف والتصرف، فلا تستطيع الزواج. والمحزن في الأمر أنك على شفا حفرة.. وكما قال الممثل عبد الوارث عسر(ما يباحق الواحد يعرف كل حاجة، إلا وهو متخرج!)..

برهان وإلّا يأكلان بنهم، وأنت تتفاضل في مخيلتك كل هذه التجارب، والحياة كلها ليست سوى مجموعة تجارب، فتوصلك إلى قناعة تامة بأن الوقت قد انتهى. وأن راعي الزمن يقول لك كما يقول لك راعي الهاتف المحمول: " بقيت لك دقيقة واحدة لإنهاء هذه المكالمة ". وأنت أيها العجوز المنتهية صلاحيته، بقيت لك محطة واحدة. فتوصلك إلى محطتك الأخيرة في عكا!

وفي المطعم تصدر قرارك إلى برهان هكذا مرّة واحدة : " برهان أنا سأعود إلى عكا وهناك أستطيع أن أعيش في كنف عائلة أختك سمر، وأقضي وقتاً ممتعاً في ربوع الوطن مع أسباطي الذين هم الآن رجال فاعلون، وتجار ومهنيون مهولون في عكا. "

المطمئن في الأمر أن امتدادى الآن في فلسطين قد أثمر ما يزيد على أربعة وعشرين قيراطاً ذهباً. أقصد أربعة وعشرين ولداً وبناتاً إذا حسبت أحفاد ابنتي سمر، وهناك أستطيع أن أسافر معهم في كل عطلة إلى حيفا أو يافا أو القدس أو غزة، ومن على جبال الجليل الأعلى ورأس الناقورة وهدار الكرمل، ستراقب غروب الشمس، وغطسها في البحر. سأعود ألعب مع أطفالي، تماماً كما كان جدي وجدتي يلعباننا أيام طفولتنا القديمة، وسأحزّهم حزرة جدتي أنيسة التي كانت تسألنا وهي تلاعبنا :

(طاسة طَرَن طاسة !)

في البحر غطاسة،

من جوة لؤلؤ،

ومن بزة نحاسة!

.. شو هي؟)

فيقول لي أحدهم كما كنت أقول لها،

(الشمس!) فنضحك جميعاً

تعرف يا برهان، لقد سئمت تكاليف الحياة، أريد أن أرتاح وأريح. ينظر إليك برهان والزنا التي لا تفهم لغتك العربية، وهو بين فرح وحزين، ولكنه لا يُعقّب على مشاعرك وأنت تحدثه عن واجب العودة، وليس حق العودة إليها! في صباح اليوم الثالث، نخرج مبكرين لنتمشى في الساحات التي اشتراها المجمع الصناعي الصيني وهدمها ثم أعاد بناءها بطريقته الخاصة، حيث جُرّفت صفيّة زُغلول، ومُسح سعد زُغلول عن الأرض، وأزيل ما يتفرع منهما، وهدمت معظم المباني، فضّح بحر محطة الرمل على المدرج الروماني الشهير، والذي تم الاتفاق على أن يكون (عاليبة)، ليبقى شاهداً على العصر.

نحن الثلاثة نسير معاً، والأخضران كنعان ومونيكا يسيران خلفنا، وذراع كل منهما تطوق عنق الآخر.. تحكي لبرهان الذي يترجم لإنزا قصة كليوباترا مع القيصر أنطونيو الذي كان يحتل بلادها ويمارس العشق معها في ربوع الإسكندرية .

نصل إلى المدرج الروماني الذي يستعصي على تجريفات العولمة، فنتجول في المدينة الصينية للمعارض التجارية والملاهي والسينمات التابعة. وفي هذه المنطقة، أنشأوا دور مسارح، ودائرة للأوبرا، مجاورة لمسرح سيد درويش الذي بقي حياً، تؤكد تاريخه العريق صور يوسف وهبي عميد المسرح العربي في مسرحياته الرائعة مع أمينة رزق، وحتى حركات صفاء أبو السعود الصبائية الاستعراضية الغنائية، وغيرها. وفي قاعة يوسف وهبي الثقافية، تعرض لك شاشة كمبيوترية واسعة على كل الحائط، مسرحياته القديمة الجميلة، وهو يقف محاوراً (أمينة رزق)، بصوته الخشن المصقول.

- يا للهول! انت خدعتيني يا أمينة! فتجيبه مصعوقة، ويدها على صدرها:

- أنا يا خبيتي! لا والله العظيم! دا حتى...

وفي الداخل، يجلس بعض المتفرجين على صفوف مقاعد زرقاء متراصة، لمشاهدة العروض المجانية المتواصلة. مع فواصل إعلانية.

وفي الساحات المكشوفة نشاهد ملاهي ألعاب ضخمة للكبار والصغار، شبيهة بألعاب ديزني، ولكن بطريقة صينية متطورة، تحيط بساحاتها الواسعة عمارات أبراج بلورية حديثة، مخصصة لرجال الأعمال، تتوجها ناطحة السحاب

ذات البرجين الصينيين التوأمين (تيافجن) واللتين تشبهان صاروخين لانهاذيين يخترقان السماء.

نتجول فنشاهد محلات تجارية، ومكاتب إدارية، ومقاهي وملاهي وقاعات ترفيهية، وأسواق مالية، وشركات عابرة للقارات.. وينتشر معرض صيني صناعي تجاري كبير على مساحة واسعة شرق شارع سعد زغلول سابقاً.. وأثناء مرورنا بالساحات المزدهمة، نشاهد عرض مجسمات لمشاريع صينية عالمية، بهدف تسويق حضارتهم.

يشدنا مشهد شاب يختطف حقيبة يد امرأة عجوز في الساحة العامة.. كانت العجوز تسير متأبطة ذراع رجل آلي، وكأنها تتوكأ عليه.

كان الآلي يسير إلى جوارها، وهو يحدثها أحاديث يبدو أنها نكت مضحكة، ذلك لأن العجوز تثقه بصوت غير مسموع رافعة رأسها إلى السماء، ومسادة ذراعها الأخرى الحاملة لحقيبتها بعيداً، بينما هي تضحك. والرجل الآلي منهمك في إسعاد المرأة المثوية العمر، والتي يؤكد مظهرها على كونها ثرية. وهجأة يقفز الحرامي، فيختطف حقيبة العجوز المحنطة على شكل متحرك، وينطلق هارباً في الساحة، فيترك الرجل الآلي ذراع رفيقته العجوز، وينطلق خلف الحرامي بسرعة البرق.. وبعد مطاردات بين السيارات الهيدروجينية، وتحت المركبات الجوية المنطلقة صامتة فوق

العمارات وبينها بسرعة، والقفز فوق الجدران، والانطلاق عبر الحواجز، يلتقط الآلي الحرامي..

نقف مندهشين ونحن نرى الحرامي يُعاد منكشاً مع الآلي إلى العجوز، مثلما ينكمش أرنب بين مخالب نسر جامح، بينما الآلي يفرس أظافره المخليبية في أعصاب معصم الحرامي، والمعصم تشر دماً، والحرامي يصيح متألاً بصوت جهوري يوقف حركة سير كل من في الساحة المنظورة. يتقدم شرطي، فيضع الحديد في معصمي الحرامي، ويعتقله ثم يرافقه باتجاه ما، قد يكون إلى مركز الأمن، فيختفون عن الأنظار!

تستمر المسيرة، فنقول لبرهان: "كنا أيام زمان، هنا في محطة الرمل نصل بالترام، قادمين من منطقة كليوبترا، فنتفرج على معروضات شارع صفية زغلول، ابتداءً من كتب دار المعارف، وحتى نصل إلى البن البرازيلي، فنجلس، ونطلب قهوة تركي، كنت أفضلها شقراء، فيطحن لنا القهوجي العجوز الأسمر - عبده الصعيدي - حبيبات القهوة البرازيلية، يأخذها من محمسته الأسطوانية الواسعة، وكأن فيها طناً من حبيبات القهوة، وهي تدور أمامنا، تضح منها رانحتها الدخانية الضبابية، التي تعبق الأنوف برانحتها المشهية، فيقول لي صديقي الشهيد محمد:

"هذا الذي يستمتع بشم الراححة، نسميه (شَمَام)".

فأجيبه متفلسفاً : - الآن فهمت أصل عبارة (عالريحة)
فالكثيف يشرب الراححة !

كلام فارغ كثير يملأ وقتنا ونحن جالسين نراقب هذه
الجميلة الداخلة، وهذا العجوز المتصابي المتكئ على
الحاجز، والذي تفضح صيغة شعره الأسود تلك الطبقة
البضاء النامية تحت الرماد، وذاك الخنفس المخنث، وذاك
الشاب المغرور، الذي يراقب بعيني صقر فتاتين تجلسان بكل
براءة واحتشام!

وقبل أن يطحنها الرجل الصعيدي، يسألنا:
" بالهال أم بدون هال؟ " فنطلبها معاً دون هال. فيقول
الصعيدي الخبير بالقهوة: " يبدو أنكما ذواقان للقهوة. فالهال
يُضَيِّع طعم القهوة، وذواق القهوة لا يقبل مزجها بالهال! "
يتناول (كنكة) نحاسية صفراء محمصة، بحجم فنجان
القهوة، فنتفرج عليه وهو يعينها بالماء، ثم يضعها على النار،
وهو يسألنا : سكر زيادة، أم عالريحة، أم دون سكر؟ فأجيبه
بكل احترام وتقدير لدقته:

- سكر وسط.. فيقول لك محمد: تحية كاريوكا تقول:
" خير الأمور الوسط! " فيضحك العجوز، ويقدمها لنا قاذلاً:
قهوة مخصوص للأفندية!

نرتاح لطريقته المحببة في التسودد للزبائن، ونشعر
بانجذاب للتردد على هذا البن البرازيلي. نشرب وراححة
القهوة تشرح صدرينا، فيسألني محمد مستغرباً:

” لماذا البن البرازيلي هو السائد عندنا، وليس البن العدني؟“

فأجيبه متحسراً على الهوان العربي:

- لأن مساحات أراضي بلاد سد مأرب لا تكفي إلا لزراعة القات، الذي يسلطنهم، وينسيهم التفكير بالدنيا كلها! نخرج من البن البرازيلي، فنتسكع قليلاً في شارع صفية زغلول، وننتفج على آخر معروضات الأحذية والملابس من خلف زجاج المحلات التجارية، مجرد فرجة، ذلك لأن أحداً منا لا يملك ثمن حذاء يشتريه. ثم مالها الأحذية التي نلبسها؟ صحيح أنها (نصّ نصّ)، ولكنها ما تزال تسير على الأرض!

يستمع برهان إلى حكاياتك وهو صامت، وكأنه يسجل هذه الوثائق كنوع من التأريخ الشفهي.. تستغل فرصة من يسمع ويسجل فتقول:

- لم يكن لدينا تفضيزات في تلك الأيام. فالسينما هي الحل، للتعرف إلى ما يدور في العالم من أفكار وفنون، والتمتع بمعطيائه. ولذلك كنا نتجه أنا ومحمد محمد للتعرف إلى أفلام سينما الأسبوع الجديدة، فنصل إلى صالة سينما (بلازا)، ثم سينما (مترو)، وبعدها سينما أمير، ولا ننسى أن نخرج إلى سينما (ريفيولي)، وسينما (ريالتو) التي كانت كلها في هذه الساحات التي.. والفيلسوف محمد محمد يقول لي نكتة سخيفة:

” في واحد راح سينما رياتو نزلت!“

نضحك على أي شيء. نضحك والسلام. كانت أيام شباب،
نضحك فيها على أي شيء يا پرهان، ولكنني اليوم (وجهي لا
يفرح حتى للرغيف الساخن.) ذلك لأن حموضة جسمي
العجوز تمنعني من تناول الخبز!

نروح نتسكع في الشوارع ونحن نغني أغاني مجانين، ليس
لها طعم ولا أساس من المنطق، وبصوت عالٍ معاً، مشاغبين
على ألحان فنان الشعب سيد درويش، فنقول بدل “بلادي
بلادي بلادي” :

(بلازا بلازا بلازا ..

فيك فيلم في منتهى اللزاة !

بلازا يا أحلى السيمات ..

فيك غاييتي والمراد ،

وعلى مترو التفات ،

فاسلمي لي يا بلازا !)

وفي الطريق إلى سينما مترو، يقول لي محمد محمد :

- رغم الانتصار يا مشهور، فلقد أهلكتنا حرب اليمن. إن
تدفق النفط في الجزيرة العربية، جعل الغرب يدعم قوى
تحمي تدفق النفط الرخيص باتجاهه. وهذا بالمقابل، ألهب
غيرة قوى حركات التحرر العربي، التي قامت في الخليج لمقاومة
نهب ثروات الأمة العربية النفطية. وهذا ما جعل عبد الناصر
يدعم قوى التحرر هناك. ولكنك كما ترى، فالخطر

يداهمنا، ونحن ننتقل من اليمن إلى سيناء، باتجاه فلسطين،
بجيش منتصر، ولكنه منهك القوى، على الأقل بسبب كثرة
التنقل من بلاد إلى بلاد.

ودون تخطيط استراتيجي مسبق، يبدو أننا نُجرُّ جراً
إلى حرب قادمة، ليس وقتها! وها نحن نطلب سحب القوات
الدولية من مضائق تيران. وذلك معناه الحرب مع الكيان
الصهيوني. بعد الستة وخمسين، تأتي السبعة وستين، عشر
سنوات من النجاحات السريعة، هل تكملها بالنجاح الأكبر،
الانتصار على إسرائيل؟ يا خوفي من المفامرة الأخيرة! يدي
على قلبي يا مشهور! وهذا المشير..!

تصور يا برهان، فخلال معارك الفوكلاند بين الأرجنتين
وبريطانيا عام ١٩٨٢، تذكرت كلمات الشهيد محمد محمد،
وتخيلت وأنا في دبي وقتها، لو كانت معركة قناة السويس قد
تمت في أيام قاتشر، لأكلت بريطانيا مصرَ بأسنانها. بريطانيا
التي لم تسمح لإسبانيا ولا للمغاربة بشبر واحد من جبل
طارق، والتي لم تسمح للأرجنتين بجزر الفوكلاند، كيف
ستسمح لقلب العروبة - مصر - بالسيطرة على قناة السويس
الاستراتيجية؟ ننتبه إلى أننا قد اختلينا بحوارنا عن
ضيقتنا إلزاماً، فتعذر منها، ويترجم ذلك برهان، فلا تُظهر
المرأة ضيقاً، بل تبتسم قائلة:

إنني مستمتعة بمشاهدة هذه المعالم الاسكندرية
الجميلة.^٦

البحر يلتهم مكتبة الإسكندرية ١

نقترب من قلعة قايتباي، المتضائلة كالنقطة إلى جوار برج منارة الإسكندرية، الناطحة السحاب، وعلى أعتاب بوابة مدينة كليوبترا المتألثة تحت الماء، يتقدم إلينا كنعان قائلاً: - ما رأيك يا أبي أن تذهبوا أنتم إلى برج المنارة، ونذهب أنا ومونيكا مع رفاقنا الخضر- الذين يتجمعون هناك- إلى مدينة كليوبترا الفارقة ؟

تنتظر سماع رأي برهان، الذي رغم الرقابة المشددة، والعناية الفائقة لولده الأخضر، فإنه لم يعارض طلبه، فيُسِرُّ لك: " يبدو أن كل أعضاء فريق الخضر الزائر من المدينة الخضراء في هيسن، قد رتبوا مع أستاذتهم المرافقة رحلة جماعية إلى مدينة آخر الضراعة الفارقة، ومن الطبيعي أن يتعارفوا، وأن يتنزهوا معاً، فيستمتعون بحياتهم المرفهة."

نصل إلى بوابة شاطئ كليوبترا المفتوح حديثاً في الميناء الشرقي، فنُدفع رسوم الدخول، وتذهب أنت وبرهان مع إلزا، لمشاهدة معالم أعلى ناطحة سحاب في العالم، والمتوجة بمنارة الإسكندرية، التي أعيد بناؤها حديثاً، لتظهر حجارة بناؤها وكأنها من نفس الصخور القديمة، مع أنها

ألياف صينية اصطناعية قوية جداً، وخفيفة جداً، كي تقدر على حملها عمارة معلقة في السماء.

" شيد بطليموس الثاني سنة ٢٩٧ قبل الميلاد برجاً هائلاً للمنارة، في هذا المكان" يقول الدليل للسياح المتجمعين حوله " وكان طوله البالغ مائة وعشرين متراً يجعله إحدى عجائب الدنيا السبع. والآن أعيد بناء البرج ليكون فناء الإسكندرية في قمته، ولكن بارتفاع قياسي. " يضحك الدليل وهو يقول، " وكما تشاهدون، فلقد رمت الشركة الصينية آثار مدينة كليوباترا، لتكون المدينة الفارقة الوحيدة في العالم، ثم اشترت امتياز وضعها تحت إدارتها."

نصعد الدرج الدائري الأثري الطابع، الذي يُسوّ الفناء إلى الطابق الثاني سيراً على الأقدام، كي نشعر بعبق التاريخ. فيقول الدليل، " وكما تشاهدون، فإن الصعود والنزول السياحي بين الطابقين الأول والثاني من الفناء يتم عن طريق سلم حلزوني خارجي، تماماً كما كان في الماضي، وأما الآن، فلقد صممت الشركة الصينية البرج بطريقة حديثة مطورة، بعد أن صاروا خبراء في بناء الأبراج الأعلى في العالم.

نستقل المصعد مع مجموعة السياح إلى المطعم الدوّار المتربع على قمة الفناء في الطابق الخمسين بعد المائة، فنشاهد قصر المنتزه والمعمورة وأبو قير من الشرق، وحتى العلمين وبحيرة منخفض القطارة السياحية من الغرب.. كل

الدنيا من حولك تتألاً، وتستحم على الشاطئ الأزرق، الذي يشعر وكأنك في مركبة فضائية تنطلق في عنان السماء. وفي القمة، يستقر الفانوس، مصدر النور في المنارة، فنشاهد مرآة ضخمة، عاكسة للأشعة، تتيح للسفن البعيدة الاهتداء بها.

نجلس في المطعم الدوار، في قمة برج المنارة لنتناول بعض الشطائر والمشروبات الساخنة، فنشاهد المياه تغمر شارع الكورنيش، والبحر يتقدم ليلتهم مكتبة الإسكندرية، التي أعادوا بناءها في نهاية القرن العشرين، فتقول إلزا متحسرة على ضياع هذا الكوكب من بين أيدينا،^٦

إنهم يعدمون الأرض وما عليها، مثل من يدخن بشراهة، ليعدم رتتيه اللتين تعطياناه أكسجين الحياة! إنهم لا يستحقون هذا الكوكب المذهل في غرائبيته وتكامله وحنانه وعطفه على كائناته الحية! إنهم يتجاهلون هذه الأم، التي لولاها لما كانت لهم حياة.^٧ تأكل شطيرتها وهي تقول بتأثر بالغ، يرى من عينيها وحاجبيها المتوترات: "إنني حزينة لكون غابات العالم ومياهه العذبة تشهد تناقصاً مخيفاً. جبال ثلوج القطبين تفرق في مياه المحيطات. النباتات تنقرض بسبب الإفراط في التوسع العمراني، والأكثر دماراً هو استخدامها كوقود حيوي."^٨ ويؤيدها برهان قائلًا: - وهنا تأتي الهندسة الوراثية، لتحل مشكلة الكون، وذلك بإنتاج الحيوان الأخضر الذي لا يعتدي على البيئة.

"أخشى على أولادنا الخضر" ترتجف إلزا وهي تقول:
 "الذين أنتجناهم من أكبادنا، أن يدمرهم جشع رأس المال،
 فالهندسة الوراثية التجارية، المناهضة لكم في السوق، تهدد
 بمخاطر، قد تكون أشع من شريعة الغاب." وبعد ترجمة
 برهان ما تقوله السيدة، تقول مؤيداً لها: "لو تم إصلاح
 جينات الخارطة الوراثية للناس التقليديين، دون تغيير
 جذري لمواصفات الطبيعة البشرية، لكان ذلك أفضل!" فتقول
 إلزا: "ولهذا نحن بحاجة إلى تحرك جماعي للجُم جنون
 الشركات، ووقف جنون استخراج (الوقود الحيوي) من
 النباتات الذي سيقضي على آخر مصادر المياه العذبة، ويتلف
 المخزون النباتي، وينشر الجوع في كل مكان تستزرع فيه
 محاصيل، ليست مخصصة للأفواه الجائعة."

كليوبترا تتلأأ تحت البحر.

نعود إلى باب المدينة السياحية، فنجلس ننتظر الأخضرين في استراحة المدينة.. ها هما يتفصلان عن مجموعتهما الخضراء، المدير لرووس السياح، ويركضان باتجاهنا في الوقت المحدد. قبلات وسلامات قبل أن يجلسا معنا. وبينما مونكا أم شلال أخضر منسدل على جسدها المتناسق القسمات تدرك عدم فهمك للغة الألمانية، فهي تكتفي بالشرح لوالدتها ولوالد كنهان بلغتها، بينما يضحك الأخضر وهو يحكي لك بصيانية مضحكة، عندما سألته: "ها ! كيف كانت رحلتكم الخضراء؟"

"كانوا يتفرجون علينا باندهاش، وطلبوا منا أن نركب غواصة سياحية لنتجول مع السياح البيض في حواري وأزقة المدينة الهابطة في قاع البحر، فقررت مجموعتنا الخضراء أن نشق طريقنا غائصين في البحر مثل الأسماك، وعندها جن جنون المراقبين وهم يشاهدوننا نسير بحرية تامة تحت سطح الماء، ونسزل بجسرة إلى قاع البحر، دون أسطوانات أكسجين، أو حتى زعانف اصطناعية. وصَفَر رجال الإنقاذ الآليين، واستنفرت نساء الأمن الآليات، ودهش السياح من

الأجيال القديمة، عندما شاهدونا ونحن خارج غواصتهم،
وهم لا يعرفون أننا لا نتنفس الهواء .

كنا نسير منبهرين بما نشاهد في مملكة كليوبترا، إذ
ننتقل على الطرق الحجرية المرصوفة، فنشاهد مركباً ملكياً
مدهشاً مصنوعاً من الذهب، وأشرعته المنسوجة من الفضة،
وضربات مجاذيفه المصنوعة من ذيل الحوت، تخفق على
أصوات عزف موسيقى نايات وقيثارات ساحرة، وداخل المركب
تستألف الملكة كليوبترا في خدرها المنسوجة خيوطه من
الذهب، وهي تشبه الملكة بلقيس في موكبها النفيس، وعلى كل
جانب من المركب يُجذّف عشرة غلمان، كأنهم لؤلؤ منشور، لا
تصرف إن كانوا من أنس البر، أم من مرده الجان. وأما
وصيفاتها وجواربها من العذارى، فهن مثل عرائس الماء،
وملائكة الرحمة، يتحركن هنا وهناك، ويأمرن الغلمان
ليوجهوا المركب بمجاذيفهم، ذات اليمين أو ذات اليسار،
وحبال المركب المجدولة من البردي تدهش الجميع .^٢

تضحك مونیکا حيّة، فتتجلى جمالية جسدها الأخضر
النضر وهي تواصل حديثها بالألمانية، وتستغرب أنت ما تسمع
من كلام كنعان الخيالي. ويقول لك برهان فرحاً بهما: "إنهم
يشكلون ثورة خضراء تغير مفاهيم الحياة على سطح الكرة
الأرضية."^٣

ويضيف كنعان، وكأنه يمثل مشهداً مسرحياً: "وعندما
وصل مركب كليوبترا إلى مدخل قصرها الذي أضيئت جوانبه

مع الشوارع بمشاعل مبهرة الأنوار، مرفوعة على أعمدة مرتفعة، وما أن رسى حتى اقترب منه أنطونيوس الذي كان بانتظارها، وأمسك بيدها، فأنزلها من قاربها الملكي، وقد وثه الحب فؤادها، ودخل بها إلى بهو قصرها المضاء بثريرات من لؤلؤ يلمع نوراً، جلب لؤلؤها البحارون الفراعنة القادمون من بلاد شعوب المايا.

ترافق كليوباترا قيصرها في موكبه الملكي العظيم، وحولهم رجال الحاشية والوزراء، ووصيفاتها وغلماها، ورجال الأمن والجواري، كل في بؤرة موقعه، وهو سعيد برقتها الطفولية، وحلاوة نفمة حديثها الذي يسعد أعظم رجل. يجلس كنعان على حافة مقعدك ويحتضنك وهو يتابع حديثه: "استمتعنا يا جدي بمشاهدة الحي الملكي، الذي يتوجّه قصر كليوبترا، وما يحيط به من المباني العالية، والذي لا يبتعد كثيراً من الشاطئ.

وفيما يخص مكتبة الإسكندرية، فلقد شاهدنا موظفي الميناء وهم يحتجزون كتب السفن التي ترسو في المدينة، فتتسخ المخطوطات، ثم تعاد الأصلية إلى أصحابها داخل السفينة.

وبينما نحن نسير فوق شوارعها الحجرية، ضرب المدينة زلزال مدمر، فانهارت الجزيرة كلها، وتهافت الأعمدة الرخامية، وانهارت السقوف، ورسى في مكان منخفض تحت البحر، فأغرقت شواطئها القديمة.^٦

ينتهي كنعان من سرد حكايته العجائبية، فتسأله معجباً
بفنه السردى:

"قل لي يا محترم، كيف شاهدتم كل هذا، وأنتم لم
تغيبوا عنا أكثر من ساعتين وثيف؟ فيضحك كنعان فرحاً
بحيلته التي كادت أن تنطلي عليك:

"أبدأ والله يا جدي! لقد شاهدنا كل ذلك ضمن فنون
عروض الصوت والضوء الحديثة، المجهزة بإتقان، لإشعار
السياح وكأنهم يعيشون الأحداث التاريخية الفابرة، وربط
المكان مع الزمان."

تدهش وتقدر الفن المبدول لإعادة صياغة التاريخ في هذه
المدينة العجيبة، مما يفريك أنت وبرهان وإزا بزيارتها في
اليوم التالي، ولكن عبر مركبة غواصة، ركبناها مع السياح
القادمين مثلنا، فنزلت بنا إلى أعماق بحر المدينة، حيث
نددهش بتلك المشاهد الكمبيوترية الكبيرة على واجهات الآثار
المرممة، والمعاد بناؤها من جديد، وكأنها تتم الآن أمامنا
بالبعد الرابع، وبالحجم الطبيعي!

تتخيل وجودكما داخل المدينة الفارقة، وكأنكما
شخصيتان من ألف ليلة وليلة تتجولان بين قبائل سكان قيعان
البحار، فتخطر في مخيلتك فكرة تنقلها إلى برهان: "ما دام
الخضر قد نجحوا في التجول في هذه المدينة البحرية دون
استخدام الغواصة، ودون تلوين البيئة بخضرتهم النافعة،
فباستطاعة الإنسان الأخضر لو عمم وسيطر على الأرض، أن

يتوسع في بناء مدنه داخل البحر، ويعيش هناك متنقلاً بين البحر واليابسة، فبذلك تخفف مدن البحر من أعباء اليابسة، دون تلوث بيئي.^٥

- وجهة نظرك مذهشة يا أبي، ولا أعتقد أنها قد وضعت على برنامج مشروعنا الإنساني الكبير. سأحتفظ لنفسى بتسجيل سبقك البيئي هذا، وسأسجله تحت اسم نظرية مشهور للإسكان البحري.

وبينما نحن نعود إلى فندقنا، تشاهد عالماً من الشابات والشباب الأخضر ينزلون من سفينة سياحية عملاقة على شاطئ الإسكندرية، وهم يتراكمون بهرج، ومع كل منهم حيوان أخضر. كان عددهم يزيد على ثلاثة آلاف شخص أخضر، هرحت تفكر بأن أشياء كثيرة تتغير في الإسكندرية الساحرة. المدينة التي قاومت كل تحديات التاريخ، وبقيت عائشة تتألق!

كل الجيوش والعربات والأساطيل مرت من هنا، قبل وبعد أن يمر بها الإسكندر المؤسس. كل ذلك التاريخ العجيب ذوّبتّه شواطئ البحر وبخرفته، وبقيت الإسكندرية عربية شامخة مغرورة تنيه بجمالها، وتودع هذا وتستقبل ذاك، وتبقى مياه البحر تتماوج، وتصطدم بطحالب صخور الشاطئ، ثم تعود مناسبة من هناك، رقراقة نظيفة ساحرة، وكأن لم يمسهـا

سوء!

الصندوق!

تدبر أمورك في دبي، وتنتهي أعمالك هناك، وتعود إلى
عكاك القديمة، فيستقبلك أسباطك وأطفالهم، أحضاد سمير،
يتحلقون حولك وهم فرحون بجدهم. تدخل المدينة مترهينا^٥
في قداسة حاشيتها، كرجل عاقٍ، أكل الدهر عليه وبأل،
يدخل محراب دير، فيسلم ذاته إلى الله، ويتوب على يديه
من كل شروره وأثامه..

ثقبُل بوابة عكا الخشبية العملاقة المقواة بالمعادن
العتيقة، وتمشي معهم في حوارها وأزقتها، فتخرج من جمود
شخصيتك وتخشبها، وتروح تلعب وتركض مع أطفالك في تلك
الحواري والأزقة، التي كان ظاهِر العَمَر يحرس هيبتها
بالحديد والنار، ويرفع رأسها بأكاليل الغار. تسير فرحاً بهم،
وتتعد معهم هناك قبالة الشاطئ، لتحكي لهم تاريخ جدك
الذي اختفى وراء الضباب. تراقب بقايا قوارب الصيد، التي
ما زالت تتجمع وتتفرق فوق موج البحر، تنظر بدورها إليك
وكأنها تغامرك وتلامرك.. تقترب من تلك الحورية البحرية،
فتهرب منك، تبتعد عنها، فتلحق بك. تفوس في البحر سابحاً^٦
وراءها، فتساجمك لدرجة تكاد أن تغرقك. تسدفعك

الأسماك والحيتان وكل هوام البحر لإخراجك من المكان،
 مقهورة من إصرارك على معاودة البحث، بينما الدلافين
 الضاحكة تلاعبك، وسماك السردين الصغير يسري من حولك
 مثل غيوم سوداء تعتم قاع البحر، وأنت تبحث عن جدك
 المفقود، فلربما بقي هنا تحت قارب، يصلح أو يدق، أو
 يتحدث مع السمك المتقافز هنا وهناك، ولكنك نسيت أنهم
 اصطادوه! لا، لا، لم يصطادوه، فلو اصطادوه، لظهر معك بين
 السمك المفرد على سطح السفينة. تبحث عنه، فلا تجد إلا
 أصدافاً بحرية. تقعد مع أطفالك، تزخرفون بها صندوق
 عرس جدتك أنيسة، الذي اشتراه لها جدك من الشام. أحضر
 لها من هناك أجمل صندوق عرس، كي تضع فيه أدواتها
 العكاوية المطرزة، وسراويلها السرية، وقلاذتها وصبرها
 وحناؤها، وطبب صوفها التي تصنع منها جرابات وجرازي
 العائلة. تقعد مع أطفالك لترمموا ترصيع الصندوق القديم
 بالصدف العكاوي. ولكن أين هو جدك كي تعطيه الصندوق؟
 ضاع جدك. كان جدك هنا قد يكونون فرمود وعلبوه مع
 سمك التونة الأبيض. فلا أحد هنا يراقب مواصفات سمك
 التونة الذي تحول إلى اللون الأحمر. تبحث عن جدك كي
 تعطيه الصندوق. فيتداخل الصندوق مع أصوات موجات
 البحر. أصوات كورس ومغنٍ أبو لعة والخواجة خريستو،
 وهم يغنون معه: سرقوا الصندوق يا أبو لعة! فيقول أبو
 لعة: لكن مفتاحه معي.

- الصندوق!

- الصندوق!

- الصندوق، حلقات سلسلة.

- سلسلة!

(بقلوب مؤمنة بقضاء الله، ويعتصرها الأسى، تنعى وفاة
المرحوم المهندس مشهور شاهر الشهري عن عمر ناهز المائة
وسنتين، قضاهما في الأعمال التي دوّنها أعلاه، وبعد الصلاة
عليه في مسجد ظاهر العمر، تم دفنه في مقبرة عكا
الجديدة، بحضور أبنائه وأحفاده وأحضان أحفاده، وأهالي
عكا الكرام، بتاريخ ٢٥-٩-٢٠٥١ بعد أن أتم روايته.)
(شبكة المخابرات الخاصة)



عن الرواية:

تأخذك تيتي من نفسك، ولا تترك لك فرصة لالتقاط أنفاسك! أول مرة تتذوق فيها طعم أنثى، وتشم رائحة أنفاسها الساخنة الشهية.. وأية أنثى هي تيتي! إنها شعلة منقولة مباشرة من الجحيم، ومطلّة عليك من جنات النعيم..

تفرقك في ثناياها، وتحرقك بجسدها الملتهب!

يقولون إن الحورية تخرج أحياناً من البحر، وتدخل بيتاً، وتتماهى في جسد فتاة ساحرة الجمال، فتعشق حبیباً، وتنشيه بحبها، ثم تأخذه معها إلى البحر، حيث تعيش معه هناك في سعادة دائمة! لست متأكداً من تماهي الشخصيتين، تيتي والحورية معاً!

عندما يسيطر الإنسان الأخضر على الكون، وتصير حيوانات العالم كلها خضراء، فلا تُخرج أية فضلات! سيتحول عرق الناس والحيوانات الأخضر إلى نتج وندى نقي، وستختفي المراحيض من البيوت، وستتوقف المجاري عن الانسياب، وتعود للأنهار بكارتها النقية، فتتساق رقراق خالية من أي سوء. ولن يتلوّث الهواء بالغازات المدمرة للكون وستعود حرارة الكرة الأرضية إلى التوازن!

هدفنا هو تغيير عقل الإنسان، وإخراج فكرة الصراع منه.
 فلا يعود يضمر الشر لأخيه الإنسان، وسيتوقف اعتداء
 الوحوش والكائنات الحية على بعضها البعض، وستتوقف
 الدول عن غزو الدول الأخرى وقتل مواطنيها ونهب ثرواتها!
 سيسود السلام العالم كله.. وإذ لم تفلح الأديان ولا الأمم
 "غير المتحدة" في تعميم المحبة بين الناس، نقوم نحن بالمهمة.
 نحن نسعى لخلق جنة على الأرض.

الخير
 العربية
 الجيدة

المحتويات

إهداء	٩
شبكة المخابرات الخاصة!	١١
الزمن الأصفر!	١٥
حب في الرياح القارسة!	٢٤
أفغى أم جرس!	٣٥
درب البنات شوكة!	٤٠
طائرة ألف ليلة وليلة!	٤٧
بدلة يتيمة!	٥٥
شيء لله يا سيدنا البدوي!	٦٥
نساء كاسيات عاريات!	٨٠
الجنة تحت أقدام البرتقال	٨٤
الشرق والغرب!	٨٩
هرم فتدقي!	١٠١
افتح يا سمسم!	١٠٥
بُلطية أنفوشية!	١٠٩
أبو الهول العظيم!	١٢٢
خنافس!	١٣٠
أنثى مهیضة الجناح	١٤٢

١٤٩	مطعم الدمهوري
١٦٠	فوضى حواسن اسكندرية!
١٧٢	أبو فطومة
١٨٨	عالم بلا تحديات!
١٩٥	سراويل!
٢٠٢	حزب الخضر
٢١٠	جامعة الاسكندرية
٢١٧	خناقة اسكندرياني!
٢٢٧	سمكة كبيرة!
٢٣٥	راهب الدير
٢٣٩	فطير مشلتت!
٢٥٢	فسيخ رشيدى!
٢٦٣	من هالشنب يل ريس!
٢٧١	بنات بحري!
٢٧٦	العرب مصريون!
٢٨٤	عيش وملح!
٢٩٠	(طاسة، طرن طاسة)!
٣٠٢	البحر يلتهم مكتبة الاسكندرية!
٣٠٦	كليوبترا تتألا تحت البحر
٣١١	الصندوق!
٣١٥	عن الرواية